الجمهوريـــة الجزائريـــة الديمقراطيـــة الشعبيـــة
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة غرداية
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم التاريخ

نشاط وكالة الباستيون وأثره على العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال النصف الأول من القرن 11هـ/17م

(1013- 1070هـ /1604- 1659م)

مذكرة شهادة الماجستير في تخصص: التاريخ الحديث

إعداد الطالب:
الشيخ لكحل

الأستاذ المشرف:
د. إبراهيم سعيود

السنة الجامعية: 1433-1434هـ/2012-2013م

الجمهوريـــة الجزائريـــة الديمقراطيـــة الشعبيـــة
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة غرداية
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم التاريخ

نشاط وكالة الباستيون وأثره على العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال النصف الأول من القرن 11هـ/17م

(1013- 1070هـ /1604- 1659م)

مذكرة شهادة الماجستير في تخصص: التاريخ الحديث

إعداد الطالب:
الشيخ لكحل

الأستاذ المشرف:
د. إبراهيم سعيود

لجنة المناقشة

الدكتور: صـــالح بوســـاليم. أستاذ محاضر أ/ جامعة غرداية.....رئيسا
الدكتور: إبراهيم سعيود. أستاذ محاضر أ/ جامعة الجزائر2.....مشرفا ومقررا
أ /الدكتور: فلة قشاعي موسوي. أ.ت.ع / جامعة الجزائر 2.....عضوا مناقشا
الدكتور: علي العبيدي. أستاذ محاضر أ/ جامعة الشلف..... عضوا مناقشا
الدكتور: الجيلالي شقرون. أستاذ محاضر أ/ جامعة سيدي بلعباس..... عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1433-1434هـ/2012-2013م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــــداء

إلى روح الأبوين الطاهرين اللّذين ربياني على حب العلم ومجالسة العلماء.

إلى روح أستاذتي عائشة غطاس، التي شجعتني على اختيار موضوع هذه المذكرة لكن الأقدار لم تسمح لها أن تباشر الإشراف عليها.

إلى المخلصة وأبنائها: رباب، محمد الزهبي، رميساء، وآلاء.

إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل المتواضع.

الشيخ لكحل

شكر وتقدير

الشكر لله أولاً وأخيراً، فهو الذي وفقني وسدد خطاي ومنحني القوة والصبر لإتمام هذا العمل.

لكن من لم يشكر الناس لم يشكر الله، فيقتضي المقام أن أتقدم بجزيل الشكر والامتنان إلى كل أساتذتي ومشايخي الذين ساهموا في تعليمي وتربيتي منذ نعومة أظافري إلى اليوم، من باب " من علمني حرفاً صرت له عبداً " ويأتي في مقدمتهم أستاذي الأول وشيخي الأكبر الشيخ محمد الذهبي بن مولاي علي حفظه الله.

كما أقدم شكري الكبير إلى الأستاذ الفاضل إبراهيم سعيود، الذي أشرف على هذا البحث وتعهده بالرعاية والمتابعة طيلة مراحل انجازه.

كما أشكر الزوجة الفاضلة على تشجيعها لي وصبرها معي خلال مرحلة الماجستير والتي شغلتني كثيراً عن أمور البيت والعائلة.

ولا أنسى أن أشكر إدارة المؤسسة العمومية الاستشفائية بمتليلي وزملائي من عمال المصلحة على مساعداتهم وتشجيعاتهم.

وأخيراً، فإنّ الشكرَ الخالص موصولٌ لكل الزميلات والزملاء الأساتذة الذين زوّدوني بما توفر لديهم من مصادر أو مراجع أثريت بها موضوع دراستي.

الشيخ لكحل

قائمة المختصرات

1- باللغة العربية:

تح: تحقيق.

تر: ترجمة.

ج: جزء.

ش.و.ن.ت: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

ص: صفحة.

ع: عدد.

2- باللغة الأجنبية:

A. E. S. C: Annales, Économies, Sociétés, Civilisations.
Biblioth. nat. mss. fr: Bibliothèque nationale manuscrite française.
C^{ie}: Compagnie.
CNRS: Centre National de la Recherche Scientifique.
f: folio.
Introd: Introduction.
IREMAM: Institut de Recherches et d'Etudes sur le Monde Arabe et Musulman.
MMSH: Maison Méditerranéenne des Sciences et de l'Homme.
N^{o}: Numéro.
O.P.U: Office des Publications Universitaires.
p: page.
Pub: Publication.
R. A. C: Revue Algérienne et Coloniale.
R. N. M. S. A. C: Recueil des Notices et Mémoires de la Société Archéologique de la Province de Constantine.
R.A: Revue Africaine.
R.O.M.M: Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée.
S.N.E.D: Société Nationale d'Edition et de Distribution.
T: Tome.
Trad: Traduction.
V: Volume.

مقـــدمة

يعتبر موضوع العلاقات الجزائرية الفرنسية من المواضيع التي تستهوي الباحثين في تاريخ الجزائر الحديث، خاصة وأنّ تلك العلاقات قد ألقت بظلالها على تاريخ الجزائر المعاصر، وأصبح لها امتداد حتى في الحاضر.

فقد كانت الجزائرُ، باعتبارها أكبرَ الإيالات المغاربية، تمثّلُ واجهةَ الصراع مع دول أوربا المسيحية في الحوضِ الغربي للمتوسط، خلالَ القرن السادس عشر. وقد توسّعَ هذا الصراعُ ليمتد إلى المحيط الأطلسي وبحرِ الشمال، بعد تطوّرِ البحرية الجزائرية، خلالَ النصف الأول من القرن السابع عشر.

أما فرنسا، فقد كانت، خلال الفترة ذاتها، تُلملمُ شعثَها وتُقِيمُ عوُدَها، سالكةً في ذلك أسلوبَ المسالمةِ والتحالفِ مع الدولة العثمانية، لمواجهة أعدائها داخلَ القارة من جهة، ولتوسيع نفوذِها الدبلوماسي والاقتصادي داخلَ السلطنة من جهةٍ أخرى.

ولما كانت الجزائرُ من أقربِ الإيالات العثمانيةِ إلى الأراضي الفرنسية، فقد عمل الفرنسيون على تثبيت أقدامِهم فيها، منذ توقيعِ سليمان القانوني على معاهدة الامتيازات، سنة 1536م؛ وذلك من خلالِ الحصولِ على امتيازِ صيد المرجان على سواحلها الشرقية. وقد استأثر المرسيليون بهذا الامتيازِ، وأسسوا من خلاله أولى الشركات التجارية الفرنسية في الجزائر، ألا وهي وكالة الباستيون.

ولهذا، فيبدو أنّ العاملَ التجاري والاقتصادي كان المؤثّرَ الأبرزَ في العلاقات الجزائرية الفرنسية، وربما كان، أيضاً، الموجّهَ الرئيسيَ لتلك العلاقات التي تقلبت بين أجواءِ السلام وأُتونِ الحرب، خلال النصف الأول من القرن السابع عشر. ولذلك فقد ارتأينا أن ندرسَ **"نشاط وكالة الباستيون وأثره على العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال النصف الأول من القرن 11هـ/17م."**

- دواعي اختيار الموضوع:

هناك جملة من الأسباب جعلتني أختار هذا الموضوع منها:

–أنّ اختياري لموضوع العلاقات الجزائرية الفرنسية، يأتي في إطار اهتمامي بتاريخ الدولة الجزائرية الحديثة، وما عرفته هذه الدولة من مقومات الازدهار وما شهدته من عوامل الانهيار.

–أما تناولي نشاط وكالة الباستيون، بالدراسة، فهو ينبع من رغبتي في معرفة الدور الحقيقي الذي كانت تلعبه كبرى الوكالات التجارية الفرنسية في تلك الفترة، إن كان مقتصرا على الجانب التجاري أم أنه تعداه إلى غيره.

–أما تركيزي على النصف الأول من القرن السابع عشر، فلأنّ الجزائرَ كانت، حينها، في أوج قوتها، بفضل تطور بحريتها. وهذا ما أكسبها ثقةً وشجاعةً في مواجهة أوامر السلطان العثماني، خاصة ما تعلق منها بحليفه الفرنسي.

– الإطار الزماني والمكاني للدراسة:

تنحصر هذه الدراسة في إطار زماني ومكاني محددَّيْن، ففي الإطار الزماني تناولت بالدرس النصفَ الأول من القرن السابع عشر؛ من سنة 1604م، إلى غاية سنة 1659م.

أما المعلم الزمني الأول؛ فهو أنّ سنة 1604م شهدت تجديدَ معاهدة الامتيازات والتي نصت بشكل صريح على المراكز التجارية الفرنسية في شرق الجزائر، وفيها أيضا قام الجزائريون بتهديم وكالة الباستيون مُنهين بذلك عهداً مزدهراً من نشاط هذه الوكالة، مما شكل بدايةً لتوتر العلاقات بين البلدين.

أما المعلم الزمني الثاني؛ أي سنة 1659م، فهو يمثل السنة التي حدثت فيها ثورة الجند في الجزائر، ونجاحهم في إزاحة الباشوات المعينين من قبل السلطان العثماني عن السلطة في الجزائر، مما شكل سابقة في تاريخ علاقة الجزائر بالدولة العثمانية، الحليفِ الأكبر للدولة الفرنسية، مما سيؤثر على سير العلاقات الجزائرية الفرنسية، بعد ذلك.

ولدراسة هذه الفترة، فقد قمت بتقسيمها إلى قسمين؛ بحيث جعلت بين هذين المَعْلَمَيْن الزمنيين تاريخاً مِفصلياً، وهو سنة 1628م؛ وهي السنة التي شهدت فيها وكالة الباستيون عودةً قوية إلى نشاطها وازدهارها، بعد توقيع معاهدة سلام وتجارة بين الجزائر وفرنسا.

أما الإطار المكاني فهو يتمثل في الجزائر؛ خاصةً السواحل الشرقية، وفرنسا؛ خاصةً مرسيليا وما حولها.

– إشكالية الدراسة:

أما الإشكالية المطروحة في هذه الدراسة، فتتعلق بالبحث للإجابة عن التساؤلات التالية:

– كيف كان نشاط وكالة الباستيون خلال النصف الأول من القرن السابع عشر؟

– وما أثر هذا النشاط على العلاقات الجزائرية الفرنسية؟

– وهل كانت المصالح الاقتصادية هي الموجهَ الرئيسي لسياسات فرنسا اتجاه الجزائر، خلال الفترة موضوع البحث؟ أم كانت الروح الصليبية هي الغالبة في علاقتها مع هذه الأخيرة؟

– منهج الدراسة:

اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي التركيبي. فجمعت المادة التاريخية أولاً، ثم قمت بتحليل الأحداث وتركيب المعلومات المستخرجة من الوثائق والمصادر المعتمدة في هذه الدراسة، وفي الأخير استخلصت أهمّ النتائج منها.

– الدراسات السابقة:

هناك الكثير من المُؤلَّفات التي تحدثت عن العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال هذه الفترة، لكنّ القليلَ منها ركز على نشاط وكالة الباستيون. وباستثناء رسالتي الماجستير لكل من عائشة غطاس وسهيلة علوش، فإنّ أغلبَ الدراسات الأخرى كانت فرنسية، وهي بالتالي تعبر عن وجهة نظر الفرنسيين؛ منها: تاريخ القالة لشارل فيرو، وكتاب العلاقات بين فرنسا وإيالة الجزائر خلال القرن السابع عشر، لدوغرامون، وأيضا كتاب تاريخ المستوطنات والتجارة الفرنسية في إفريقيا البربرسكية، لبول ماسون.

فرسالة عائشة غطاس؛ التي كان موضوعها العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر(1619-1694)، قد تعرضت فيها إلى العلاقات التجارية بين فرنسا والجزائر وأشارت إلى بعض نشاطات وكالة الباستيون، لكنها لم تتعرض لأثر هذا النشاط على العلاقات بين البلدين. أما سهيلة علوش فقد تحدثت في رسالتها عن علاقة وكلاء الباستيون مع السلطات المحلية خلال الفترة من 1640-1698م، وهي تتقاطع مع فترة موضوع دراستي في حوالي تسعة عشر سنة.

– الخطة المعتمدة في الدراسة:

ولدراسة هذا الموضوع، فقد رأيت أن أقَسِّمَه إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة:

فقد عرّفت في الفصل الأول بوكالة الباستيون وملحقاتها وناقشت تاريخ تأسيسها وتطورَها خلال القرن السادس عشر، كما استعرضت بعضَ جوانب العلاقات الجزائرية الفرنسية، خلال نفس الفترة.

أما الفصل الثاني فقد درست فيه أوضاع وكالة الباستيون خلال الربع الأول من القرن السابع عشر؛ أي من سنة 1604م إلى غاية سنة 1628م، مبيناً انعكاسات هذه الأوضاع على العلاقات بين البلدين.

ثم استعرضت في الفصل الثالث نشاطَ هذه الوكالة في الربع الثاني من القرن السابع عشر؛ أي من سنة 1628م إلى سنة 1659م. ثم أردفت ذلك بإبراز أثرِ هذا النشاط على العلاقات بين البلدين.

وختمت كلَّ ذلك بخاتمةٍ قيّدتُ فيها أهمّ ما توصلت إليه من خلال دراستي لهذا الموضوع.

– الصّعوبات المعترضة:

وأثناء انجازي لهذه المذكرة اعترضتني بعض الصعوبات؛ منها ندرة وجود الوثائق التي تتحدث عن وكالة الباستيون، خلال الفترة موضوع الدرس، في المكتبات والمراكز الأرشيفية في الجزائر.

وبما أنّ أغلب المصادر والمراجع المعتمدة مكتوبة باللغة الفرنسية، فقد تحتم علي بذل كثير من الجهد والوقت في سبيل ترجمتها لغرض فهم معانيها وتحليل مضمونها.

– التعريف بأهم مصادر و مراجع الدراسة:

اعتمدت في دراستي على مجموعة من الوثائق الأرشيفية، وكثير من المصادر والمراجع. فيما يلي استعراضٌ لأهمها:

1- الوثائق الأرشيفية:

أ- مهمة دفتري:

هي عبارة عن صور لمراسلات بين الباب العالي وحكام الجزائر موجودة في الأرشيف الوطني الجزائري أتى بها أحمد توفيق المدني من اسطنبول وهي حوالي ثلاثة ألاف وثيقة ترجمت منها إلى العربية حوالي ألف وثيقة. وقد اعتمدت على بعض الوثائق التي لها صلة بالموضوع؛ مثل مهمة دفتري رقم 35.

ب- وثائق المكتبة الوطنية الفرنسية المنشورة على الانترنيت:

شرعت المكتبة الوطنية الفرنسية (Bibliothèque Nationale de France) في نشر بعض الوثائق على مكتبتها الرقمية في الانترنيت المعروفة بغاليكا(Gallica)، ويمكن للباحث أن يدخل الموقعَ (www.gallica.bnf.fr) بدون تسجيل ويحمّل ما شاء من الوثائق مجاناً.

وما يُلاحظ على هذه الوثائق أنّ أغلبَها مكتوب باللغة الفرنسية، وبعضِ اللغات الأوربية؛ مثل اللاتينية والايطالية وحتى الألمانية، وهي تتحدث عن تاريخ فرنسا الداخلي وعلاقاتها ببعض الدول الأوربية والدولةِ العثمانية وحتى الدولِ المغاربية، كما أنّ هذه الوثائق المنشورة تغطي فترة تاريخ فرنسا الحديث، ولا نجد فيها لحد الآن وثائقَ تعود إلى القرنين التاسع عشر أو العشرين.

وتواجه الباحثَ في هذه الوثائق مشكلةُ تفكيك رموزها وكلماتها خاصة وأنها مكتوبة بلغة فرنسية قديمة، وأنّ أغلبَها مكتوب بخط اليد. كما أنّ بعضَها رديء النَّسْخِ؛ لا يكاد يُقرأ، ربما يكون شكلها كذلك حتى في النسخة الأصلية. وقد استعملت بعض هذه الوثائق المتعلقة بموضوع الدراسة، والتي تمكنت من قراءتها.

ج- كتاب: مراسلات دايات الجزائر مع بلاط فرنسا. لأوجين بلانتي:

Eugène Plantet: **Les correspondances des deys d'Alger avec la cour de France(1579-1833),** 2 Tomes, Paris, 1889.

هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من الرسائل المتبادلة بين حكام الجزائر، وبعض رجالات الدولة الجزائرية من جهة، وملوك فرنسا ووزرائها وموظفيها من جهة ثانية، لذلك فالكتاب لا يتضمن فصولاً ولا أبواباً، وقد طبع هذا الكتاب في باريس، سنة1889م، في جزأين؛ تضمن الجزء الأول 183رسالة في الفترة(1579-1699م)، وجاءت في 560صفحة. وقد تضمن هذا الجزء مقدمةً ومدخلاً في 80صفحة. وقد استفدت من هذا الجزء في الاطلاع على

المراسلات التي تمت بين رجالات الدولة الجزائرية والشخصيات الفرنسية التي كانت لها علاقة بالباستيون.

2- المصادر:

اعتمدت في دراستي هذه على جملة من المصادر؛ منها العربية، ومنها الفرنسية، والمترجمة إلى الفرنسية أو العربية، وما يلاحظ أنّ المصادر العربية المحلية قليلة، والذين كتبوا لم يقدموا لنا الكثير. أما المصادر بالفرنسية والمترجمة لها فهي متنوعة ما بين مؤلفات رجال الافتداء؛ الذين جاؤوا بمهمة تحرير الأسرى، ومؤلفات الأسرى، و سفراء وقناصل فرنسا، إضافةً إلى الرحالة الأوربيين. ومن أهمّ هذه المصادر نجد:

أ- بالعربية:

-**ابن المفتي حسين: تاريخ بشوات الجزائر وعلمائها**، تح: فارس كعوان، بيت الحكمة، الجزائر، 2008.

وهو حسين بن رجب شاوش، من كراغلة الجزائر. لم يكن معروفاً باسمه، لكنه اشتهر بابن المفتي لكون أبيه رجب شاوش كان مفتيا حنفياً. قام بجمعها فارس كعوان فدمج النصوص المترجمة بالنصوص العربية التي توفرت له، ثم طبعت ببيت الحكمة بالجزائر، سنة 2009م. هذا الكتاب يعطينا قائمةً بأسماء حكام الجزائر العثمانية بتواريخ دقيقة لتوليتهم وعزلهم بدايةً بإسحاق وعروج، إلى غاية ولاية الداي إبراهيم خوجة. إلى جانب ذلك يقدم معلوماتٍ مهمة في الجانب السياسي، والإداري، وأيضا بعض المعلومات في الجانب الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

ب- بالفرنسية:

-Jacques Savary: **Le Parfait négociant,** 2 Tomes, Chez les frères Estienne, Paris, 1757.

كتاب **التاجر الكامل** لصاحبه جاك سافاري(1622-1690)؛ وهو تاجر واقتصادي فرنسي، اشتغل في تجارة الخردوات، وتركها، سنة 1658م بعد أن حصل منها على ثروة، ثم انتقل إلى الفلاحة. ونظرا لخبرته في التسيير الاقتصادي فقد عُهد إليه، سنة 1673م، بكتابة "وثيقة الاقتصاد"، عُرفت بقانون سافاري، وفي سنة 1675م أصدر كتاب التاجر الكامل؛ والذي ترجم لعدد من اللغات الأوربية.

أفرد سافاري في هذا الكتاب فصلاً كاملا لنشاط الباستيون وملحقاته، خلال القرن السابع عشر، وما يلاحظ في المعلومات والأرقام التي ضمّنها في كتابه أنها دقيقة، وتتضمن كثيراً من التفاصيل، وقد ذكر هو في مقدمة الكتاب أنّ هذه معلومات جمعها من الوثائق والسجلات التجارية للمؤسسات الفرنسية، وحتى من بعض الفواتير والوثائق الشخصية التي أطلعه عليها بعض التجار.

-R.P.Pierre Dan: **Histoire de Barbarie et de ses corsaires**, Pierre Rocolet Imprimeur et Libraire ordinaire de Roi, Paris, 1646.

تاريخ بربارية وقراصنتها للراهب دان؛ وهو مبعوث كنسي قدِم إلى الجزائر، لافتداء الأسرى سنة 1634م، مع مدير الباستيون سانسون لوباج. وهو من أشد المتعصبين دينيا، ورغم ذلك فكتابه يعتبر مصدراً مهماً عن الجزائر خلال القرن السابع عشر. زد على ذلك، فإنه كثيراً ما يحدثنا في كتابه عن أوضاع الباستيون، بل ويصفه لنا وصفاً دقيقاً بعد زيارته له.

-Brèves F. Savary: **Relation des Voyages de Monsieur De-Brèves,** Chez Nicolas Gasse, Paris, 1628.

رحلة السفير الفرنسي في اسطنبول؛ دوبريف، إلى الجزائر وتونس سنة 1606م، وتتضمن توصيفاً دقيقاً للمفاوضات الشاقّة التي قام بها مع أعضاء الديوان لغرض تطبيق أوامر السلطان أحمد الأول، وإعادة بناء الباستيون. وتتضمن أيضاً مشاهدات دوبريف لبعض ملحقات الباستيون، في تلك الفترة.

3- المراجع:

كثيرةٌ هي المراجع المعتمدة في هذه الدراسة منها:

– المنور مروش: **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني**، جزآن، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009.

وهو من الدراسات العربية القليلة التي تخصصت في موضوعَيْ القرصنة والعملات في الجزائر خلال العهد العثماني. وقد كتبه أولا باللغة الفرنسية، ثم قام بترجمته، بنفسه، إلى اللغة العربية. وقد قسم كتابه إلى جزأين؛ خصص الجزء الأول للحديث عن العملة والأسعار والمداخيل في الجزائر، أما جزؤه الثاني فهو خاص بالقرصنة الأساطير والواقع؛ وهذا الجزء يعتبر دراسة مهمة عن نشاط البحرية الجزائرية. حيث يقدم لنا إحصاءات وتحاليل وآراء حول واقعها

في الجزائر. أما الجزء الأول فيتحدث فيه عن الحياة الاقتصادية في الجزائر خلال العهد العثماني وكثيرا ما يتعرض فيه لعلاقات الجزائر التجارية مع فرنسا، وقد استفدت منه في التعرف على السلع والمواد التجارية التي كانت تحتكرها وكالة الباستيون.

– **العلاقات بين فرنسا وإيالة الجزائر خلال القرن السابع عشر**. لدوغرامون:

H.-D.De Grammont: **Relations entre la France et la régence d'Alger au XVII^e siècle**, Adolf Jourdan librairie éditeur, Alger, 1879.

لقد طبع هذا الكتاب في الجزائر، سنة1879م، وجاء في 320صفحة، ويظهر من خلال خلوه من مقدمة وخاتمة أنه مجموع مقالات كان دوغرامون قد نشرها من قبلُ في المجلة الإفريقية.

وقد تناول دوغرامون في هذا الكتاب موضوع العلاقات بين الجزائر وفرنسا من خلال معالجته لأربع قضايا ميزت العلاقات بين البلدين، خلال القرن السابع عشر، وهي:

1. مدفعا سيمون دانسا(1606-1628م).
2. مهمة سانسون نابلون(1628-1633م).
3. مهمة سانسون لوباج والوكلاء المؤقتين(1633-1646م).
4. القناصل اللازاريين والفارس دارفيو(1646-1688م).

وقد عالج الكاتب هذه القضايا بشيء من التفصيل والتحليل، مستندا في ذلك على عدة وثائق أخذها من المراكز الأرشيفية الفرنسية؛ كأرشيف غرفة تجارة مرسيليا، الأرشيف البلدي لمدينة مرسيليا، أرشيف البحرية، وأرشيف القنصلية العامة لفرنسا بالجزائر. ويبدو أنه كان مطلعاً على هذه الأرشيفات، وذلك من خلال إحالته هذه الوثائق إلى أرقامها في المراكز الأرشيفية.

– **تاريخ مؤسسات وتجارة فرنسا بإفريقيا البربرسكية**. لبول ماسون:

Paul Masson: **Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique barbaresque(1560-1793)**, librairie Hachette et C^ie, Paris, 1903.

هي دراسة مركزة على نشاط المؤسسات الفرنسية ببلاد المغرب. وقد تحدث في جزءٍ كبير منها على مراحل تطور وكالة الباستيون، وعلى العلاقات التجارية بين الجزائر وفرنسا. ولهذا فإنّ هذا الكتاب يعتبر من الدراسات القليلة حول الموضوع والجانب الايجابي فيه اعتماده على الأرشيف.

كما استفدت من مراجع عديدة ومقالات ودراسات كثيرة سأضعها وفق ترتيبها في قائمة المصادر والمراجع في آخر هذه الدراسة.

ولا يسعني في هذا المقام إلاّ أن أحمد الله، أولاً وأخيراً، أن وفقني إلى إتمام هذه الدراسة، كما أتقدّم بالشكر الجزيل إلى كلّ من قدّم لي يد العون والمساعدة في سبيل انجاز هذا العمل، وأذكر في مقدمتهم أستاذي المشرفَ **الدكتور إبراهيم سعيود**، الذي تفضل بالإشراف على هذه المذكرة، ولم يبخل علي بنصائحه وتوجيهاته، رغم ارتباطاته الكثيرة، فله جزيل الشكر. كما لا أنسى أن أتوجه بتحية شكر وعرفان إلى الأستاذ **الدكتور عمار بن خروف** الذي ابتدأ معي مسيرة الإشراف على هذه المذكرة.

متليلي في: 2012/11/21م.

الطالب: الشيخ لكحل

الفصل الأول

تأسيس وكالة الباستيون والعلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السادس عشر

- **المبحث الأول**: تأسيس وكالة الباستيون

- **المبحث الثاني**: العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السادس عشر

الفصل الأول

تأسيس وكالة الباستيون والعلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السادس عشر

عرف الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، خلال القرن السادس عشر، احتدامَ الصراع بين ضفتيه المتقابلتين الشمالية والجنوبية، وقد مثّل الصدامُ العثماني الاسباني أهمَّ فصوله؛ إذ شهد في مطلعه تصاعدَ الغارات الأيبيرية على شمال إفريقيا منذ سقوط الأندلس، وما تلى ذلك من وفود الأتراك العثمانيين؛ الذين أخذوا على عاتقهم ردَّ تلك الهجمات، وتحريرَ المدن المغاربية من التواجد الأيبيري. وقد مثّلت الجزائر أهمَّ واجهةٍ لهذا الصراع؛ فبالإضافة إلى جغرافيتها الكبيرة، والممتدةِ على مساحة معتبرة من الضفة الجنوبية، فقد شكّلت، بعد انضوائها تحت السلطنة العثمانية، رأسَ الحربة الإسلامية في مواجهة قوى غرب أوروبا المسيحية.

أما الدولةُ الفرنسيةُ الطامحةُ إلى استعادة مجدِها الصليبي، فقد أجبرتها المنافسةُ الاسبانية على التحالف مع العدو العثماني. إلا أنّ ذلك لم يكن مُيَسّراً مع الجزائر؛ فرغم ولاءِ الجزائر للعثمانيين، إلا أنها كانت تتوجَّسُ من الحليف الفرنسي، الذي لم يُخفِ مطامعَه في الاستيلاء على الجزائر كلما توفّرت الظروفُ المناسبة.

ورغم ذلك التحفظ الذي كانت تبديه الجزائر اتجاهَ حلفاءِ السلطان، إلا أنّ فرنسا نجحت في تثبيت قواعدَ لها في الجزائر، مستغلةً جَشَعَ بعضِ حكام الجزائر حيناً، وتحالفَها مع السلطنة العثمانية أحياناً كثيرة؛ إذ نجحت شركة لينش المرسيلية في الحصول على امتيازات اقتصادية وتجارية في شرق الجزائر، وأسست أولَ شركة تجارية فرنسية على أرض الجزائر، والمعروفة بوكالة حصن فرنسا، أو الباستيون.

سنتعرف في هذا الفصل على ظروفِ تأسيس هذه الشركة وطبيعةِ نشاطها، خلال القرن السادس عشر، كما أننا سنتعرض لبعض جوانب العلاقاتِ الفرنسيةِ الجزائرية، خلال الفترة ذاتها.

المبحث الأول

تأسيس وكالة الباستيون

1- التعريف بوكالة الباستيون:

الباستيون(Bastion de France) هو حصن فرنسا التجاري الواقعُ على بعد بضعة كيلومترات شرقَ مدينة عنابه، على الساحل الشرقي للجزائر، وقد أُسّس خلال القرن السادس عشر، حين قدم المرسيليان توماس لانش (Thomas Linche)، و كارلين ديدييه (Carlin Didier)، وتحصّلا على موافقة الأهالي باستغلال حوالي 30 كيلومتر من الشريط الساحلي الممتد من الرأس الأحمر(CapRoux) إلى وادي سيبوس. فقاما بإنشاء أولِ محطة تجارية، على شاطئ خليج بومالك، أطلقا عليها اسم "لوباستيدون"(Lou Bastidoun)، والتي تعني بالبروفانسية، الحصنَ الصغيرَ، و الذي أصبح يسمى فيما بعد بحصن فرنسا.[1] أما هيكله، فهو عبارة عن حصنٍ ضخم مربعِ الشكل على ساحل البحر، يشتمل على ساحة كبيرة، وأخرى أقلَّ حجماً، يتوسطهما برجُ المراقبة.[2]كما يضم كنيسةً ومقبرةً، ومنازلَ للضباط، ومخازنَ للبضائع، يحيط به سور ضخم ومجموعة من المدافع. ويتسع لحوالي 800 شخصٍ، ويتبع له عدد من المراكز الصغيرة بين جيجل والقالة، ويضم أيضاً أطباءَ وصيادلة للعلاج ولتحضير الأدوية.[3]

وقد لعبت هذه الوكالة التجارية دوراً مؤثراً في العلاقات بين الجزائر وفرنسا خلال القرن السابع عشر، كما كانت تمثلُ إحدى أهمِّ المراكزِ الاقتصادية الفرنسية في شمال إفريقيا خلال العصور الحديثة.

2- الاتصالات الأولى:

يذهب كثير من المؤرخين إلى أنّ الاتصالاتِ بين الجزائر وفرنسا قديمةٌ جداً، وقد لا يبدو هذا مستغرباً بالنسبة لقطرين يتربعان على مساحة معتبرةٍ من ضفتي المتوسط المتقابلتين، ولهذا فقد

---

(1) -Charles Féraud: Histoire des villes de la province de Constantine. La Calle, Typ.de l'Association ouvriére V. Aillaud et Cie, Alger, 1877, p93.

(2) -R.P.Pierre Dan: Histoire de Barbarie et de ses corsaires, Pierre Rocolet Imprimeur et Libraire ordinaire de Roi, Paris, 1646, p54.

(3) – يحيى بوعزيز: علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا 1500-1830، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985، ص70.

قامت علاقةٌ بين هذين الكيانَين، أخذت عدةَ أشكال تجاريةٍ وسياسيةٍ وغيرها، وتقلبت بين مظاهر التقاربِ والتعاون حيناً، والتنافرِ والتنافس أحياناً كثيرةً.

فقد كان للمرسيليين، منذ القرن الثاني عشر، علاقاتٌ تجاريةٌ بالسواحل المغاربية، منافسين في ذلك الجِنويين، والكَتَليين، وغيرَهم من الأوربيين. وهكذا عقد حكام مرسيليا، في بداية القرن الرابع عشر ، معاهدةَ تجارة وملاحة مع ملك بجاية، أبو يحيى زكريا.[1] وكان المرسيليون يأتون إلى بجاية بمعادنَ، وأقمشةٍ، وآلات حديدية، ويأخذون منها خيولاً، وأصوافاً، وزيوتاً، وجلوداً، وهذه الأخيرة كانوا يعيدون بيعها بأثمان غالية في اسبانيا وايطاليا، وكان لهم قنصلٌ يرعى مصالحهم لدى سلطان بجاية.[2] وإذا صدّقنا أوجين بلانتي (Eugène Plantet)، فإنّ التجارَ البروفانسيين؛ القادمين من جنوب فرنسا، يكونون قد تحصّلوا من شيوخ الأهالي على امتياز صيد المرجان على الشريط الساحلي الممتد من طبرقة إلى عنابه، منذ سنة883هـ/1478م.[3] ويبدو أنّ هذا الاتفاقَ كان تمهيداً لبناء الحصن التجاري الفرنسي، أي الباستيون.

ورغم التعثرِ الذي عرفه هذا المشروع، بسبب الأحداث التي شهدتها المنطقة، في مطلع القرن السادس عشر، من الاحتلال الاسباني للمدن والمراكز الساحلية الجزائرية؛ حيث احتلت بجاية سنة 916هـ/1510م ، وعنابه سنة 942هـ/1535م، وما نتج عنه من تَنَفُّذِ الجنويين في هذه المناطق، وكذلك قدومِ الأتراك العثمانيين إلى المنطقة، وسعيِهم لتوحيد البلاد تحت حكومة مركزية في مدينة الجزائر، إلا أنّ التحالفَ العثماني الفرنسي، وما نتج من معاهدة الامتيازات، قد ساهم في ازدياد النفوذ الفرنسي في الولايات العثمانية، ومنها الجزائر.

3- معاهدة الامتيازات:

شهد النصف الأول من القرن السادس عشر، احتدامَ الصراع بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الرومانية المقدسة، وكان البحر الأبيض المتوسط مسرحاً لهذا الصراع. كما أنّ أوربا

---

[1] –M. L. De Mas Latrie: Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au moyen âge, Henri Plon imprimeur-éditeur, Paris, 1866, p99.

[2] – مولود قاسم نايت بلقاسم: شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة1830، جزآن، دار الأمة، الجزائر، 2007، ج2، ص9.

[3] –Eugène Plantet: Les consuls de France à Alger avant la conquête 1579 -1830, Messagerie Hachette, Paris, 1930, p5.

نفسَها كانت تعاني من حروب داخلية لأسبابٍ أخذت طابعاً دينياً تارةً، وصبغةَ وراثةِ العروش الأوربية أحياناً كثيرةً. وبعد اعتلاء فرانسوا الأول(François I)[1]عرشَ فرنسا، سنة920هـ/1515م، سعى لأخذ حقه العائلي في وراثة العرشِ المقدس، وإرجاعِ فرنسا لصدارة المشهد الأوربي المسيحي في مواجهةِ الخطر العثماني الإسلامي؛ بَيْدَ أنّ رغبةَ هذا الملك الصغير قد اصطدمت بطموح الملك الاسباني شارل الخامس(Charles V)[2]. فلم يكن هناك بُدٌّ من المواجهة بين الطرفين؛ والتي أفرزت صعودَ نجم الملك الاسباني، والهزيمةَ المذلَّةَ لفرانسوا الأول، وهذا ما دعى الأخيرَ للاستنجاد بغريمِهما العثماني.

وتحدثنا المصادر[3]عن أولِ اتصال بين الملك الفرنسي وسليمان القانوني[4]في أعقاب معركة بافي (Pavie)، في 24 فيفري1525م/931هـ، عندما أرسل فرانسوا الأول أولَ بعثةٍ. لكنّ

---

[1] – فرانسوا الأول(1494-1547م): أبوه شارل دي فالوا، تولى مملكة فرنسا من سنة 1515-1574م، بعد وفاة صهره لويس الثاني عشر، الذي لم يخلّف وريثاً. خضع منذ بداية حكمه إلى تأثير والدته لويز دي صافوا. بعد موت إمبراطور النمسا مكسميليان، ترشح للمنصب لكنه لم يستطع منافسةَ الملك الاسباني شارلكان، الذي خاض معه حروبا طويلة استمرت إلى غاية 1544م. تميزت سياسة فرانسوا الأول بالتسامح إزاء البروتستانت، كذلك حقق الرخاء الاقتصادي في المملكة. أنظر:

عبد الوهاب الكيلاني: موسوعة السياسة، 5 أجزاء، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1990، ج4، ص485.

[2] – شارل الخامس أو شارلكان: (1500-1558م). ابن فيليب الأول وجوانا ملكة قشتالة، وحفيد فرديناند الثاني ملك اراغون وإيزابيلا ملكة قشتالة. تولى عرش اسبانيا سنة 1516م، وأصبح إمبراطور الغرب بين سنتي 1519-1556م.حارب العثمانيين، ودخل في نزاع طويل مع فرنسوا الأول. أنظر:

حسين محمد نصار وآخرون: الموسوعة العربية الميسرة، 7 أجزاء، المكتبة العصرية، بيروت، 2010، ج4، ص1985.

[3] –E. Charrière: Négociations de la France dans le levant, 4Tomes, Imprimerie Nationale, Paris, 1848, T1, p114.

[4] – سليمان القانوني:أو سليمان خان الأول(1495-1566م)، هو عاشر السلاطين العثمانيين وأقواهم، حكم ما بين (1520-1566م). خلف أباه سليم الأول، وواصل فتوحاته في البلقان، وحارب الصفويين. بلغت الدولة العثمانية في عهده أوج سيطرتها، حيث أصبحت سيدة شرق البحر المتوسط، بعد طرد فرسان القديس يوحنا من جزيرة رودس، وغربه بعد تعزيز قاعدتها في الجزائر بضم طرابلس وتونس، والتحالف مع فرنسوا الأول. شهد عهده بداية التغلغل الأجنبي في الدولة، بعد منح الامتيازات لكل من البندقية سنة1522م، وفرنسا سنة 1536م. أنظر:

محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: احسان عباس، دار النفائس ، بيروت، 1401هـ/1981م، ص ص198-230.

هذه الأخيرةَ لم تصل إلى اسطنبول؛ إذ أمر باشا مقاطعةِ البوسنة والهرسك بقتل المبعوث الفرنسي ومن معه، والاستحواذِ على الأموال والهدايا التي كانت بحوزتهم.

ثم قام فرنجباني (Franjipani)، بترؤسِ بعثةٍ ثانيةٍ، تمكنت من الوصول إلى اسطنبول، في ديسمبر سنة1525م/931هـ، وقد حمل معه رسالتين إلى السلطان سليمان القانوني؛ الأولى من الملكة لويز دي صافوا(Louise de Savoie)، والثانية من الملك فرنسوا الأول، الذي كان أسيراً في مدريد.[1] وقد وجد السلطان العثماني في استنجادِ الملك الفرنسي فرصةً سانحةً لشقِّ الصف المسيحي، والولوجِ إلى العمقِ الأوربي عبرَ الحليفِ الفرنسي.

أما الفرنسيون فقد تمكنوا، بفضل تحالفهم مع العثمانيين، من الصمود أمام الغريمِ الاسباني، واستفادوا من امتيازاتٍ عديدةٍ، تضمنتها معاهدةُ الامتيازاتِ التي أبرموها مع السلطان العثماني.

وقد تضاربت الآراءُ بشأن تاريخِ توقيعِ هذه المعاهدة؛ فقد ذكر شاريار(Charrière) أنها وقعت في شهر فيفري من سنة 1535م/941هـ،[2] وقد وافقه على هذا الرأي أغلبُ المؤرخين الفرنسيين. بينما أشار آخرون بأنها وقعت في نفس الشهر من سنة1536م/942هـ، وهو التاريخُ المدوّنُ في نص المعاهدةِ التي نشرها فريد بك؛[3] حيث أشار بأنه قد ترجم هذا النصَّ من مجموعةِ البارون دي تيستا(Le Baron De Testa) الموجودةِ في المكتبة الخديوية بمصر. إضافةً إلى ذلك، فقد أشار الباحثُ ياسر بن عبد العزيز القاري، بأنه اطلع على نسخةٍ من هذه المعاهدة مترجمةٍ إلى اللغة الانجليزية، فلم يلمس فرقاً كبيراً بينها وبين النصِّ الذي أورده فريد بك.[4] وبعد اطلاعنا على نسخة من كتاب الباورون دي تيستا، وجدنا بأنّ التاريخَ الأولَ هو المذكورُ؛ أي فيفري1535م.[5]

---

[1] – مصطفى الغاشي: "العلاقات الفرنسية العثمانية خلال القرن السادس عشر وانعكاساتها المستقبلية"، في مجلة كلية الآداب بتطوان، المغرب، ع 8، 1997، ص82.

[2] –E. Charrière: op.cit, T1, p284.

[3] – محمد فريد بك: المرجع السابق، ص224.

[4] _ ياسر بن عبد العزيز القاري: دور الامتيازات الأجنبية في سقوط الدولة العثمانية، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى بمكة، المملكة العربية السعودية، 1422هـ/2001م، ص219.

[5] –Le Baron I. De Testa: Recueil des Traités de la Porte Ottomane avec les Puissances Etrangères, 4Tomes, Amyot Editeur, Paris, 1867, T1, p15.

وللترجيح بين التاريخين، فقد عدنا إلى مؤرخِ الإمبراطوريةِ العثمانيةِ؛ هامر(Hammer)، والذي اعتمد على كثيرٍ من الوثائق الأرشيفية، وعددٍ معتبرٍ من المصادر المحلية التي كانت تعتمد التأريخَ الهجريَّ في سردها للأحداث، كما أنه كان يؤرخ لمسيرة السلاطين العثمانيين يوماً بيومٍ، تقريباً. لقد تكلم هامر عن قدوم السفير الفرنسي دي لافوري (De Laforest)[1]على السلطان سليمان القانوني مهنئاً له على انتصاره في بغداد على شاه إيران؛ طهماسب شاه (1524-1576م)، و أنه استقبله، في جويلية من سنة1535م/941هـ، عندما كان عازماً على الخروج من بغداد نحو مقر السلطنة، وقد استغرقت رحلة العودة حوالي ستة أشهر[2]. وفورَ دخوله إلى اسطنبول في 8 جانفي 1536م/942هـ، كلَّف الصدرَ الأعظمَ؛ إبراهيم باشا[3]، ببدءِ الترتيبات مع السفير الفرنسي لعقد معاهدة الامتيازات، والتي وُقِّعت في فيفري من نفس السنةِ.[4]

لقد اعتُبِرَت هذه المعاهدةُ بدايةً لتوسُّع النفوذ الفرنسي في ممالك السلطنة، إذ نصت على منحِ الفرنسيين الكثيرَ من الامتيازات القنصلية، والتجارية، وحتى الدينية. لكن هل نصت على المراكز التجارية الفرنسية في الجزائر؟

إنّ هذه المعاهدةَ قد جعلت الفرنسيين يدّعون بأنّ لهم وجوداً موغِلاً في القدم فوق هذه الأراضي؛ فهذا أوجين بلانتي يجزم بأنّ البند الثاني عشر من معاهدة الامتيازات لسنة

---

[1] – اسمه الكامل جون دي لافوري، أحد فرسان القديس يوحنا في القدس، وأول سفير فرنسي في استانبول، عين بتاريخ 11فيفري1534م، مهندس أول معاهدة بين فرنسا والدولة العثمانية، توفي في القسطنطينية سنة 1537م. أنظر:
Le Comte de Saint-Priest: Mémoires sur l'Ambassade de France en Turquie, Ernest Leroux Editeur, Paris, 1877, p181.

[2] – حسب هامر، فقد توقف موكب السلطان، الذي كان يضم الصدر الأعظم إبراهيم باشا والمبعوث الفرنسي دي لافوري، بمدينة تبريز لدى عودته إلى استانبول.

[3] – إبراهيم باشا(1493-1536م): صدر أعظم عثماني، نصّبه السلطان سليمان القانوني سنة1523م؛ حيث أشركه في حكمه المطلق، وخلع عليه لقب "سر عسكر السلطان"، قاد حملة البحر، وانتصر في معركة موهاكس سنة 1526م، قاد حملة على فارس بين سنتي1533-1534م، وعقد مع سفير فرانسوا الأول أولَ معاهدة امتيازات أعطيت للفرنسيين. اشتهر بتوطد علاقاته مع الأوربيين، وأركان الدولة، وهذا ما جعل السلطان يتوجس منه خيفة، فأمر بإعدامه في 15 مارس 1536م، وقيل إنه فعل ذلك بسبب دسيسة محظيته روكسلان الروسية. أنظر:
محمد فريد بك: المرجع السابق، ص230./ حسين محمد نصار وآخرون: المرجع السابق، ج1، ص5.

[4] – وقد أشار المترجم، في الهامش، إلى أنّ هناك من أخطأ عندما ذكر سنة 1535م بدلا من 1536م، أنظر:
J.De Hammer: Histoire de l'Empire Ottoman depuis son origine jusqu'à nos jours, Trad: J.J.Hellert, 18 Tomes, Bellizard et C^{ie} Libraires, Paris, 1836, T5, pp226-229.

942هـ/1536م، يعدُّ اعترافاً من الدولة العثمانية بالامتيازات التجارية للفرنسيين في الجزائر وفي تونس.[1] كما أنّ فيرو(Féraud) قد سبق بلانتي في إشارته إلى تنصيص المعاهدةِ على المراكزِ الفرنسيةِ في الجزائر. وهو، وإن لم يُشِر إلى رقمِ البند المذكور، إلا أنه ذكرَ بأن دي لافوري قد نجح في إدراج بندٍ إضافيٍ متعلقٍ بالموضوع في النسخة التي بعثها السلطان إلى حكام الجزائر، مع أوامرَ مشددةٍ باحترام بنود المعاهدة.[2] لكنّ بول ماسون (Paul Masson) ردّ هذا الادعاءَ، عندما أكد بأنّ البندَ المذكورَ، في نُسخ المعاهدةِ التي اطّلع عليها في المراكز الأرشيفية، لا يشير بأي حال إلى المراكز الفرنسية في الجزائر، كما أنه لم يعلق على ما أضافه فيرو.[3]

وعلى كل حال، فإننا وجدنا أنّ البندَ المذكورَ، في النسخ التي اطّلعنا عليها، لا يحتوي على أيّةِ إشارةٍ لهذا الموضوع.[4] ولهذا، فقد يكون هناك التباس لدى أوجين بين معاهدةِ الامتيازات الأولى، سنة 1536م/942هـ، وتلك التي تمّ تجديدها من طرف السلطان أحمد الأول[5] سنة 1012هـ/1604م، والتي نصّت بشكل صريح، على حقِّ الفرنسيين في صيد المرجان في ساحل سطورة (Stora)، شرقَ الجزائر، إضافةً إلى أنّ فيرو لم يُشِر إلى المصدر الذي أخذ منه هذه المعلومةَ الهامّةَ.

---

[1] -Eugène Plantet: Les correspondances des deys d'Alger avec la cour de France(1579-1833), 2 Tomes, Paris, 1889, T1, Introd, p XXVIII .

[2] -لكنّ فيرو لم يوضح لنا كيف استطاع دي لافوري أن يضيف هذا البند على هذه النسخة فقط. أنظر:
Charles Féraud: op.cit, p91.

[3] -Paul Masson: Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique barbaresque(1560-1793), librairie Hachette et C^ie, Paris, 1903, p5.

[4] - للاطلاع على بنود هذه المعاهدة أنظر:
فريد بك: المرجع السابق، ص223./ياسر بن عبد العزيز القاري: المرجع السابق، ص220. وأنظر أيضاً:
Le Baron I. De Testa: op.cit, T1, p15.\M. Belin: Des Capitulations et des Traités de la France en Orient, Challamel Libraire-éditeur, Paris, 1870, p60.

[5] – السلطان أحمد الأول: ولد في 12 جمادى الثانية 998هـ/18 أبريل 1590م، تولى السلطنة بعد وفاة والده محمد الثالث؛ شهد عصره اشتداد الصراع مع الدولة الصفوية في الشرق ومع النمسا في الغرب، كما أنّ العلاقات السياسية مع فرنسا قد ازدادت متانة، من خلال تجديده لمعاهدة الامتيازات سنة 1604م؛ إضافة إلى ذلك، فقد شهدت سنة 1609م تجديد الاتفاقيات التي عقدها السلطان محمد الثالث مع مملكة بولونيا، كما أنّ هولندا قد تحصلت، سنة 1612م، على امتيازات تجارية تضارع تلك الممنوحة لفرنسا و انجلترا. توفي السلطان أحمد الأول في 23 ذي القعدة 1026هـ/22 نوفمبر1614م. أنظر: محمد فريد بك: المرجع السابق، ص271.

4- تأسيس الباستيون:

إنّ التاريخَ الدقيق لتأسيس وكالةِ الباستيون يكتنفه الكثيرُ من الغموض؛ وذلك نظراً لتضارب الروايات التاريخية التي تتحدث عن هذا الموضوع. وإن كانت الرواياتُ المحلّيةُ تعوزنا، إلا أننا نجد في الروايات الأوربيةِ؛ الفرنسيةِ على وجه الخصوص، اختلافاً بيّناً حول هذا الموضوع.

هناك من توغل كثيراً في الزمن حينما زعم أنّ بدايةَ تأسيس الباستيون يعود إلى حملة الدوق دوبوربون(De Bourbon) على المهديةِ، في تونسَ، سنة792هـ/1390م، لكنّ هذا مستبعدٌ جداً كما يقول لابريموداي(La Primaudaie)؛[1] ذلك أنّ الرسالةَ التي بعثها الملكُ الفرنسي لويس الحادي عشر(Louis XI) إلى سلطانِ تونس وابنِه أميرِ عنابه وبجاية، سنةَ 887هـ/1482م ، والتي تتضمن الرغبةَ في تطوير العلاقات التجارية بين هذه المدن ومنطقةِ البروفانس، لا تتضمن أيةَ إشارةٍ إلى صيد المرجان، ولا إلى الممتلكات البروفانسية في هذه المناطق.[2] وهذا عكس ما ادعاه بلانتي من أنّ البروفانسيين، قد استفادوا من استغلال هذه المناطق منذ سنة882هـ/1478م. كما أنّ نيكولاس دي نيكولاي(Nicolas de Nicolay)؛ مبعوثَ الملك الفرنسي إلى اسطنبول رفقةَ السفير دارامون(d'Aramont)، والذي زار السواحلَ الجزائرية، من مدينة الجزائر حتى عنابه، وفي هذه المدينة التقى مع القاضي؛ وذلك في سنة956هـ/1550م، لم يحدثنا عن وجود الباستيون في هذه المناطق، ولا حتى عن مراكزَ فرنسيةٍ لصيد المرجان، بل أكثرَ من ذلك، فهو يحدثنا عن تواجد الجنويين في هذه المناطق.[3] وقد سبقه بيري رايس العثماني(Pirî Reis) [4]، الذي زار هذه المناطقَ في عشرينات القرن السادس عشر،

---

[1] –F.Elie de La Primaudaie: "Le Commerce et la Navigation De l'Algérie", in, R. A. C, Librairie L. Hachette et C^{ie}, Paris, N^{o}:2, juin 1860, p448.

[2] –De Mas Latrie: op.cit, p317.

[3] –Nicolas de Nicolay: Les navigations, pérégrinations et voyages faits en la Turquie, Guillaume Silvius, Imprimeur de Roi, Anvers, 1576, p24.

[4] – هو محي الدين بيري رايس، ولد سنة1485م، أتاحت له مشاركته المبكرة في عمليات البحرية العثمانية التعرف على كثير من الموانئ الاسبانية والتونسية والجزائرية والفرنسية، وكان يسجل أخباراً وملاحظاتٍ عن هذه المناطق، جمعها فيما بعد في كتاب أسماه "كتاب البحرية"، وأثبتها في خريطة مفصلة. عين سنة 1547م، أميرالاً للبحرية العثمانية في البحر الأحمر والمحيط الهندي، لكنه أعدم سنة 1554م بعد اتهامه بالتقصير في الحرب ضد البرتغال حول مضيق هرمز. في القسم الثاني من كتابه يصف الجزائر بموانئها: المرسى الكبير، وهران، مستغانم، الجزائر ، بجاية، عنابه...أنظر:

واستطرد في وصف نشاطِ الجنويين في مرسى الخرز وغيرِه من المناطق الساحلية المجاورة، بينما لم يأتِ على ذكر أي نشاطٍ للفرنسيين.[1] إضافةً لكل ذلك، فإنّ مؤرِّخَيْ القرن السادس عشر؛ حسن الوزان ومارمول(Marmol)، قد أشارا إلى نشاط الجنويين قرب عنابه؛ إذ أكد كلاهما على تحصّل الجنويين على امتيازِ صيد المرجان في هذه المناطق، ورغبتِهم في بناء تحصينات لمراكزِهم من هجمات القراصنة، لكنّ الأهالي تدخلوا لدى السلطان الحفصي خشيةَ أن يستغل الجنوِيّون هذه المراكز للهجوم على مدينة عنابه.[2]

إنّ كلَّ تلك المصادر لم تُشِر إلى أيِّ نشاطٍ فرنسي في النصف الأول من القرن السادس عشر، وهذا ما يفنّدُ ما ذهب إليه بلانتي من أنه في الوقت الذي كان فيه خير الدين يحاول بسط سيطرتِه على عنابه وقسنطينة سنة926هـ/1520م، كان التجار البروفنسيون يعقدون اتفاقاً مع الأهالي لاستغلال الشريط الممتد من طبرقة إلى عنابه لصيد المرجان.[3] ويتعارض أيضاً مع ما ذهب إليه فيرو؛ من قدوم المرسيليَيْن توماس لانش (Thomas Linche)، وكارلين ديديه (Carlin Didier)، سنة 931هـ/1524م، وتحصلِهما على موافقة الأهالي باستغلال حوالي 30 كيلومتر من الشريط الساحلي الممتد من الرأس الأحمر(CapRoux) إلى وادي سيبوس وقيامهما بإنشاء أول محطة تجارية، على شاطئ خليج بومالك، أطلقا عليها اسم "لوباستيدون"(Lou Bastidoun).[4] **لكن متى تمّ بناء الباستيون؟**

زهرة زكية: "لمحة عن الجغرافي الأميرال العثماني بيري رايس"، في مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1413هـ/1992م، ع06، ص ص101-106.

[1] –Robert Mantran: "La description des côtes de l'Algérie dans le Kitab-i Bahriye de Pirî Reis", in, R.O.M.M, MMSH– IREMAM, Aix-en-Provence, N°: 15-16, 1973, p167.
ويقول فيرو، معلقاً على النشاط المكثف للجنويين في منطقة عنابه حتى سنة 1551م، أنّ ذلك بسبب عدم التزام الجزائريين بأوامر السلطان العثماني. أنظر: Charles Féraud: op.cit, p92.

[2] – لقد اقتصر وصف المصدرين لنشاط الجنويين و لم يتعرضا لأي نشاط فرنسي في هذه المناطق. أنظر:
حسن الوزان: وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، جزآن، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983، ج2، ص62./ مارمول كربخال: إفريقيا، تر: محمد حجي وآخرون، 3أجزاء، دار نشر المعرفة، الرباط، 1984، ج3، ص8.

[3] –Eugène Plantet: Les consuls de France à Alger avant la conquête, p5.

[4] –Charles Féraud: op.cit, p93.

يقول الأب دان(Pierre Dan): " أنّ الباستيون قد شُيِّدَ، سنة 968هـ/1561م، من طرف تاجرين من مرسيليا هما توماس لانش وكارلين ديديه."[1] ويرى كاليبير(Galibert) أنّ هذين التاجرين المارسيليَيْن قد أنشئا، سنة968هـ/1561م، مركزاً تجارياً في القالة؛ والذي يُعدُّ، حسب رأيه، باكورةَ المؤسسات التجارية الفرنسية في شمال إفريقيا.[2] وقد وافقه على ذلك روتالييه (Rotalier) حينما أكد أنّ هذَيْن البحّارَيْن قد تمكنا من تأسيس الباستيون سنة 968هـ/1561م.[3] وكذلك هو الشأن عند لابريموداي.[4] وقد وجدنا، في القسم الخاص بالتجارة من الموسوعة المنهجية(Encyclopédie Méthodique)، مذكرةً، تعود إلى سنة 1188هـ/1775م، تتحدث عن البروفانسيَيْن لانش وديدييه اللذَيْنِ تحصلا، سنة 967هـ/1560م ، على موافقةِ الأهالي لصيد المرجان في الساحل الجزائري بين طبرقة وعنابه، مع السماحِ لهما بإنشاء مركزٍ بسيط غيرِ محصن، أضحى يعرف في ما بعد بحصن فرنسا.[5] لذلك، فإنّ ماسون يرى أنّ ظهورَ المراكز الفرنسية يعود، على الأرجح، إلى سنة 967هـ/1560م.[6] كما أنّ معاهدةَ الامتيازات، لسنة 942هـ/1536م، لم تتحدث عن هذه المراكز، كما بيّنا آنفاً. وهذا دليل آخرٌ على تأخّرِ تأسيسِ الباستيون.

ويمكن القولُ أنّ الباستيون أُسس سنة968هـ/1561م، على الساحل الشرقي للجزائر، على بعد اثني عشر فرسخاً[7] شرقَ عنابه، وأربعةِ فراسخَ غربَ القالة، من طرف مؤسسة المرجان

---

(1) –R.P.Pierre Dan: op.cit, p57.

(2) –M. Leon Galibert: Histoire de l'Algérie Ancienne et Moderne, Furne Et C^ie Libraires-Editeurs, Paris, 1843, p217.

(3) –Ch. De Rotalier: Histoire d'Alger et de La Piraterie Turque dans la Méditerranée, 2Tomes, Paulin Libraire- Editeur, Paris, 1841, T2, p507.

(4) –F.Elie de La Primaudaie: op.cit, p448.

(5) –Nicolas Baudeau: Encyclopédie Méthodique. Commerce, 3Tomes, Panckoucke Libraire, Paris, 1783, T1, p643.

(6) –Paul Masson: op.cit, p9.

(7) – الفرسخ: أصله فرنسك، لفظ فارسي، دخل إلى العربية بمعنيين، الأول يدل على الزمن، والثاني ارتبط بمسافة معلومة اتفق على تقديرها بالمسافة التي إذا مشاها الرجل قعد واستراح. وهي تقدر بثلاثة أميال؛ أي ما يقارب 5كيلومتر. أنظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم الألقاب والمصطلحات التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1416هـ/1996م، ص337.

المارسيلية[1]؛ التي تحصّلت من السلطان سليمان القانوني، في مقابل رسوم تصل إلى 1500أوقية (ecus)[2] ذهبيةٍ تدفع إلى إيالة الجزائر،[3] على حقِّ صيد المرجان في المناطق والخلجانِ الممتدة من الرأس الأحمر إلى واد سيبوس، مع السماحِ ببناء وكالة الباستيون، وبإجراء التحصينات اللازمةِ.[4]

5- نشاط وكالة الباستيون خلال القرن السادس عشر.

بعد تأسيسها، سنة968هـ/1561م، نشطت وكالةُ الباستيون في صيدِ المرجان، وذلك لتوفُّرِ هذه المادة في السواحل القريبة منها، وقد ذكر ماسون أنها عرفت ازدهاراً مطّرداً بسبب نوعيةِ المرجان الرفيعة والمتوفرة بكمياتٍ كبيرةٍ، ولهذا فقد ازدادت مداخيل هذه الشركة، وتوسّع نشاطها، حيث أقحمت نفسَها في تجارة القمح منذ وقت مبكرٍ؛ إذ كانت تستثمر جزءاً من مداخيلها في شراء كمياتٍ معتَبَرةٍ من الحبوب من الأهالي، وتوريدها نحو مرسيليا وجنوة.[5]

كما أنّ هذه الوكالةَ قد عرفت توسعاً جغرافياً بعد ضم مرسى الخرز[6]، سنةَ 986هـ/1578م، بعد أن كان محلَّ صراع بين الفرنسيين والجنويين. وتتضمن وثيقة من وثائق مهمة دفتري أمراً صادراً إلى بيلرباي الجزائر، بالسماح للفرنسيين بصيد المرجان في هذا المكان، وذلك

---

[1] – هي مؤسسة تجارية أسسها توماس لانش في مرسيليا، سنة1553م، وكانت تضم نخبةَ التجار المرسيليين، من أمثال دوميرابو(Jean Riqueti de Mirabeau)، بوسييه(Pierre Bausset)، وديدييه(Carlin Didier). وقد ازدهر نشاطها منذ حصولها على امتياز صيد المرجان على السواحل الشرقية للجزائر سنة 1561م. أنظر:

Paul Masson: Les compagnies du corail, fontemoing éditeur, Paris, 1918, p17.

[2] – أوقية(Ecu): أُطلق هذا المصطلح على الترس الفرنسي خلال العصور الوسطى، ثم استخدم لنوع من العملة القديمة، وكان يحمل على أحد الوجوه صورة ترس يمثل شعار فرنسا، وقد بلغت قيمته في بداية القرن السابع عشر حوالي أربعة قروش (Piastres). أنظر:

Henri Lamirault et C^{ie}: La Grande Encyclopédie inventaire raisonné des sciences des lettres et des arts, 31 Tomes, H. Lamirault et C^{ie}. Editeurs, Paris, 1885-1902, T15, p533.

[3] – يحيى بوعزيز: المرجع السابق، ص59.

[4] –Pierre Heinrich: L'Alliance Franco-Algérienne au XVI^{e} siècle, Imprimerie V^{ve} Mougin-Rusand, Lyon, 1898, p109.

[5] – Paul Masson: op.cit, P18.

[6] – مرسى الخرز: هو الاسم القديم للقالة، يقع شرق الباستيون بأربعة فراسخ،كان معروفاً منذ القرون الوسطى بغنى منطقته بالمرجان؛ حيث استغله الجنويون فترة من الزمن، وقبل خروجهم منه عمد روجير دي لوريا (Roger de Loria) الجنوي إلى تخريبه، سنة 1286م. وبقي على حاله، إلى غاية منحه إلى الفرنسيين. وقد أسموه القالة(Calle) لأنهم اعتبروه بمثابة موقف وملجأ للسفن التي تعمل في الباستيون. أنظر: Charles Féraud: op.cit, p93.

بشرط عدمِ تحصينه أو تسليحه. وتشير الوثيقة أيضاً إلى ضرورةِ دفعِ الفرنسيين المستغلين لهذا المرسى، مقدار العُشرِ من مداخليه إلى خزينة الجزائر.[1]

ورغم طابعها "المرجاني"، إلا أنّ الشركة تحصلت على امتياز شراء الجلود والصوف والشمع من أهالي المنطقة، وكذلك شراءَ ما يكفي من الحبوب لغذاء الصيادين وعائلاتهم، أي حوالي ألف قفيزٍ[2] من الحبوب؛ حسب الاتفاق الذي أبرمته مع حكام الجزائر. إلا أنها كانت تنجح في تصدير كمِّياتٍ غيرِ محدودةٍ من الحبوب بفضل الهدايا التي كانت تقدمها للحكام المحليين.[3] وكان هؤلاء يحتكرون بيعَ المنتجاتِ الزراعيةَ لهذه الشركة وذلك بسعر أغلى من ذلك الذي تشتري به من الأهالي. وكان الحكام يتابعون الأسعارَ في الخارج لتحديد سعرِ بيعهم؛ وفي هذا الإطار فقد كان الاتفاقُ بين الشركة وخضر باشا على سعر 7أوقية لقفيز القمح، لكنّه لما علم بأنّ مناطقَ فرنسا الجنوبية بحاجة ماسّةٍ للقمح، قام برفع السعر إلى 12أوقية.[4]

ونظراً للنشاط الكبير الذي كانت تقوم به هذه الوكالة التجارية، وأهميّةِ مداخيلها بالنسبة لبيلربكية الجزائر، فقد كان إقليمها مطمعاً لمسيّري الإدارة المحلية، سواءً في بايلك الشرق أو حتى في تونس، لهذا فقد قام السلطان العثماني بإجراء ترتيبات إدارية في بايلك الشرق، تمثلت في استحداث لواءٍ جديدٍ يتركب من مناطق عنابه والباستيون وطبرقة وباجة، سنة988هـ/1580م، وذلك بهدف إحداث التوازنِ الاقتصادي في مداخيلِ ومصاريفِ أوطانِ الجزائر، كما تشير الوثيقة التي نشرها خليل ساحل أوغلي.[5]

---

[1] – مهمة دفتري رقم 35، صحيفة 122، حكم رقم 314. وأنظر الملحق رقم 2.

[2] – القفيز(Kaffiz)= 2.250 قنطار. أنظر:

Le baron baude: l'Algérie, 2Tomes, Arthus Bertrand Libraire, Paris, 1841, T2, p64.

[3] – المنور مروش: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، جزآن، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009، ج1، ص83.

[4] – Paul Masson: op.cit, p96.

[5] – خليل ساحل أوغلي: "إحداث لواء جديد في الجزائر في أواخر القرن السادس عشر يتركب من بلد العناب وباستيون ومتبارقة وقلعة باجة"، في الأصالة، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، ع35/34، 1396هـ/1976م، ص163. وأنظر الملحق رقم 5.

ورغم الامتيازات التي منحها السلاطينُ العثمانيون للفرنسيين، خلال القرن السادس عشر، إلا أنّ وضعَ وكالةِ الباستيون لم يستقر إلاّ في نهايةِ القرن؛ إذ أنّ السلطانَ محمد الثالث[1] جدَّدَ للفرنسيين هذه الامتيازات للمرة الرابعة، سنة1006هـ/1597م، والتي مكنتهم من استغلال هذه الوكالة في صيد المرجان، وفي أنشطةٍ تجارية علنيةٍ، مثل تجارةِ الجلود والشمع والكتان، وغيرها. وغيرِ علنيةٍ، كتجارة الحبوب والقمح.[2]

6- ملحقات الباستيون:

هي تلك المراكزُ والموانئُ ومناطقُ الأنشطة الاقتصادية الفرنسية التابعةُ للباستيون، وقد كانت منتشرةً على الساحلِ الشرقي الجزائري.[3] ورغم اختلاف نشاطها؛ من حيث تلك المتخصصة بصيد المرجان، أو التي استأثرت بتصدير نوعية معينة من السلع نظراً لقربها من مناطق جلبِ تلك السلع، أو تلك التي أخذت على عاتقها مهمةَ حمايةِ مخازنِ المواد التي جُمعت من الأهالي قبل نقلها نحو موانئ التصدير، قلت رغم كلّ ذلك، إلا أنها كانت تتبع إدارياً للباستيون، حيث أنّ كلّ تكاليف تلك المراكز؛[4] من أجر الموظفين والجنود، إلى مبالغ الكراء والتجهيز، وليس أخيراً بمدفوعات الضرائب المستحقة إلى السلطة المركزية، أو إلى الحكام المحليين، كانت كلُّها تُدفع من خزينة الوكالة الأم؛ الباستيون.[5] ورغم تلك التبعيّةِ الإدارية، إلا أننا وجدنا بأنّ بعضَ تلك الملحقات؛ والتي لم تتعرض للهدم، كانت تشهد حركيةً تجاريةً، رغم تعطل وكالة الباستيون

---

[1] - هو السلطان محمد الثالث ابن مراد الثالث، ولد في 7 ذي القعدة 974هـ/16 مايو 1566م. أمه صفية الإيطالية الأصل، تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة 1003هـ/1595م. شهد عصره عدة حروب في البحر، وبعض الثورات في الأقاليم الآسيوية، قادها بعض جنود الإنكشارية. توفي في 12 رجب 1012هـ/16 ديسمبر 1603م. أنظر: محمد فريد بك: المرجع السابق، ص267.

[2] –Paul Masson: Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique barbaresque, p15.

[3] – أنظر الخريطة المرفقة في الملحق رقم 1.

[4] – عن المصاريف السنوية لوكالة الباستيون وملحقاتها، أنظر الملحق رقم 11.

[5] –Jacques Savary: Le Parfait négociant, 2 Tomes, Chez les frères Estienne, Paris, 1757, T2, p474.

بسبب تعرضها للهدم، كما حدث عدّة مراتٍ في النصف الأول من القرن السابع عشر.[1] وأهمُّ هذه الملحقات هي:

1. **القالة**(La Calle): كما ذكرنا آنفاً أنّ القالةَ هي أولُ مركز طالب الفرنسيون بضمه إلى الباستيون وذلك لقربه من هذه الوكالة،[2] وقد استعمل كمحطةٍ وملجأٍ لسفن الباستيون لأنّ تضاريسَ ساحل الباستيون لم تكن تسمح بالرسوِّ المريح للسفن. كما كانت تضم مخزنين كبيرين، وحاميةً مكونةً من قائد و14 ضابطاً، ويذكر الأب دان أنها تقع على بعد سبعةِ أميالٍ شرقَ الباستيون، وأنها كانت تعتبر ميناءَ الباستيون، نظراً لاستقبالها لسفن الشحن الكبيرة.[3]

2. **وكالة عنابة**(Bône): اشتُرِيَتْ من عوائدِ الباستيون، وكانت كبيرةً وفسيحةً، تُشغِّلُ خمسةَ وكلاءٍ للتداول، والذين يقيمون هناك. وتبلغ النفقات السنوية التي تغطي تكاليفَ صيانة الوكالة والموظفين الخمسة الذين يقيمون فيها خمسة آلاف جنيهاً. وبالإضافة إلى ذلك، فقد تمَّ احتساب مبلغِ 800 جنيه سنوياً لرؤساء وجنود الحامية التركية، للاحتفاظ بهم كأصدقاءَ في الأعمال التجارية للباستيون، وإذا اقتربت سفنٌ حربيةٌ من ميناء عنابه، فإنّ المطلوبَ من الوكالة الفرنسية توفيرَ كلِّ ما تحتاجه.[4]

3. **سكيكدة** أو **سطورة**(Stora): يعتبر خليجُ سطورة؛ الذي بنى الفرنسيون على ضفافه مدينةَ سكيكدة،[5] من أولى المراكز الفرنسية، إن لم يكن الوحيدَ، الذي نصّت عليه معاهدة الامتيازات.[6] وحسب المصادر، فإنه كان من المناطق المفضلة للفرنسيين لصيد المرجان، وذلك

---

[1] –Féraud: op.cit, p101.

[2] – مهمة دفتري رقم 35، صحيفة122، أمر رقم314. وأنظر الملحق رقم 2.

[3] -R.P.Pierre Dan: op.cit, p58. وأنظر الملحق رقم 4.

[4] -F.Elie de La Primaudaie: op.cit, p456.

[5] -Charles Féraud: op.cit, p104.

[6] – ذُكر اسم هذا المركز صراحةً في نص معاهدة الامتيازات التي قام بتجديدها السلطان أحمد الأول سنة1604م. أنظر الملحق رقم 6.

لغناه وجودة مرجانه.[1] كما أنّ نشاطَ ميناءِ سطورة كان لا يقتصر على تجارة المرجان فحسب، بل تعدّاه إلى موادَ أخرى مثلَ الخيول والجلود والشمع وغيرها.[2]

4. **القل**(Collo): يعتر هذا المركزُ؛ القريبُ من المركز السابق، أهمَّ مركزٍ لتصديرِ الجلود ذاتِ الجودة العالية والثمنِ الرّخيص، كما أنّ هناك موادَّ أخرى تصدَّر من هذا الميناء؛ كالشمع والخيول.[3]

5. **الرأس الوردي**(Cap rose): يقع على بعد حوالي 18 كيلومتر غربَ الباستيون، ويمتد داخل البحر مكوناً الحدَّ الشرقيَّ لخليج عنابه.[4] ويعتبر الرأسُ الوردي قلعةً أقربَ منه إلى المركزِ التجاري؛ حيث يُعدّ من أشد أماكنِ منطقة عنابه تحصيناً، ويقيم فيه ضابطٌ وثمانيةُ جنودٍ، مقابلَ إحدى والثلاثين جنيهاً في الشهر للضابطِ وتسعِ جنيهات لبقية الجنود، كما يقيم فيها مترجم. ويمكن تعزيز المكان، إذا لزم الأمر، بجنود إضافيين.[5] وحسب التاجر جاك سافاري (Jacques Savary) فإنّ هذا المركزَ يقع في أراضي قبيلة الشيخ امبارك، وبالتالي فهو يعمل على تأمين مرور البضائعِ المُشتراةِ من الأهالي، في مقابلِ دفع مبلغٍ من المال لهذه القبيلة.[6]

6. **دار الجزائر**(Maison d'Alger): يستعمل هذا البيت كمحلٍّ إقامةٍ مؤقتة لموظفي الباستيون في مدينة الجزائر، سواءً القادمين من فرنسا، أو المكلّفين بمهمة لدى حكام الجزائر، قبلَ التحاقِهم بمكان عملهم. ويصفها لابريموداي بأنها كانت كبيرةً وأنيقةً، وثمن إيجارها 500 جنيهاً، يقيم فيها موظّفٌ مكلفٌ بنقل المراسلات بين وكلاءِ الباستيون والسلطاتِ المركزية، كما تبلغ تكلفة صيانة هذه الإقامة، إضافةً إلى أجرةِ الموظّفِ القيِّم، حوالي 800 جنيهاً في السنة.[7]

---

(1) –Le Baron I.De Testa: op.cit, T1, p146.

(2) –Feraud: op.cit, p101.

(3) –Jacques Savary: op.cit, T2, p475.

(4) –Peyssonnel et Desfontaines: Voyage dans les Régences de Tunis et d'Alger, 2 Tomes, Librairie de Gide, Paris, 1838, T2, p224.

(5) -F.Elie de La Primaudaie: op.cit, p456.

(6) –Jacques Savary: op.cit, T2, p476.

(7) -F.Elie de La Primaudaie: op.cit, p457.

المبحث الثاني

العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السادس عشر.

1- أوضاع الجزائر خلال القرن السادس عشر.

في مطلعِ القرن السادس عشر ، كانت الدولتان؛ الحفصية والزيانية، تقتسمان مناطق النفوذ في الجزائر، وقد نجم عن الضعف الذي تردّت فيه هاتان الدولتان اضطرابُ الجزائر وتجزؤُها إلى عدة وحدات سياسية صغيرة متنافرة، لا يسود بينها الوئام. فأغلبُ المدن الساحلية كوهران، وتنس، وشرشال، والجزائر، ودلس، وبجاية، وجيجل، والقل وغيرها، كانت في هذه الفترة، إما تتمتع باستقلال تام، وإما تحت حكم أمير زياني، أو أمير حفصي أعلنا الانشقاق عن الدولة الزيانية، أو عن الدولة الحفصية.

وكانت كل المناطق الجبلية في الفترة نفسها مستقلّةً، وتأسست في بعضها إماراتٌ ذاتُ أصل مرابطي، أو شريفي، من أهمها: إمارة بني عباس في جبال القبائل جنوبَ بجاية، وإمارة كوكو الواقعة إلى الغرب من الإمارة الأولى في الجبال نفسها. واستقلت المدن الداخلية كذلك عنهما تحت حكم بعض الأسر؛ كأسرة بني جلاب في توغرت، وعلاّهم في ورقلة، جنوبي الجزائر، وغيرها. وسادت القبائلُ على المناطق السهلية؛ كبني عامر في القطاع الوهراني، والذواودة في القطاع القسنطيني.[1]

أولا: الاحتلال الاسباني

لقد كان نتيجةً لهذا الضعف والتفكك، هو تعرضُ أغلبِ مناطق الجزائر الساحلية إلى الهجمات الاسبانية، فقد تمكن الأسبان، خلال الفترة 911-942هـ/1505-1535م، من أن يحتلوا ويخضعوا مواقعَ ومدناً عديدةً في الساحل الجزائري؛ كانت المرسى الكبير أولَها سنة 911هـ/1505م، ثم وهران ثانيها في 914هـ/1509م، وبجاية في 915هـ/1510م، وكذلك عنابة سنة 942هـ/1535م.[2]

---

[1] - عمار بن خروف: العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب خلال القرن10هـ/16م، دار الأمل، الجزائر، 1427هـ/2006م، ص17.

[2] –Le maréchal de Mac-Mahon: Documents inédits sur l’Histoire de l’occupation espagnole en Afrique 1506-1574, A. Jourdan Libraire-éditeur, Alger, 1875, p150.

وفي أعقابِ احتلالِهم لبجاية، سارعت المدن الصغيرة الواقعةُ بينها وبين وهران إلى إعلان خضوعها، والقبولِ بـــشروط الأسبان مهما كانت مذلّةً، خشيةَ أن يصيبها ما أصاب سكان وهران، وبجاية، من قـــتلٍ وأسر وتشريـــدٍ. ومن أهم تلك المدن؛ مستغانم، والجزائر. وقد بنى الأسبان في مواجهة هذه الأخيرة، سنةَ 916هـــ/1510م، حصناً منيعـــاً على صخرة لا تبعد عن شاطئ المدينة إلا بنحو مائة متر فقـــط، وجعلوا فيه حاميةً قويةً. وبذلك أصبحت مدينة الجزائر هي الأخرى شبـــهَ محتلةٍ، إذ غـــدَت تحت المراقبـــة المباشرة للحامية الإسبانية، وتحت رحمة مدافعها.

في هذه الفترة، كانت طلائعُ غزاة البحرِ الأتراك قد وصلت إلى السواحل المغاربية في مهمّةِ إنقاذِ بقايا الأندلسيين الفارّين من شبه الجزيرة الأيبيرية، والتعرضِ للسفن والمراكزِ المسيحية في الحوض الغربي للمتوسط؛ وكان من بين هؤلاء الإخوةُ بربروس؛ عروج، خير الدين، وإسحاق.[1]

لقد استجاب عروج وإخوته لطلباتِ الجزائريين، لتخليصهم من الخطر الاسباني الذي بات يتهددهم؛ فكانت جيجل أولَ مدينة جزائرية حرّرت، سنة 919هـــ/1514م، واتخذوها قاعدةً لعملياتهم، وبعد دخولهم لمدينة الجزائر، سنة 922هـــ/1516م، قام الإخوةُ بربروس بتحرير مدن تنس ودلس سنة923هـــ/1517م.كما تمكن عروج من زعزعة ملك بني زيان في تلمسان، وقد كلّفه ذلك حياته في سبتمبر 1517م/923هـــ.[2]

ثانيا: بداية العهد العثماني

بعد وفاة عروج أقدم أخوه خير الدين؛ بعد استشارةِ أهلِ الحلِّ والعقد، على ربط الجزائر بالسلطنة العثمانية، وأضحت الجزائرُ، منذ سنة925هـــ/1519م، أحدَ إيالات الدولة العثمانية.

وقد عرف نظام الحكم العثماني في الجزائر، خلال القرن 16م/10هـــ، تغيُّراً من عهد البيلربايات الذي ابتدأ من سنة925هـــ/1519م، إلى عهد الباشوات منذ سنة 995هـــ/1587م؛ فخلال العهد الأولِ كان حكامُ الجزائرِ الأقوياءُ يتمتّعون بسلطة واسعة؛ حيث كانوا يُشْرفون على إيالتَيْ تونس وطرابلس، وقد ترقى معظمهم إلى رتبة قابودان باشا؛ أي قائدِ الأسطول العثماني؛ مثل خير الدين وابنه حسن، والعلج علي. وأهمُّ مميزاتِ هذا العهد هي:

---

[1] – عمار بن خروف: المرجع السابق، ص18.

[2] – توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492-1792، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص179.

1- التصدي لمزيدٍ من الحملاتِ الإسبانية على مدينة الجزائر، وشرشال ومستغانم وغيرها، وإفشالُها، وإلحاقُ خسائرَ كبيرةٍ بها، جعلت الإسبانَ في نهاية الأمر في موقف الدفاع، لا الهجوم. ولاسيما بعد فشلِ حملتهم على الجزائر، سنةَ 948هـ/1541م ؛ التي قادها الإمبراطور شارلكان بنفسه.[1] والقضاءُ على حملتهم الموجّهة ضد مستغانم في سنة 965هـ/1558م بقيادة حاكم وهران الكونت دالكوديت(Le comte d'Alcaudète).

2- النجاحُ في تحرير العديدِ من المواقع التي كان يحتلها الأسبان، وفي مقدمتها: صخرة الجزائر؛ البينون في سنة936هـ/1529م، عنابه سنةَ 947هـ/1540م، وبجاية سنةَ 962هـ/1555م. والإخفاقُ في تحرير وهران والمرسى الكبير، لتمنُّعِ الأسبان فيهما، ووصولِ المددِ إليهم من جهة البحر.[2]

3- النجاحُ في توحيد أجزاء كثيرةٍ من البلاد الجزائرية، التي كانت تابعةً للممالك، والإمارات، الحفصية والزيانية، وللأمراءِ وشيوخ القبائل المنشقّين عنهما، وربطها بمدينة الجزائر التي اتخذوها حاضرةً للبلاد كلِّها، بحيث غدت معظمُ أجزاءِ الجزائر الحالية من مشمولاتِ حكمهم.[3]

4- العملُ على مدِّ نفوذِ الجزائر، والدولة العثمانية إلى المغرب الأقصى، والنجاحُ في مرتين على الأقل في ضم فاس وممتلكاتها؛ وذلك في سنة 961هـ/1554م، ثم في سنة 984هـ/1576م ، وتنصيبُ سلطانٍ مُوالٍ لهم فيها؛ وهو أبو حسون الوطاسي في المرة الأولى، وعبد المالك السعدي في المرة الثانية.[4]

5- النجاحُ شيئاً فشيئاً في إرساء دعائمِ الحكم العثماني في الجزائر، والشروعُ في إحداث تنظيماتٍ إداريةٍ فيها، وتقسيماتٍ إقليميةٍ جديدةٍ بحيث أصبحت مدينة الجزائر وضواحيها تمثل

---

(1) – لمزيد من التفاصيل حول حملة شارلكان على الجزائر أنظر:
المجهول: غزوات عروج وخير الدين، تح: نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1353هـ/1934م، ص ص115-126.

(2) –F. Diego de Haedo: De la captivité à Alger, Trad: Moliner-Violle, Typographie Adolphe Jourdan Imprimeur-Libraire, Alger, 1911, p256.

(3) – حمدان خوجة: المرآة، تح: العربي الزبيري، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1980، ص111.

(4) –H.-D. De Grammont: Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830), Ernest Leroux Editeur, Paris, 1887, p115.

عاصمةَ الإيالة الجزائرية؛ أي مقرَّ الحكم المركزي، وأُطلق عليها اسم دار السلطان، بينما قسّمت بقيةُ المناطق إلى ثلاثةِ بيالك وهي:

– بايلك التيطري؛ الذي أسس سنة954هـ/1548م، وقاعدته مدينة المدية في قسم البلاد الجنوبي.

– بايلك الغرب؛ وقد أسس سنة970هـ/1563م ، وقاعدته الأولى مازونة ثم معسكر ثم مستغانم، قبلَ أن يستقرَّ المقرُّ في وهران بعد فتحها الأول والثاني في القرن الثامن عشر.[1]

– بايلك الشرق، وقد ظهر سنة979هـ/1572م[2]، قاعدته مدينة قسنطينة.

وقد كان على رأس كل بايلك، بايٌ تابعٌ لحاكم الجزائر؛ البايلرباي، أو الباشا، وهي التسميات التي حملها حكام الجزائر خلال القرن السادس عشر.

2- أوضاع فرنسا خلال القرن السادس عشر.

بعد عقود طويلة من انتهاءِ حربِ المائة سنة[3]، خاضت فرنسا، خلالَ القرن السادس عشر، حروباً متتاليةً، خاصّةً تلك الحربُ التي خاضها الملك فرانسوا الأول ضد أسرة الهابسبورغ النمساوية، التي امتدت إمبراطوريتها إلى هولندا، إيطاليا، واسبانيا، والتي كان يتربعُ على عرشها شارل الخامس.

أولا: عهد فرانسوا الأول(1515-1547):

لقد تابعَ فرانسوا الأول؛ الذي اعتلى العرشَ سنةَ921هـ/1515م، الحروبَ الايطاليةَ[4]؛ فكان حليفاً لمدينة البندقية، وأجبرَ السويسريين على مَدّه بالجنود مقابلَ السلام، كما تحصل على

---

[1] – عمار بن خروف: المرجع السابق، ص106.

[2] – هذا التاريخ قد ذكره عمار بن خروف في المرجع السابق، لكن مولود قايد يرجع تاريخ تأسيس بايلك الشرق إلى سنة1567م، ويذكر أنّ مؤسسه هو الباي رمضان شيلاك، الذي بقي بایاً على قسنطينة من سنة1567م إلى غاية 1574م. أنظر:

Mouloud Gaid: Chronique des Beys de Constantine, O.P.U, Alger, 1980, p13.

[3] – حرب المائة سنة: وهي الحرب التي اندلعت بين فرنسا وانجلترا، بعد اعتداء الانجليز على شمال فرنسا. وامتدت من سنة 1337م إلى غاية سنة 1453م. وكان دخول الملك الفرنسي شارل السابع (Charles VII) في 7أكتوبر1453م لمدينة بوردو (Bordeaux) يعتبر نهاية غير معلنة لهذه الحرب، والتي لم تسفر عن أي معاهدة أو اتفاقية بين البلدين. أنظر:

Henri Lamirault et C^{ie}: op.cit, T9, p1125.

[4] – الحروب الايطالية(1494-1559م): أدت المنازعات التي حدثت بين الإمارات الايطالية في عصر النهضة إلى تدخل دول أوربا؛ مثل فرنسا واسبانيا، لغرض معلن وهو فض النزاعات بينها، وغير معلن وهو السيطرة عليها. وقد عرفت هذه

بعض الامتيازات الكنَسيّة؛ حين عقد اتفاقاً مع البابا ليو العاشر (Lyon X) في 18أوت 1516م/922هـ، يُخَوِّله حقَّ تعيين الأساقفة ورجال الدين.[1] وهكذا ازدادت سلطة ملوك فرنسا تجاهَ طبقة رجال الدين؛ الذين انقطعت صلتهم بروما، وضَعُفَ ولاؤهم للبابا.[2]

وربما أنّ هذا هو السببُ الذي جعل ملوكَ فرنسا لا يتحمسون للمذهب البروتستانتي، ولا يجدون مصلحةً شخصيةً في تشجيعه في بلادهم، بل وإنهم سلكوا طريقاً معاكساً؛ حيث قمعوا البروتستانت بشدة، ورغم ذلك فقد انتشرت البروتستانتيةُ اللوثريةُ في فرنسا، ثم استقرَّ رأي المصلحين على اعتناق الكلفنية، لأنّ كالفن(Calvin) فرنسي، وكتب آراءَه بالفرنسية، وأطلق المصلحون على أنفسهم اسمَ الهيجونوت(Huguenots)؛ أي المتحالفين.[3]

واستهوى هذا المذهب الجديد النبلاءَ، والأمراءَ؛ لأنهم يريدون أن يقرِّروا وحدَهم نوعيةَ المذهب الديني في إماراتهم، كما فعل أمراءُ ألمانيا، وانضم للهيجونوت؛ الفلاحون، والعمالُ، والطبقةُ الوسطى في المدن.[4]

وقد قاوم فرانسوا الأول الهيجونوت، لكنّ انشغالَه بالحروب الإيطالية لم تجعله يخصّص وقتاً كبيراً لمقاومتهم، إضافةً إلى أنّ وقوعَه في الأسرِ، سنة932هـ/1525م، جعلَه لا يتحمّس لمحاربتهم بعد خروجه من السجن سنة933هـ/1526م، لكنّ تطوراتِ الأحداث في ألمانيا جعلته يقلق؛ ويسعى لقمع الهيجونوت حتى لا يتمكنوا من إحداث انقسامٍ سياسي، ولهذا بدأ البطشَ الشديدَ منذ سنة942هـ/1535م،[5] وقد كانت هذه السنةُ تشكّل انتصاراً للدبلوماسية

الحروب ثلاثة أدوار رئيسية؛ وهي : الدور الأول(1494-1495م)، الدور الثاني(1499-1504م)، والدور الثالث(1508-1516م). وقد انتهت هذه الحروب بمعاهدة كانو-كمبريزي(Cano-Cambrizi)، سنة 1559م، التي كرست سيطرت اسبانيا على ايطاليا. لقد أفقدت هذه الحروب الايطاليين استقلالهم، وعطلت وحدتهم السياسية، التي لم تتحقق إلا في القرن 19م. أنظر: حسين نصار وآخرون: المرجع السابق، ج3، ص1345.

[1] - جول مازاران: دليل السياسي الناجح، تر: خميس حسن، دار الطلائع، القاهرة، 2006، ص15.

[2] - عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار: التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى أواخر القرن الثامن عشر، دار الفكر العربي، مدينة نصر، 1997م، ص124.

[3] -Aurélien Fayet et Michelle Fayet: L'histoire de France des Origines à Nos Jours, Groupe Eyrolles, Paris, 2009, p107.

[4] - عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار: المرجع السابق، ص124.

[5] - جفري برون: تاريخ أوروبا الحديث، تر: علي المرزوقي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 2006م، ص208.

الفرنسية؛ بعد توقيعِ معاهدة الامتيازات مع الدولة العثمانية[1]؛ فقد جاءت هذه المعاهدةُ تتويجاً لتحالفٍ فرنسي عثماني تشكّل لمواجهة الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

بعد معاناة طويلةٍ من مرض السفلس، توفي فرانسوا الأول سنة 1547م.[2] وقد تولى العرش من بعده خمسة ملوك وهم:

- هنري الثاني: Henri II (1547–1559م)
- فرانسوا الثاني:François II (1559-1560م)
- شارل التاسع :Charles IX (1560-1574م)
- هنري الثالث: Henri III (1574-1589م)
- ثم تدخل فرنسا عصر العظمة بوصول الملك هنري الرابع.

ثانيا: عهد هنري الرابع 1589–1610م.

تميزت الأوضاعُ السياسيةُ في فرنسا، قبلَ اعتلاء الملك هنري الرابع(Henri IV) الحكمَ، بالتوتر وعدمِ الاستقرار، وذلك بسبب الحروبِ الدينيةِ التي شهدتها فرنسا بين الكاثوليك والبروتستانت ، والتي بلغت أوجَ قوّتها في مذبحةِ ليلة القديس بارثيلمي (Saint Barthelemy) يوم 24 أوت 1572م/ 979هـــ؛ وقد قدرتها المصادر الأوروبية من 20.000 إلى 30.000 قتيل، واستمرت المجزرة ثلاثة أيام.[3]

وبعد اغتيال هنري الثالث (Henri III) في 01 أوت 1589م/996هـــ، تولى بعدَه هنري الرابع الحكمَ، فانتقل الحكم من أسرة ڤالوا (Valois) إلى أسرة البوربون (Bourbon).[4]

وقد واجهته صعوباتٌ كثيرةٌ؛ منها كونُه بروتستانتياً، ومحروماً من الكنيسة، وبالتالي عارضته معظمُ البلاد الكاثوليكية، والاتحادُ الكاثوليكي؛ بزعامة مابِين(Mapin)، وأسرة كيز(Guiz).[5]

---

[1] – لقد ناقشنا التاريخ الحقيقي لعقد هذه المعاهدة في المبحث الأول.

[2] –Aurélien Fayet et Michelle Fayet: op.cit, p82.

[3] – عبد الفتاح أبو علية وإسماعيل ياغي: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، دار المريخ، الرياض، 1993، ص 190.

[4] – عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار: التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فينا، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1971، ص 185.

[5] – عبد الفتاح أبو علية واسماعيل ياغي: المرجع السابق، ص 191.

وعارضه أيضا فليب الثالث(Phillipe III)؛ ملكُ اسبانيا الذي كان يطمعُ في تأسيس أسرةٍ اسبانيةٍ تحكم فرنسا. وقد سار هنري الرابع على الأسلوب السياسي التالي:

– أنه اعتبر الكاثوليكيةَ الدينَ الرسميَّ للدولة الفرنسية.

– ورأى ضرورةَ تمتع المذاهب الإصلاحية بالحرية التامة، في العبادة والعقيدة.

– أنهى الخلافَ المسلحَ بين الكاثوليك، وبين أنصاره القدماء من البروتستانت (الهيجونوت)، ودعى إلى سياسة التسامح، وشرَعَ في مفاوضة زعماءِ الهيجونوت، ومساومتِهم على قَبولِ تسويةٍ تضمن لهم حريةَ العبادة.[1]

وفي الأخير استطاع إقناع البابا كليمونت الثامن(Clément VIII) بإلغاء صكِّ الحرمان عنه سنةَ 1003هـ/1595م ، ثمّ اعترفت به المدنُ والمقاطعاتُ ملكاً على فرنسا، ودخل باريس منتصراً في 22 مارس 1595م/1003هـ.[2]

وفي 13 فيفري 1598م/1006هـ، أصدر هنري الرابع مرسومَ نانت (Edit de Nantes)؛ وهو المرسومُ الذي أنهى الحربَ الدينيةَ في فرنسا، وشمل التّسامحَ الدينيَّ مع أتباع كالفين، وأجازَ للبروتستانت إقامةَ شعائرهم الدينية في المدنِ الخاصةِ بهم. كما أنه سمح للهيجونوت بتولي المناصبِ العامةِ؛ العسكريةِ والمدنيةِ، وأنشأ للبروتستانت محكمةً قضائيةً خاصةً بهم، وسمح لهم بعقد مجلسٍ عام يمثِّلهم؛ ينعقد كلَّ ثلاث سنواتٍ من أجل البحث في أمورِهم وأحوالِهم.[3]

وهكذا نجح هنري الرابع في إنهاء المشكلة الدينية وأقرَّ بمبدأ التّسامح الديني في فرنسا، وبهذا أثبت أنه رجل سياسي بارع، كما برهنت أعماله على أنه حاكم مستنير.

ثالثا: فرنسا في عصر العظمة

بعد أن هدأت واستقرت الأوضاعُ السياسية بفرنسا على إثر الحروب الدينية التي أرهقت كاهلَ البلاد، أراد هنري الرابع القيامَ بعدّة إصلاحات في جميع المجالات؛ حيث أنه اهتمّ بشؤون البلاد الداخلية؛ وذلك عن طريق إنعاش الزراعة والصناعة والتجارة. وقد ساعده في هذه الأعمالِ

---

[1] – عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار: المرجع السابق، ص 136.

[2] – عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار: التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى أواخر القرن الثامن عشر، ص160.

[3] – عبد الفتاح أبو علية واسماعيل ياغي: المرجع السابق، ص 195.

الإصلاحيةِ مجموعةٌ من الإداريين، من بينهم صديقُه، ووزيرُه الأولُ، سولي(Sully) البروستانتي؛ والذي اهتمَّ، هو الآخر، بالإصلاحاتِ والشؤونِ المالية دونَ أن يُثقِلَ كاهلَ الشّعبِ بالضرائب، وقام بتنظيمِ السّجلاتِ المالية، وتنظيمِ المصروفاتِ العامة، ونظَّمَ طُرقَ الجباية، وشقَّ الطرقَ ليساعد على تقدِّمِ التجارة، كما شقَّ القنواتِ ليساعدَ على تقدّم الزراعة في البلاد، وذلك لأنه رأى أنها الموردَ الأساسيَ للثروة الوطنية.[1]

وجّه هنري الرابع اهتماماً كبيراً للصناعة، والتجارة، فأحيى الصناعاتِ القديمةَ وأسّس المصانعَ لصناعة الأقمشة، والسّجاد، وأدواتِ الزّينة والحرير...، واتخذ عدّةَ تدابير لتنشيط التجارة الداخلية والخارجية.[2]

وأمّا في المجال العمراني فقد قام ببناء المعابد والجسور، وكان يتطلع إلى جعل فرنسا دولةً بحريةً كبيرةً، ولها مستعمراتٌ، كالمستعمرات الإسبانية، فاهتمّ بعلاقات فرنسا التجارية، والسياسية، وعقدَ عدةَ معاهداتٍ تجاريةٍ مع الدولة العثمانية وغيرِها.[3]

وكان أوّلَ إجراءٍ قام به هنري الرابع، على صعيد علاقاته مع الدولة العثمانية، هو إبعادُ سفيره باسطنبول لونكوم(Louncomp)؛ الذي اتُّهِم بأنه عميلٌ لملك إسبانيا، وعوّضه بسفاري دو بريف (Savary de Brèves)[4] الذي تمكن من الحصول على امتيازاتٍ جديدةٍ في فيفري 1597م/1005هـ، في عهد السلطان محمد الثالث.

ورغم حصولِ فرنسا على عدة امتيازاتٍ في عهد هنري الرابع، إلا أنّ سياسةَ هذا الأخير كانت في أغلب الأحيان غيرَ واضحةٍ، بل هي سياسةٌ مزدوجةٌ. فمن جهةٍ كان يُظهر رغبةً في الحفاظ على صداقة السلطان العثماني، ومن جهة أخرى كان يريد أن يستغلّ ضعفَ الدولة

---

[1] - عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار: المرجع السابق، ص 160.

[2] - عبد الفتاح أبو علية واسماعيل ياغي: المرجع السابق، ص 196

[3] - عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار: المرجع السابق، ص 161.

[4] - سفاري دو بريف: هو سفير فرنسا بإسطنبول (1592-1606م)، لكن هناك اختلاف حول تاريخ تعيينه، فهناك من يقول أنه عين في عهد الملك هنري الرابع، وهناك من يقول أنه عين قبل هذا الملك. أنظر :
كمال حسنة: العلاقات العثمانية الفرنسية في عهد السلطان سليم الثالث (1789-1807م)، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2005م، ص26.

العثمانية لتحقيق مشاريعه، وطموحاته في الغزو؛[1] حيث كتب إلى سفيره دو بريف، بتاريخ 3 ماي 1602م/1010هـ، ما يلي: « أظن أنّ إمبراطورية السلطان ستسقط قريبا، وبالتالي ستَحدُثُ تغيُّراتٌ هامّةٌ.... ومهما يكن من أمر فإنّه من الضروري أن أعمل قصدَ فرض وجودي مثلما يفعل الآخرون».[2]

وكان هنري يتطلع إلى محاولاتٍ استعماريةٍ واستكشافيةٍ جديدةٍ في أمريكا الشمالية، ومن أهدافه أيضا القضاءُ على نفوذ آل هبسبورغ النمساوي الاسباني في أوروبا، وكان يرى أنّ ذلك لا يتحقق إلا بتضافر كلِّ أعداء هذا النفوذِ؛ كالانجليز، والفرنسيين، والإيطاليين، والأقاليمِ التي تم اتخاذها في الأراضي المنخفضة، والأمراءِ البروستانتين.[3]

ولكنّ هنري لم يعِشْ لتحقيق أمانيه لأنه قُتِلَ غِيلةً من طرف رجلِ الدين المتعصب رفايلاك (Ravaillac) ، وسقط صريعاً في شوارع باريس، سنة 1018هـ/1610م.[4]

ويمكن القولُ أنّ هنري الرابع قد نجح في إنهاء المشكلةِ الدينيةِ؛ بإقرارِه مبدأَ التسامح الديني في فرنسا، وبهذا أثبت أنه رجلٌ سياسيٌ بارعٌ، وبرهنت أعماله على أنّه حاكمٌ مستنيرٌ، وعُرِفَ عصره بعصر العظمة.[5]

3- العلاقات بين البلدين.

لا ريب أنّ القرن السادس عشر مليءٌ بالأحداث التي أثرت على العلاقات بين البلدين، وتجنباً للإطالة، فقد رأينا أن نقتصرَ على ذكر ثلاثةِ أحداثٍ رئيسية ميّزت هذه العلاقاتِ في الفترة ذاتها، وهي:

أولا: التواجد العسكري الجزائري على السواحل الفرنسية

إنّ الظروفَ الدوليةَ التي عرفتها القارة الأوربية، وتراجعَ القوة العسكرية الفرنسية أمام نظيرتها الاسبانية جعل الفرنسيين يستنجدون بالعثمانيين، طالبين منهم التدخلَ العسكريَّ لصالحهم

---

[1] – نفسه، ص27.

[2] –M. D. d'Ohsson: Tableau Général de l'Empire Ottoman, Pub: M.C.D.Ohsson, Chez Firmin Libraire, Paris, 1824, pp 476- 477

[3] – كمال حسنة: المرجع السابق، ص 29.

[4] –Aurélien Fayet et Michelle Fayet: op.cit, p92.

[5] – عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار: التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فينا، ص 161.

ضد الاسبان، وكانت حادثة نيس(Nice)، سنة 949هـ/1543م، أهمّ مظهرٍ من مظاهر هذا التدخّل.

فقد كانت مقاطعةُ نيس تشكّل أهميةً إستراتيجيةً بالنسبة للقوى الأوربية، ذلك أنّ السيطرةَ عليها تسهّل الهيمنةَ على شبه الجزيرة الايطالية، وبما أنّ أغلبَ المناطقِ الايطالية كانت تدين بالولاء لإمبراطورية شارلكان، فلم يجد الأسبان بُداً من إدخال هذه المقاطعة تحت العرش الإمبراطوري؛ وذلك بالتحالف مع دوق دوصافوا(Duc de Savoie)، الذي كان يحكم هذه المقاطعةَ. وقد تسبب هذا في تأجيج صراعٍ محتدمٍ مع فرنسا؛ التي كانت تعتبر مقاطعةَ نيس إحدى ممتلكاتها. ولكي تتمكن من مواجهة قوة شارلكان فقد استنجدت فرنسا بحليفِها العثماني. وفي هذا الإطار فقد قام خير الدين على رأس قوة بحرية كبيرة، تتشكل من حوالي 120سفينة، بإحكام الحصار على مدينة نيس في ماي سنة 1543م/949هـ، ورغم سقوط المدينة في شهر أوت من هذه السنة، إلا أنّ استسلامها بصفة نهائيةٍ للفرنسيين لم يتمّ، ولذلك فإنّ أسطولَ خير الدين لم يغادر السواحلَ الفرنسيةَ، بين ظَلَّ راسياً في ميناء مدينة تولون (Toulon)طيلة سنتي 1543-1544م.[1] وتذكر المصادر[2] أنّ حسن آغا؛ بيلرباي الجزائر، قد شارك في هذا المجهود الحربي بحوالي 40 سفينة جزائرية.[3]

و لم يقتصر نشاطُ البحريةِ الجزائرية على هذه الحادثة فقط، بل ظلّت تنشط على السواحل الجنوبية الفرنسية طيلة القرن السادس عشر؛ فقد استنجد هنري الثاني بصالح رايس، سنة 959هـ/1552م، ضدّ الملك الاسباني فيليب الثاني(Phillipe II)، وقد أرسل بيلرباي الجزائر أسطولاً بحرياً إلى سواحل ميورقة(Majorque).[4] ويذكر هايدو(Haedo) أنّ 22 غليوطة

---

[1] –Anne Brogini: "Entre France et Espagne, Les Crises dans le Comté de Nice Au XVIe Siècle", in, Cahiers de la Méditerranée, N°74, 2007, http://cdlm.revues.org/index2073.html, 12/02/2011, 20 :15.

[2] –J.De Hammer: op.cit, T5, p352.

[3] – قد لا يبدو هذا مستغربا إذا علمنا أنّ الجزائر قد غنمت الكثير من السفن الاسبانية المحملة بالمدافع والذخيرة، والتي خلفها شرلكان بعد فشل حملته على الجزائر سنة 1541م. أنظر:

محمد بن عبد الرحمان التلمساني: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، تح: سليم بابا عمر، في مجلة تاريخ وحضارة المغرب، الجزائر، ع3، 1967، ص18.

[4] -Gilles Veinstein: "Les Préparatifs de la Campagne Navale Franco-Turque en 1552 à Travers les Ordres du Divan Ottomane", in, R.O.M.M, N°:39, 1985. pp. 35-67.

جزائرية كانت متواجدة على السواحل الفرنسية، وكانت تترصد تحركات أندري دوريا (André Doria).[1] وحسب مراسلة الملك الفرنسي هنري الثالث، والمؤرخة في 4أوت 1584م/991هـ، فإنّ حسن فنيزيانو؛ باشا الجزائر، قد أقام ثمانيةَ أيامٍ في الجزر المقابلة لمرسيليا، وقام بمطاردة سفنِ أندري دوريا حتى قُبالة سواحل جنوة.[2]

إنّ تلك الأعمالَ التي كانت تقوم بها الجزائرُ لصالح فرنسا خلال القرن السادس عشر، وبدون مقابل، سوى ترضيةَ السلطان العثماني، جعلت قِلّة من المؤرخين الفرنسيين المنصفين يعترفون بهذا الفضل للجزائر، مثل كارو (Garrot)؛ الذي أقرّ بأنّ الجزائرَ كانت تمارس، بفضل قادتها البحريين، ضغطاً على أوربا كان في صالح فرنسا، خاصّةً أنّ ذلك حدث في وقت كانت فيه الأمّةُ الفرنسيةُ مهددةً، من شارلكان وهنري الثامن، بالخطر. وبفضل تلك العلاقاتِ مع الجزائر أنقذَ فرانسوا الأول عرشَه، وحفظ شعبَه من الخراب.[3]

ثانيا: القنصلية الفرنسية في الجزائر

لقد عملت فرنسا، منذ توقيعها على معاهدة الامتيازات مع الدولة العثمانية، على إرسال ممثّلٍ لها في الجزائر. وقد أصبح هذا المطلب أكثرَ إلحاحاً، منذ تأسيسِ المراكز التجارية الفرنسية في شرق الجزائر؛ ذلك أنّ التجارَ والرعايا الفرنسيين العاملين في هذه المراكز كانوا دائما يبحثون عن من يمثلهم، ويرعى مصالحَهم لدى حكام الجزائر.

ورغم التقاربِ الفرنسي العثماني، وولاءِ حكام الجزائر للسلطان، إلا أنّ التمثيلَ الدبلوماسي الفرنسي في الجزائر قد تأخر بسبب رفضِ الجزائريين المتكرر لأيّ تمثيل مسيحي فوق أراضيهم، وذلك بسبب الحملة الصليبية المتوحشة التي كانت تتعرض لها الجزائر منذ مطلع القرن.

كما أنّ حكامَ الجزائر "الأقوياء" كانوا غالباً ما يبرّرون تماطلَهم في تنفيذ رغبةِ السلطان في قبولِ الممثل الفرنسي، بالرفض العام الذي كان يسود الجزائر حول هذا الموضوع. ونلمس ذلك جلياً من خلال المراسلة التي بعثها حسن فنيزيانو إلى حكام مرسيليا؛ حيث أخبرَهم فيها بأنه لا يمكن قبول اعتماد قنصلٍ بالجزائر، لأن ذلك "يأنف منه التجار، والشعب، وكل الناس".[4]

---

[1] –F. Diego de Haedo: Histoire des rois d'Alger, Trad: H.-D. De Grammont, Typographie Adolphe Jourdan Imprimeur-Libraire, Alger, 1881, p193.

[2] –E. Charrière: op.cit, T4, p300.

[3] -Henri Garrot: op.cit, p403.

[4] – الرسالة مؤرخة في 28 أفريل 1579م/987هـ. أنظر:

وقد بذل الفرنسيون جهوداً كبيرةً من أجل تثبيت قنصلٍ لهم في الجزائر، وذلك بواسطة سفرائهم في اسطنبول؛ الذين كانوا لا يألون جهداً ولا حيلةً من أجل الضغط على حكام الجزائر لتحقيق هذا الهدف. وقد بلغ نفوذ السفراء الفرنسيين في الديوان السلطاني أن كانوا يتدخلون حتى في تعيين أو عزلِ حكام الجزائر؛ مثلما قام به السفير دارامون حينَ نجح في عزل حسن بن خير الدين عن إمارةِ الجزائر، بعد رفضِ هذا الأخير طلباً من الملك الفرنسي هنري الثاني للمساعدة في الحرب ضد الأسبان؛ فقد كان حسن باشا شديدَ العداءِ للفرنسيين، ولّما لم يكن لهم مجالٌ للتقدم بطلب تعيين قنصلٍ لهم، فقد سعَوْا لدى الباب العالي لعزله، حيث تمَّ عزله سنة 958هـ/1551م.[1]

ويرى بعض المؤرخين أنّ مسارعةَ الفرنسيين إلى إقامة قنصليةٍ لهم في الجزائر، كان لعِدَّةِ أسبابٍ؛ فبالإضافة إلى العامل التجاري والاقتصادي الذي أشرنا إليه آنفاً، فإنّ فرنسا ستتمكن من تفادي اعتداءاتِ القراصنة الجزائريين، وستحظى بمكانة خاصة في الحوض الغربي للمتوسط، بعد اعتراف الجزائر بها.[2]

وترجع أولى المحاولاتِ إلى ما بعد التوقيع على معاهدةِ الامتيازات، والتي نصّت في بندها الثالث على حقِّ فرنسا في تعيين قناصلَ لها في الولايات العثمانية؛ فقد قدِم مبعوثٌ فرنسي إلى الجزائر، سنة 958هـ/1551م؛ مباشرةً بعد عزل حسن بن خير الدين. ثم قدِم مبعوثٌ آخر، سنة 961هـ/1553م، ويبدو أنّ زيارة كلَيْهما لم تكلّل بالنجاح.[3]

إلا أنّ أولَ تسميةٍ رسميةٍ لقنصلٍ فرنسي بالجزائر يعود لتاريخ 15سبتمبر 1564م/ 972هـ؛ حينَ اعتمد الملك الفرنسي، شارل التاسع، السيدَ فانسون بيرطول (Vincent Bertholle)،كقنصلٍ عامٍ في الجزائر.[4] ورغم ذلك، فإنّ هذا القنصلَ لم يباشر مهامّه، أو أنه جاء إلى الجزائر و لم يُقبل اعتماده؛ إذ أنّ مراسلة السفير الفرنسي في القسطنطينية، والمؤرخة في

Eugène Plantet: Les correspondances des deys d'Alger avec la cour de France, T1, p2.

[1] – عزيز سامح إلتر: الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، تر: محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1989، ص181.

[2] – عائشة غطاس: العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 1985م، ص13.

[3] –جمال قنان: معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830، دار هومه، الجزائر، 2010م، ص49.

[4] –Eugène Plantet: Les consuls de France à Alger avant la conquête, p8.

15جويلية 1565م/972هـ، تتحدث عن ضرورة وجودِ قنصلٍ في الجزائر يرعى مصالحَ التجار الفرنسيين، ويحدّ من اعتداءاتِ القراصنة الجزائريين على السفن الفرنسية.[1]وتتحدث مراسلة أخرى للسفير دي ليزل(l'abbé de Lisle)، مؤرخة في 12 فيفري 1578م/986هـ، عن تعيين القائد صورون(Sauron) قنصلاً لفرنسا في الجزائر، لكنّ تعيينَه لم يكن مقبولاً لدى حسن فتزيانو كما وضّحنا آنفاً.

ويبدو أنّ إلحاحَ السلطانِ العثماني، قد أدى في النهاية إلى تراجع الجزائريين عن رفضِهم للقنصل الفرنسي، إذ تتحدث الوثائقُ عن تعيين رجلِ الدين المرسيلي بيونو(P.Bionneau)، سنة 989هـ/1581م، وعن إقامته في الجزائر. إلا أنّ هذه الإقامةَ لم تكن مريحةً؛ إذ سرعان مازُجّ به في السجن.[2]وفي سنة 994هـ/1586م، تمّ تعيين السيد دو فيا(M. de Vias)، الذي تعرَّض هو أيضا لكثير من المضايقات أثناء إقامته في الجزائر، إلا أنّ بعهده تبدأُ المراسلات القنصلية الرسمية، خاصة منذ سنة 1005هـ/1597م.[3]

وهكذا نرى بأنّ التمثيلَ الدبلوماسي الفرنسي في الجزائر قد تأخر بسبب عدمِ قَبولِ الجزائريين بالتمثيل الأوربي المسيحي في بلادهم، ورفضِهم للتواجد الأجنبي فوق أراضيهم.

ثالثا: بداية الأطماع الفرنسية في الجزائر

نشر المؤرخُ الفرنسي بربريجير(A. Berbrugger) مقالاً في المجلة الإفريقية بعنوان "الجزائريون يطلبون ملكاً فرنسياً سنة1572م"،[4]والحقيقة أنّ هذا العنوانَ الجذّابَ، قد جعلني أسارع بقراءة هذا المقال، لعليَ أكتشف فيه فصلاً من فصول العلاقاتِ الجزائرية الفرنسية، خلال القرن السادس عشر.

---

[1] –E.Watbled: "Aperçu sur les premiers consulats français dans le levant", in, R.A, A. Jourdan Libraire-éditeur, Alger, V16,1872, p32.

[2] – Eugène Plantet: op.cit, p11.

[3] – يقول دوفو(Devoulx) أنّ الفترة من 1586م-1597م يكتنفها الغموض، ولا يمكن التأكد إن كان دوفيا قد استمر قنصلاً طيلة هذه الفترة أو أنه استُبدل بشخص آخر، إلا أنه ومنذ 1597م يظهر اسم دوفيا على المراسلات القنصلية المحفوظة في أرشيف القنصلية الفرنسية بالجزائر. أنظر:

Albert Devoulx: Les Archives du consulat général de France à Alger, Bastide Libraire-Editeur, Alger, 1865, p4.

[4] –A. Berbrugger: "Les Algériens demandent un roi français en 1572", in, R.A, V5, 1861, p5.

ومحتوى هذا المقالِ المطوّل، يدور حول مراسلةٍ مؤرخةٍ في 11 ماي 1572م/980هـ، بعثها الملكُ الفرنسي شارل التاسع(Charles IX)، إلى سفيره في اسطنبول الأسقف داكس (M. d'Acqs)،[1] يُعْلمُه فيها برغبته في ضمِّ الجزائرِ إلى ممتلكاته، بعد ورود طلباتِ الجزائريين، حسبَ هذه المراسلة، للملك الفرنسي بحمايتهم من التهديد الاسباني المتزايد، بعد معركة ليبانتي(Lepante) سنة 979هـ/1571م، ويوصيه في هذه المراسلة بالسعي الحثيثِ لأخذ موافقةِ الديوان السلطاني لتحقيق هذا المشروع.[2] وكان شارل التاسع يعتقد بأنّ السلطان العثماني سيرضخ للأمر الواقع، وسيقوم بتسليم مملكةِ الجزائر إلى ابنِ أخيه الدوق دانجو (Duc d'Anjou) عِوَضَ تركِها تسقط في أيدي الأسبان.[3]

ويبدو أنّ جهودَ داكس لم تُؤتِ أُكلَها؛ إذ قوبلت الفكرةُ بالرفض من طرف السلطان العثماني. فرغم حرص الدولةِ العثمانية على تحالفها مع فرنسا، وتخوّفِها من انضمامها إلى العصبة المقدسة[4]، إلا أنها لم تُرد أن تفرِّطَ في قاعدتها المتقدمة في الحوض الغربي للمتوسط.

إنّ هذه القضيةَ؛ التي أولاها بعض المؤرخين الفرنسيين اهتماماً[5]، وذهبوا ينسجون من وراء ذلك أحكاماً تتعلق بعلاقة الجزائريين مع الأتراك، ورغبتِهم في التقرب من الفرنسيين، لم أجد لها دليلاً بيّنًا. فبخلاف مراسلاتِ الملك الفرنسي شارل التاسع مع سفيره في اسطنبول، الأسقفِ

---

[1] – اسمه الكامل هو فرانسوا دو نواي(François De Noailles)، التحق بمنصب السفارة في استانبول في 13 مارس 1572م، كان على علاقة جيدة مع السلطان، خاصة بعد نجاحه في عقد السلام بين البندقية والباب العالي، وهذا ما جعله يترشح لاستلام عرش بولونيا. لكنه في المقابل لم يقدّم الكثير لبلده؛ فرنسا، وهذا ما أدى في الأخير إلى عزله في سنة 1574م. ورجع إلى أُسقُفيته حتى وافته المنية في بايون(Bayoune)، سنة 1585م، عن عمر ناهز 66 سنة. أنظر:
Le Comte de Saint-Priest: op.cit, p193.

[2] –E. Charrière: op.cit, T3, p114.

[3] –Pierre Heinrich: op.cit, p129.

[4] – العصبة المقدسة: أو الجمعية المقدسة هو تحالف عقدته، بتاريخ 25ماي 1571م، وبرعاية البابا بيوس الخامس، الدولُ الكاثوليكية الموجودة في البحر الأبيض المتوسط بهدف كسر الأتراك العثمانيين. وكان أول ثمرات هذا التحالف هو هزيمة الدولة العثمانية في معركة ليبانتي في 7أكتوبر 1571م. أنظر : توفيق المدني: المرجع السابق، ص372.

[5] – جدير بالذكر أنّ هناك الكثير من المؤرخين الفرنسيين المهتمين بتاريخ العلاقات بين البلدين لم يتكلموا عن طلب الجزائريين حمايةَ الملك الفرنسي، مثل ماسون ولابريموداي ...وغيرهما. وهذا دليل آخر على عدم ثبوت الأدلة حول الموضوع.

داكس، والتي ضمّنها شاريار في مفاوضاته، لم يزودنا الذين تحدثوا عن الموضوع بوثائقَ تثبت الجانب المهمّ فيه؛ وهو طلب الجزائريين الحمايةَ الفرنسية.

وإذا استعرضنا الأوضاعَ الداخليةَ للجزائر بعد معركة ليبانتي، وعلمنا أنها كانت تتوقع هجومَ العصبة المقدسة، وأنها كانت تموج ببعض القلاقل الداخلية، والتي استطاع عراب أحمد[1] السيطرةَ عليها في غضون أقل من سنتين. علمنا أنّ هؤلاء الطامحين لنقض تبعيتهم لحكم الأتراك، لم يكونوا يفكّرون في أن يدخلوا تحت حكم المسيحيين، وإنما كانوا يرغبون إمّا في الاستقلال، أو في تجديد البيعة للحفصيين؛ مثلما قام به الثائر قاسم بن أم هانئ ووالده محمد بن الأحسن في بايلك الشرق.[2]كما أننا إذا استعرضنا الأعمالَ الكبيرةَ التي أنجزها الباشا عراب أحمد، في الأيام الأولى لحكمه؛ من إجراءٍ للتعديلات البنيوية الكبيرة لمدينة الجزائر، وذلك بغرض تشديد تحصيناتها، وجعلِها مستعدةً لأي هجوم طارئ، نستنتج أنّ مدينةَ الجزائر، على الأقل، كانت تحظى باستقرارٍ نسبي سمح لها بإنجاز كلِّ تلك الأعمال في فترة وجيزةٍ. إضافةً إلى أنّ هايدو؛ المعروفَ بتتبعه لثورات الجزائريين ضد الأتراك، لم يحدثنا عن حدوث اضطرابات، أو انتفاضات، جعلت الحكمَ العثماني في تلك الفترة مهدداً، وإنما وجدناه لم يشر إلى أي ثورة. بل أكثرَ من ذلك، فهو يشيد بإنجازات هذا الباشا.[3]

وإذا أضفنا لكل ذلك، عداءَ الجزائريين الدائم للمسيحيين، سواءً كانوا اسبانيين أو فرنسيين؛ والدليلُ على ذلك رفضُهم للتمثيل الدبلوماسي الفرنسي في الجزائر، رغم إلحاح السلطان العثماني على ذلك، كما تكلمنا عن هذا سابقا، أصبح من المستبعد تصديقُ الرواية التي تتحدث عن استغاثتهم بالملك الفرنسي. وفي هذا الصدد يقول مبارك الميلي في تاريخه معلقاً على الموضوع:

---

[1] – عراب أحمد: أحد حكام الجزائر القلائل من أصول عربية؛ حيث يعود أصله إلى الإسكندرية. تولّى في ذي الحجة979هـ/ 1572م، بعد ترقية سلفه العلج علي إلى قيادة الأسطول العثماني، عقب معركة ليبانتي. اشتغل خلال فترة حكمه بتحصين مدينة الجزائر وإخماد الثورات، والاحتياط لهجوم السعديين، وكذلك المساهمة في تحرير تونس وحلق الوادي، سنة 1574م. اغتيل، في قبرص، من طرف زملائه الانكشاريين سنة 1578م. وخلفه على حكم الجزائر، سنة 1574م، رمضان باشا. أنظر:

حسين بن المفتي: تاريخ بشوات الجزائر وعلمائها، تح: فارس كعوان، بيت الحكمة، الجزائر،2008، ص42.

وأنظر أيضاً: عمار بن خروف: المرجع السابق، ص109./ .Haedo: op.cit, p145

[2] – عبد الكريم الفكون: منشور الهداية، تح: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1408هـ/ 1987م، ص118.

[3] –Haedo: op.cit, p155.

"...لكنّ سياق الحوادث التي جرت في ذلك العهد وتسلسلَها، وما اشتهر به الجزائريون من تعلقٍ بالاستقلال، وقوةِ عاطفتِهم الدينية، تنفي أن يكون الجزائريون قد طلبوا من تلقاء أنفسِهم تعيينَ ملكٍ فرنسي."[1]

من كل ذلك نستنتج أنّ المطامع الفرنسية في الاستيلاءِ على الجزائر، لم تكن وليدةَ القرن التاسع عشر، وإنما تعود، على الأقل، إلى عهد شارل التاسع الذي لم يَجِد غضاضةً في استغلال الظروف الدولية الطارئة، بعد معركة ليبانتي، ليُفصحَ عن نيته في ضم الجزائر إلى ممتلكاته سنة 980هـ/1572م، بداعي حمايتِها من الخطر الاسباني؛ الذي لا يملك حتى دفعَه عن نفسه، وتعويلُه على انتفاضِ الجزائريين ضدّ الحكم التركي، بعد ادعائه بوصول طلباتِ هؤلاء للدخول تحت عرشه.

ومن كلّ ما تقدم يمكننا القولُ، أنّ وكالةَ الباستيون قد أسّست، سنة968هـ/1561م، على الساحل الشرقي للجزائر، وأنّ نشاطها قد توسّع من صيد المرجان والاتجار به، إلى تجارة الحبوب، والصوف والجلود، وغيرها...، كما أنها شهدت توسعاً جغرافياً من خلال استغلال مراكز تجارية أخرى، في شرق الجزائر، مثل القالة وعنابة والقل، كانت كلها تابعةً لوكالة الباستيون.

كما أنّ العلاقاتِ الجزائرية الفرنسية، خلال القرن السادس عشر، كانت في عمومها هادئةً، وإن لم تصل إلى درجة الوئام، رغمَ التحالفِ العثماني الفرنسي، وذلك بسبب توجّسِ الجزائريين الدائم من المسيحيين. كما أنّ الفرنسيين لم يجدوا غضاضةً في استغلال الظروف الدولية الطارئة، لتوسيع نفوذِهم في الجزائر، وزيادةِ امتيازاتهم فيها.

---

[1] – مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، 3 أجزاء، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964، ج3، ص110.

الفصل الثاني

أوضاع وكالة الباستيون وانعكاساتها على العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال الربع الأول من القرن السابع عشر (1604-1628م)

- **المبحث الأول:** أوضاع وكالة الباستيون خلال الربع الأول من القرن السابع عشر.

- **المبحث الثاني:** العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال الربع الأول من القرن السابع عشر.

- **المبحث الثالث:** انعكاسات أوضاع وكالة الباستيون على العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال الربع الأول من القرن السابع عشر.

الفصل الثاني

أوضاع وكالة الباستيون وانعكاساتها على العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال الربع الأول من القرن السابع عشر (1604–1628م)

لقد كانت العلاقاتُ الجزائرية الفرنسية سلميةً، خلال أغلب فترات القرن السادس عشر. لكن مع بداية القرن السابع عشر، فإننا نجد أنّ العلاقاتِ بين الطرفين قد نَحَتْ منحىً آخرَ، بسبب تغيُّرِ الوضع في الجزائر، وفي فرنسا.

فالجزائر أصبحت تمتلك قوةً بحريةً ضاربةً، تدخلُ بها الرعبَ في نفوس الأوربيين، وتهدد بواسطتها المصالحَ الاقتصاديةَ للدول الأوربية في الحوض الغربي للمتوسط، وفي المحيط الأطلنطي. ورغم اعتبار أغلبِ الأوربيين؛ بأنّ الجزائر تمثل اليدَ القويةَ للدولة العثمانية الممتدةَ في غرب المتوسط، إلا أنّ اسطنبول لم تعد تعتقد تماماً بصحة النظرةِ الأوروبية؛ إذ كانت تشعر، في أغلبِ الأحيان، أنّ الجزائرَ مقاطعةٌ متمردةٌ تسعى إلى الاستقلال عن السلطنة، بعد أن أصبحت تجاهرُ برفضها للأوامر السلطانيةِ، خاصةً فيما يتعلق بالعلاقاتِ مع الحليفِ الفرنسي.

أما فرنسا فقد عرفت، هي الأخرى، فترةً من الاستقرار والازدهار بفضل سياسات الملك هنري الرابع؛ الذي نجح في إخماد الصراع الديني ولو إلى حين. وقد أدّى هذا الاستقرار النسبي في الجبهة الداخلية إلى الالتفات نحو السياسة الخارجية، خاصةً في مواجهة غزاةِ البحر الجزائريين.

وقد أدت هذه الأوضاعُ بالعلاقات إلى الجنوح نحو الصدّام، وانعكس ذلك على نشاط وكالة الباستيون.

فستشهد هذه الوكالة؛ التي عرفت نمواً مطّرداً منذ تأسيسها، تدهوراً في نشاطها، منذ بداية القرن السابع عشر، بسبب تعرضها للهدم من قبل الجزائريين، المُتَحَجِّجين بأسبابٍ سنعرض تفاصيلها لاحقاً. وسيحاول الفرنسيون إعادةَ بنائها، سالكين، في سبيل ذلك، طريقَ التهديد حيناً والطرقَ الدبلوماسية أحياناً كثيرةً، إلا أنهم سيفشلون في تحقيق ذلك خلال الفترة موضوعِ البحث.

سنتعرض في هذا الفصل لأوضاع وكالة الباستيون خلالَ الربع الأول من القرن السابع عشر، وسنتكلم عن انعكاسات هذه الأوضاع على العلاقات بين البلدين.

المبحث الأول

أوضاع وكالة الباستيون خلال الربع الأول من القرن السابع عشر

1- تهديم الباستيون سنة 1604م.

تكلمنا في الفصل السابق عن تطورِ وكالة الباستيون وتوسعِ نشاطها، في نهاية القرن السادس عشر وحتى بداية القرن السابع عشر، وقلنا أنّ نشاطَها بدأ يتوسع من صيد المرجان إلى تجارةِ الحبوب، وأنّ هذا النشاطَ الأخيرَ؛ الغيرَ مرخّصٍ به في نصوص الاتفاقيات والمعاهدات في تلك الفترة، لم يكن يلقى معارضةً رسميةً من قِبَل المسئولين الجزائريين؛ الذين كانوا يغضّون الطرْفَ عنه، مادام يدرُّ عوائدَ إضافيةً في خزينة الجزائر، وما لم تكن كمياتُ الحبوب معتبرةً. لكنّ الجزائريين عمدوا إلى تهديم الباستيون سنة1012هـ/1604م، بداعي انتهاكِ هذه الوكالة لبنود الاتفاقيات بتصديرها لكمياتٍ معتبرةٍ من الحبوب نحو فرنسا. فلماذا وقع هذا التحول؟

تذكر المصادر،[1] أنّ منطقةَ قسنطينة قد شهدت، بين سنتي 1010-1011هـ/1602-1603م، انتشارَ وباء الطاعون، أعقبه سنواتٌ من الجفاف، مما تسبب في مجاعة عمّت المنطقة،[2] وعندما رأى الأهالي أنّ تجارَ الباستيون يصدّرون الحبوبَ التي كان من المفروض أن تطعمَهم حدث هيجانٌ كبيرٌ، فقامت سفن الرايس مراد[3] بمهاجمة الحصن، سنة1012هـ/1604م، فدمّرته وأخْلَت مَن كان فيه.[4]

---

(1) -Brèves F. Savary: Relation des Voyages de Monsieur De Brèves, Chez Nicolas Gasse, Paris, 1628, p377.

(2) -M. E. Vayssettes: "Histoire de Constantine sous La Domination Turque de 1517 à 1837", in, R. N. M. S. A. C, L. Anolet Libraire-éditeur, Constantine, 1867, V11, p329.

(3) - مراد رايس: من أعظم رياس الجزائر، كان هايدو؛ الذي أسره الرايس مراد، يسميه مراد الكبير تمييزاً له عن الريّاس الآخرين الذين يسمَّوْن مراد. وهو من أصل ألباني، أو تركي، اشتغل في الغزو البحري أكثر من ستين سنة، كانت سفنه لا تعود خائبة من أي معركة أو عملية غزو، وبلغ أوج قوته حين اكتسح جنوده جزر الكناري، بالمحيط الأطلسي، سنة 1586م، وأسروا منها حوالي 300شخص، مع غنائم كثيرة. وهذا ما أكسبه نفوذاً قوياً في ديوان الجزائر، إذ كثيراً ما كانت آراؤه مؤثرة في سياسات الجزائر. استدعي بعد ذلك للعمل في الأسطول العثماني، حيث أسندت له قيادة الأسطول العثماني في عدة معارك، منها موقعة "قارة جهنم" ضد فرسان مالطا، سنة1608م، والتي أبلى فيها بلاءً حسنا، وتوفي بعدها متأثرا بجروحه. أنظر: المنور مروش: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، ج2، ص ص 252-261.

(4) - جون وولف: الجزائر و أوربا 1500-1830، تر: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص247.

وإن كان ماسون قد أشارَ إلى عدمِ التزامِ شركة لينش بتعهداتها للجزائر بدفع اللّزمة المفروضة في مقابل استغلال الباستيون،[1] إلا أنّ الروايةَ الفرنسيةَ تتحدث عن تزايدِ اعتداءات القراصنة الجزائريين على السفن الفرنسية منذ أواخر القرن السادس عشر؛ فقد بلغ عدد الأسرى الفرنسيين في الجزائر، سنة 1010هـ/1602م، حوالي 3000 أسير، بينما تكبّد الاقتصاد الفرنسي، في تلك الفترة، خسائرَ مادية، بلغت حوالي 1.500.000 أوقية.[2] ولما احتجّت فرنسا على هذه الأعمال، قام الجزائريون بتهديم الباستيون، وأسرِ مَنْ فيه مِنَ الفرنسيين.

وقد تذرّع الجزائريون باستهدافهم للسفن الفرنسيةِ، هو ترخيصُ الفرنسيين لمختلف السفن الأوربية برفع رايتِهم، لكي تحمِيَهم من اعتداءات القراصنة الجزائريين، فرأى الجزائريون في هذا الإجراء تضييقاً لنشاطهم وحرماناً لهم من عوائدَ مهمّةٍ.[3] ويبدو أنّ السلطان العثماني لم يُفلح في لَجْم القراصنة الجزائريين؛ الذين ما فتئوا يتقوَّوْن يوماً بعد آخر بفضلِ تطور بحريتهم، وازديادِ عوائدِ الغنائمِ التي كانوا يجنونها من خلال استهدافِهم للسفن المسيحية، فكان هذا التطورُ مثارَ قلقٍ لديه. وقد زاد السفير الفرنسي في هذا القلق؛ حين أوعز إلى السلطان بأنّ غرضَ حكام الجزائر هو الاستقلال عن السلطنة؛ ودليله على ذلك هو العصيانُ الدائمُ الذي تُقابل به أوامره إليهم، خاصةً فيما يتعلق باحترام معاهداتِ "عَظَمتِه" مع الفرنسيين الذين يعاملون دائماً معاملةً سيئة.[4]

وقد حاول السلطانُ استدراكَ الأمرِ؛ حيث قام بإجراء ترتيباتٍ إداريةٍ؛ تمثّلت خاصةً في عزل الباشوات الذين لم ينجحوا في إرغام جناحَيْ السلطة في الجزائر؛ طائفةِ الريّاس والأوجاق، على تنفيذ أوامره. فقد قام السلطان أحمد الأول بعزل سليمان باشا وتعويضه بخيدر باشا، صاحبِ الخبرةِ في حكم الجزائر. لكنّ هذا الأخير لم يكن أفضلَ من سَلفِه؛ إذ أصبح يشارك أصحابَ السلطة في الجزائر أعمالهَم العدائيةَ ضدّ الفرنسيين، بل وأوعز إلى الرايس مراد بتهديم

---

(1) –Paul Masson: Les compagnies du corail, p103.

(2) –Paul Masson: Histoire de Commerce Français dans le Levant au XVII^{e} Siècle, Libraire Hachette et C^{ie}, Paris, 1896, Introd, p xxiv.

(3) –F.Elie de La Primaudaie: "Le Commerce et la Navigation de l'Algérie", p448.

(4) –Paul Masson: op.cit, Introd, p xxiv.

الباستيون.[1] فما كان من السلطان إلا أن عزله واستبدله بمحمد كوسا. وهذا الأخيرُ؛ الذي نجح في إعدام خيدر وتأميمِ أملاكِه، حاول بدوره تنفيذَ أوامرِ السلطان باحترام الفرنسيين وتعويضِهم عن خسائرهم السابقة، بل وعمِل على إعادة بناء الباستيون كما كان من قبل. لكنّه لم يستطع أن يقدم أيّ شيءٍ للمبعوث الفرنسي دو كاستيل (M. de Castellane)؛ الذي قدِم لغرض تحرير أسرى الباستيون وإعادةِ ترميمه.[2]

إثرَ ذلك قام السلطان بإيفاد مبعوثه القابجي باشي[3] مصطفى الآغا، رفقةَ السفير الفرنسي دو بريف (De Brèves)، إلى أعضاء ديوان الجزائر، سنة 1014هـ/1606م، لغرض إقناعهم بتعويضِ الفرنسيين، وإطلاقِ سراح الأسرى وإعادةِ تشييد الباستيون.[4] لكنّ هؤلاء ازداد تشددهم، فطردوا القابجي مصطفى والسفيرَ دوبريف، بعد أن اشترطوا عليه إطلاقَ سراح الجزائريين المأسورين في مرسيليا، مقابلَ إطلاقِ الأسرى الفرنسيين.[5]كما أنّهم هددوا بالقتل كلَّ من يخرج عن إجماعهم برفض الفرمان السلطاني.[6]

ورغم حصول السفير دوبريف على تجديد معاهدة الامتيازات سنة 1012هـ/1604م ؛ والتي نصَّت، لأول مرة وبشكل صريح، على المراكزِ الفرنسية في شرق الجزائر،[7] إلا أنّ محاولاتِ الفرنسيين للعودة إلى الباستيون باءت بالفشل، بعدما عجز السلطان عن فرض إرادته

---

(1) – يذكر مولود قايد أنّ فرحات باي قسنطينة هو الذي قام بمهاجمة الباستيون. أنظر:
Mouloud Gaid: Chronique des Beys de Constantine, p15.

(2) –H.-D. Grammont: Histoire d'Alger sous la domination turque, p146.

(3) – القابجي: لفظ فارسي تركي معناه بواب، أطلقه العثمانيون على المكلَّف بحراسة بوابات القصور السلطانية، والديوان الحكومي، وينتمي إلى طائفة عسكرية تعرف بالقابجية، وقد غلب على وظيفة القابجي الحجابة، وكان يقوم بحمل الرسائل عبر المكاتب الحكومية. أما كبير القابجية فكان يلقب بقابجي باشي، وهو الرسول المخصوص الذي يحمل الرسائل فوق العادية إلى الولايات. أنظر:
مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم الألقاب والمصطلحات التاريخية، ص343.

(4) –Pierre Heinrich: L'Alliance Franco-Algérienne au XVI^{e} siècle, p190.

(5) –Brèves F. Savary: op.cit, p377.

(6) – عزيز سامح إلتر: الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، ص319.

(7) –Pierre Heinrich: op.cit, p189.

على الجزائريين، وظَلَّ الباستيون أطلالاً حتى قدوم حملة البارون دالمان (Le Baron d'Almagne) سنة 1618م/ 1026هـ.

2- إعادة تهديمه سنة 1618م.

رغم فشل المحاولات الفرنسية لإعادة بناء الباستيون في بداية القرن، إلا أنّ الفرنسيين لم يتراجعوا عن رغبتهم الملحّة في تحقيق هذا الهدف، ولو أدّى ذلك إلى استخدامِ القوة. ورغم ظهور بعض المستجدات التي زادت في توتُّرِ العلاقة بين البلدين؛ مثل حادثةِ مدفعَيْ دانسا، إلا أنّ المفاوضاتِ استمرت في اسطنبول من سنة 1012هـ/1604م إلى سنة 1017هـ /1609م، ثم ابتدأت في الجزائر سنة 1025هـ/1617م.[1] وفي تلك الأثناء كانت هناك بعضُ المحاولاتِ الغيرِ رسمية للهجوم على الباستيون واستعادته.

وتذكر المصادر، أنّ الملكَ الفرنسي هنري الرابع كان قد أهدى وكالةَ الباستيون إلى الدوق دوكيز[2]، وجدّد له لويس الثالث عشر هذا الامتياز.[3] وبعد أن رأى دوكيز تعثّرَ المفاوضات مع الجزائريين، فكّرَ في استعادةِ امتيازاته بالقوة، رغمَ معارضةِ البلاط الفرنسي. فقام بتجهيز حملة تحت قيادة البارون دالمان (Baron d'Almagne)، سنة 1026هـ/1618م؛ حيث نجح في الرسوِّ قربَ الباستيون، وبدأ في أشغال الترميم. ولّما بلغ الخبرُ أعضاءَ الديوان، قاموا بقطع مفاوضاتِ السلام مع الفرنسيين، وأمروا حاميةَ عنابه بمهاجمة الحصن

---

(1) –Paul Masson: Marseille et la Colonisation Française, Barlatier Imprimeur-Editeur, Marseille, 1906, p121.

(2) – الدوق دوكيز(Le Duc de Guise): هو شارل لورين (Charles de Lorraine)، أمير جوانفيل (Joinville)، أحد نبلاء فرنسا، حاكم و قائد عام للملك على البروفانس(Provence)، قبطان بحرية الشرق، والقائد العام للقوات المسلحة؛ كان ممثلا للملك الفرنسي في المفاوضات والمعاهدات التي عقدت مع الجزائريين في بداية القرن السابع عشر، تميزت فترته بتوتر العلاقات مع الجزائر. أنظر:

A. Jal: Dictionnaire critique de biographie et d'histoire, Henri Plan Imprimeur Editeur, Paris, 1867, p666.

(3) –M.Antoine De Ruffi : Histoire de la ville de Marseille, Henri Martel Imprimeur-Libraire, Marseille, 1696, p472.

وتدميره؛[1] حيث قتلت العديدَ من جنود وعمالِ الحملة، وأسرت القائدَ دالمان مع مائة شخص، أرسلوا كلُّهم إلى مدينة الجزائر.[2]

ورغم توصّل الطرفين إلى عقد معاهدة سلم وتجارة سنة 1028هـ/1619م، إلا أنه سرعانَ من انهارت بسبب مقتلَ البعثة الجزائرية في مرسيليا، سنة 1028هـ/1620م. وبعد كلِّ هذه الأحداث أصبحَ من المستبعد إعادةُ ترميم الباستيون، في ظِلِّ التوتّر الشديدِ الذي شاب العلاقاتِ بينَ البلدين، ولن يتمكن الفرنسيون من العودة إليه إلا بعد سنة 1037هـ/1628م، حينَ قدومِ سانسون نابلون(Sanson Napollon).[3]

3- أنشطة الباستيون.

بعد تحطيم الباستيون، سنة 1012هـ/1604م، أصدر الدوق دوكيز قراراً يقضي بمنع التجارة مع بلاد المغرب في 7 ديسمبر 1607م/1015هـ.[4] ورغم القطيعةِ المعلنِ عنها إلا أنّ الحركةَ التجارية بقيت مستمرةً بين البلدين، وإن لم تكن جدُّ نشيطة، والدليلُ على ذلك هو استمرارُ مسؤولي الشركة بمرسيليا في قبضِ ضريبة الدخول على السفن القادمة من الباستيون وملحقاتها، إلى أن أمرَ هنري الرابع بإلغائها.[5]

كما أنّ شركةَ لينش قد أوفدت بعثةً تضمّ تجاراً وصيّادين، برئاسة السيد دو مواساك(De Moissac)، ويبدو من خلال أعضائِها أنها لم تأتِ بغرض التفاوض حول قضية الباستيون فقط؛ إذ يتبيّن من خلال البرقية التي بعثها الديوان إلى السلطات المحلية في عنابه لتسهيل مهمة البعثة، سنة 1015هـ/1607م، أنّ حكام الجزائر قد أعطوا تعليماتٍ بالسماحِ

---

(1) –Paul Masson: Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique barbaresque, p22.

(2) –Paul Masson : Marseille et la Colonisation Française, p121.

(3) – هوالقائد الكورسيكي جويديسيلي(Giudicelli)، المعروف بسانسون نابلون (Sanson Napollon). (1580-1633) قدم إلى الجزائر في 26 جوان 1626م، كمبعوث شخصي للملك الفرنسي وكممثل للدوق دو كيز أيضاً، ويبدو أنه كان مفاوضاً ناجحاً؛ من خلال تمكنه من عقد صلح مع الجزائر في سنة 1628م. أنظر:
عزيز سامح إلتر: المرجع السابق، ص335.

(4) – عائشة غطاس: العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر، ص166.

(5) –Paul Masson: Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique barbaresque, p21.

لهؤلاء بالنشاط في أي مكان يرونه مناسباً.[1] فهل كانت هذه البرقية إيذاناً باستئناف وكالة الباستيون التابعة لشركة لينش لأنشطتها؟

إنّ الوثائق التي بين أيدينا لا تؤكّد ذلك؛ بدليل أنّ هناك بعثةً ثانيةً ترأسها كلود سينيس (Claude Sénés)[2]قامت بزيارة مماثلة إلى الجزائر، سنة 1017هـ/1609م، واتفقت مع حكام الجزائر على العودة إلى الباستيون، إلا أنّ تفجرَ الأوضاع بسبب أزمة مدفعي دانسا قد نسف هذا الاتفاق.[3]

وفيما يلي جدولٌ[4] يتضمن إحصاءً للسفن التجارية القادمة إلى ميناء مرسيليا من بلاد المغرب بين سنتي 1020-1023هـ/1612-1615م:

السنة	مجموع الرحلات	الجزائر	تونس	المغرب
1612	12	8	2	1
1613	13	8	1	5
1614	10	1	1	8
1615	03	2	1	0

بعد تفحصنا لمعطيات الجدول، نستنتج أنّ الحركةَ التجاريةَ كانت متواصلةً بين ميناء مرسيليا والموانئ الجزائرية؛ إذ رغم تهديم الباستيون، فقد ظَلَّت السفنُ التجاريةُ القادمةُ من الجزائر، تفوق مثيلاتها الوافدة من تونس أو المغرب. والمعروف أنّ النشاطَ التجاري الفرنسي في تلك الفترة كان منحصراً في موانئ بايلك الشرق، وأنّ شركة لينش؛ المالكةَ للباستيون، كانت هي المحتكرةُ للتجارة مع الجزائر.

---

[1] –Paul Masson: Les compagnies du corail, p105.

[2] – يقول ماسون أنّ شركة سينيس اشترت حقوق الباستيون من شركة لينش، حسب الاتفاق الذي تم بينهما في مدينة بوردو (Bordeaux)، بتاريخ 22 نوفمبر 1608م.

[3] – Ibid, p107.

[4] – عائشة غطاس: المرجع السابق، ص167.

ويبدو أنّ بعضَ ملحقاتِ الباستيون؛ والتي لم تتعرض للتهديم، كانت تشهد حركةً تجاريةً من حين لآخر، فيحدثنا دو بريف، أثناءَ رحلته من اسطنبول إلى الجزائر، سنة 1014هـ/ 1606م، عن مشاهداته لمرسى الخزر؛ أو القالة، ويصفه بأنه لازال قائما، و أنّ سفنَ الشحن الفرنسية كانت لا تزال راسيةً فيه.[1] ويذكر فيرو، أنّ المرسيليين أوفدوا، في 10 ماي 1617م/1025هـ، سفينةً لشحن حوالي 42حصاناً، من ميناء سطورة، رغم تهديداتِ الباشا بحجز السفينة وأسرِ طاقمها. ولما علم هؤلاء بأخذِ الانجليز لميناء القل، سنة 1025هـ /1617م، احتج السفير الفرنسي دوفيا على أحقيّةِ الفرنسيين بالميناء المذكور، لأنه ضمنَ المعاهداتِ السابقة، فأجابه الجزائريون بأنّ ذلك لا يعدوا إلا أن يكون كراءً محدودَ الأجل للانجليز.[2]

وبعد تتبعنا لنشاط هذه الوكالة، وملحقاتِها، خلال الفترة موضوع الدرس، وجدنا أنّ الوثائقَ والمصادرَ، التي بين أيدينا، قد صمتت عن ذكر أيِّ نشاطٍ بعد سنة 1026هـ/1618م، والسبب يرجع، في غالبِ الظنّ، إلى القرار المَلَكي الفرنسي الصادرِ بتاريخ 2 ماي 1026هـ/1618م، والذي يُحرّم التجارةَ مع بلاد المغرب، خاصّةً الجزائر.[3] وقد صدر هذا القرارُ بعد المصيرِ الأليمِ الذي لاقته حملةُ البارون دالمان لاستعادة الباستيون.

وهكذا نرى بأنّ الحركةَ التجاريةَ بين الموانئ الفرنسية وملحقاتِ الباستيون، خلال الفترة موضوع الدرس، كانت تشهد بين الفينة والأخرى نشاطاً، وإن لم يكن معتبراً و لم يبلغ المستوى الذي كان عليه، قبلَ تهديم الباستيون، سنة 1012هـ/1604م.

---

(1) –Brèves F. Savary: op.cit, p354.

(2) –Féraud: La calle, p101.

(3) –H.-D.De Grammont: Relations entre la France et la régence d'Alger en XVII siècle, Adolf Jourdan librairie éditeur, Alger, 1879, p17.

المبحث الثاني

العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال الربع الأول من القرن السابع عشر

1- أوضاع الجزائر خلال الربع الأول من القرن السابع عشر.

شهدت الجزائر أواخرَ القرن السادس عشر تغيُّراً في نظام الحكم من البيلربايات إلى نظام الباشوات، وقد عمدَ السلاطينُ العثمانيون إلى استبدال نظامِ البيلربايات بنظام الباشوات لعدة أسبابٍ؛ لعلّ أهمَّها هو الصراعُ الذي كان قائماً بين طبقة الريّاس وجنودِ الانكشارية منذُ نشأةِ الدولةِ الجزائرية؛ فقد ظلّت الانكشاريةُ طوالَ حكم البيلربايات تثير تخوفاتِ وشكوكَ البابِ العالي فيهم. هذه التخوفاتُ جعلت من رجال الدولة العثمانية يرَوْن أنّ جمعَ السلطة في الولايات الثلاثِ؛ الجزائر وتونس وطرابلس، تحت حكم رجلٍ واحد قد يشكل خطراً على الإمبراطورية العثمانية، لذلك تقرر تقسيم الحكم بفصل هذه الولايات عن بعضها البعض، وإسنادِ إدارةِ كلِّ ولايةٍ إلى باشا يعين لمدة ثلاث سنواتٍ؛ لإحكام الدولة العثمانية سيطرتَها على البلاد، ومنعِ حدوثِ التمرد ضدها، خاصةً وأنّ الشُّقَّةَ كانت بعيدةً بين القسطنطينية والجزائر.[1]

أولا: سياسة الباشوات

كان الباشا موظّفاً ترسله اسطنبول لمدة ثلاث سنوات، يتولى خلالها حكمَ البلاد دون أن يكون له سند محلي بين القوى التي تسيطر على البلاد، ويكونُ الباشا في الجزائر وكيلاً للسلطان، ويكونُ له مطلق التصرف؛ لبعدِ الولاية عن العاصمة اسطنبول.

وكانت الأحداث في إيالة الجزائر تفيد بسطوة الجنود ورجالِ البحرية على السلطة فيها، على حساب سلطة الباشا؛ فقد بدأ ديوانُ الأوجاق[2] يتقوى ويوسّع من نفوذِه وسيطرتِه خلالَ هذا العهد، وعمِلَ، بالتدرّجِ، على التخلّصِ من الهيمنة العثمانية. إلا أنّ طبيعةَ علاقاتِ السلطة في داخل الولاية، مع إمساك السلطنة العثمانية بسلطة إصدار الفرامانات، قد ضمنا تحقيقَ

---

[1] – عمار بن خروف: العلاقات بين الجزائر والمغرب(923-1069هـ/1517-1659م)، رسالة ماجستير في التاريخ، قسم التاريخ، جامعة دمشق، 1403هـ/1983م، ص56.

[2] – ديوان الأوجاق: المجلس الأعلى للجند، ويتألف من عدد كبير من الشخصيات العسكرية والمدنية والدينية، وكان لطبقة الرياس نفوذ كبير داخله. أنظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب: المرجع السابق، ص343.

الأهداف العثمانية في الحكم؛ مِن حيثُ الخُطبةُ باسم السلطان، وتحصيلُ الأموال سنوياً، والمساهمةُ في حروب الدولة، والقَبولُ بالباشا القادم من اسطنبول ممثلاً أعلى للسلطان في حكم الإيالة، وهي جميعها من رموزِ السيادة العثمانية الرسميةِ.[1]

وقد شعر هؤلاء الباشاوات أنهم ليسوا في حاجة إلى ولاءِ الشعب ما دامت مدة ولايتهم محدودةً، فأصبح همُّ الواحد منهم هو جمعُ أكبرِ قدرٍ ممكن من الأموال طوالَ فترةِ حكمه. وكانوا يقومون بشراء هذا المنصب من الباب العالي، فيلجئون للحصول عليه إلى دفع الرشوة أو الهدايا، لأنّ هذا المنصبَ كان يُدِرُّ عليهم أموالاً كبيرةً. وما دام الحصول على الثروة هو الهدفُ الأساسي للباشاوات، فقد أصبحت قضيةُ الحكم مسألةً ثانويةً لا تهمّهم.[2] وكان لهذه السياسة التي يسلكونها في حكمِ البلاد أن أثارت عليهم سَخطَ العلماء حيث كانوا يحذّرونهم من أخطار وعواقب هذه السياسة؛ فنصحوهم بالعدل والالتفات إلى مصالح الرعية والقيامِ بها.[3] ذلك أنّ هذا النظامَ قد أثار القلاقلَ، وتمردات القبائل نتيجةَ إرهاقِهم بالضرائب، والتكاليفِ التي لا تطاق، وهكذا تفاقمت الاضطراباتُ والصراعاتُ على الحكم.[4]

ثانيا: أهمّ الباشوات

أهمُّ من تولى إيالة الجزائر في هذه الفترة، هم:

أ- ولاية كوسة مصطفى:

تولى كوسة مصطفى القابجي باشوية الجزائر في شهر ذي الحجة سنة 1013هـ/ أفريل 1605م، وسعى بكل مجهوداته في تطبيق نصّ معاهدة الامتيازات السالفةِ الذكرِ. فعارضه الديوانُ بسبب ما ظهر على حكومة فرنسا، يومئذٍ، من التهاونِ بالشروط التي هي في مصلحةِ الجزائر، وأخيراً رضخ الديوانُ لرأي الباشا الجديد؛ امتثالاً لأمر السلطان، وقبلَ تنفيذَه المعاهدة وتطبيقَها؛ على أن يكونَ الاعترافُ بها، ودخولُها في حيّز التنفيذ؛ بعد أن لا يبقىأحدٌ من

---

(1) -H.-D.De Grammont: Histoire d'Alger sous la domination turque, p125.

(2) – عمار بن خروف: المرجع السابق، ص56.

(3) – صباح بعارسية: حركة التصوف بالجزائر خلال القرن 10هـ/16م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2006/2005م، ص169.

(4) – مبارك الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، ص139.

الأسرى الجزائريين تحت تصرّفِ الفرنسيين.[1] وحدث في السنة التالية؛ 1014هـ/1606م ، أن حارب الأسبانُ أهالي عمالةِ وهران، فاستنجد هؤلاء بباشا الجزائر، فأنجدَهم بحامية من الجيش الانكشاري، لكنّها أخفقت وضاع من الجيش نحو الثلاثةِ أرباعٍ، إلا أنّ الباشا نجح في إخضاع مَن هناك مِن القبائل المتمردة، أو المتعاونة مع الأسبان.[2]

ب- ولاية رضوان باشا:

كنيته أبو نعيم رضوان بن عبد الله؛ وهو من مماليك رمضان باشا، تقلّد منصبَه هذا بالجزائر في شهر صفر سنة1016هـ/ماي1607م. وأشهر الأحداث في أيامه غزوة التوسكان[3] وحملتُهم على مدينة عنابة، في 3 جويلية 1607م/1016هـ، انتقاماً لما قام به الأتراك من قبلُ في ليفورن، ومستغلين مع ذلك توترَ العلاقات بين فرنسا والجزائر. فنزل هؤلاء التوسكان بميناء عنابه فنهبوها، وسلبوا أرزاقَها، واحتلوا المدينة أيضاً فغنموا ما بها من مغانم كثيرة، وأسروا منها 1500 شخص ثم أدبروا عنها. وفي هذه الواقعة كان مصرع باي قسنطينة محمد بن فرحات، الذي جاءها منجدا.[4] كما أنّ الانجليزَ حاولوا، إنشاءَ مراكزَ تجاريةٍ في القالة وسطورة، أُسوةً بالمراكز التجارية الفرنسية؛ إذ حصلوا على الموافقة سنة 1016هـ/1607م، لكنّهم لم يستطيعوا استمالةَ الأهالي لصفّهم بغيةَ صرفهم عن التعامل مع المراكز الفرنسية.[5]

كما شهدت سنة 1018هـ/1609م طردَ من بقي من الأندلسيين الموريسكيين في اسبانيا، وقد تحمّلت الجزائر، كغيرها من بلدان شمال إفريقيا، عبأَ إيواء هؤلاء، فانساحوا في البلاد يستصلحون أراضيها، ويعمرون مدنها وقراها، فتوسع عمرانُ مدنِ الجزائر ودلس وتنس

---

[1] -H.-D.De Grammont: op.cit, p147.

[2] – عزيز سامح إلتر: المرجع السابق، ص320.

[3] – جدير بالذكر أنّ العلاقات التجارية بين الجزائر وتوسكانيا كانت، في عمومها، جيدة، وأن حركة السفن بين ميناء ليفورن وموانئ الجزائر قد عرفت ازدهارا في الفترة من 1607-1620م. أنظر:

إبراهيم سعيود: "بعض جوانب العلاقات بين الجزائر وتوسكانيا خلال العهد العثماني"، في دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر، ع12، 2009، ص300.

[4] – ليلى الصباغ: "عنابه بين اسمها وموقعها وعلاقاتها مع العالم المتوسطي حتى الاحتلال الفرنسي"، في الأصالة، ع35/34، 1396هـ/1976م، ص851.

[5] – عزيز سامح إلتر: المرجع السابق، ص321.

وقسنطينة، وغيرها.[1] كما أنّ انغماسَهم في نشاط الغزو، قد ساهم في تطوّر البحرية الجزائرية؛ إذ توسع نشاطُها ليتعدى أطرافَ المتوسط، ليصل إلى المحيط الأطلنطي وبحرِ الشمال[2]، وأضحت بذلك تمدّدُ الطرقَ المؤدية إلى الهند وأمريكا.[3]

لم يكن هذا التوسّعُ في نشاط البحرية الجزائرية ليمرّ دون أن يتركَ انعكاساتٍ في العلاقاتِ الدولية؛ فقد انضمت دول شمال أوروبا؛ انجلترا، هولندا، والدانمارك، إلى صفّ الدول الأوربية المتوسطية، في حربها ضد الجزائر؛ إذ قاد الأميرال الانجليزي روبير مانسيل(Mansal)، مدعوماً من الأسطول الاسباني، حملةً انجليزيةً وصلت أمام مدينة الجزائر، في شهر نوفمبر 1028هـ/1620م ، لكنّها لم تلحق كبيرَ أذىً بالمدينة، بعد مراوغة من الريّاس الجزائريين.[4]

كما أنّ الهولنديين قد جهّزوا حملةً على مدينة الجزائر، قادها الأميرال لامبير فرهور(Lambert Verhoer) سنة 1030هـ/1622م.[5]

ج- ولاية كوسة مصطفى "ثانيا":

عاد إلى حكم الجزائر، للمرة الثانية، في جمادي الثانية 1019هـ /أوت1610م. وفي سنة 1020هـ/1611م، ظهر الوباءُ بالجزائر ففتك بعددٍ وافرٍ من الأنفس، وقد أدّت تلك الأمراض إلى تناقص سكان مدينة الجزائر؛ حيث لم يتجاوزْ عددُهم، في تلك الفترة، 186000نسمة، منهم 30000بحارٍ.[6]

---

[1] – ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2000م، ص558.

[2] – لقد تمكن الأسطول الجزائري من الوصول إلى سواحل أيسلندا سنة1627م، وأيرلندا سنة 1628م، وهاجم السواحل الانجليزية سنة 1631م. أنظر:

ناصر الدين سعيدوني: "البحرية الجزائرية، ظروف نشأتها وعوامل تطورها وأسباب ضعفها"، في مجلة الدراسات التاريخية، الجزائر، ع10، 1417هـ/1997م، ص43.

[3] –Ch. De Rotalier: Histoire D'Alger et de La Piraterie Turque dans la Méditerranée, T2, p310.

[4] – جون وولف: المرجع السابق، ص255.

[5] – مولود قاسم نايت بلقاسم: شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة1830، ج1، ص115.

[6] –Henri Garrot: Histoire Générale de l'Algérie, p453.

وقد وقف هذا الباشا في وجه ثوار زواوة فأخضَعَهم، ونشرَ الأمنَ في البلاد، وحصل في عهده حملةُ التوسكان على مدينة جيجل بقيادة دي سنتا كروز(De santa cruz).[1] وأخيراً تخلى عن منصبه لابن أخيه مصطفى باشا، فتولى مكانه يوم 26 جمادى الثانية 1020هـ /6سبتمبر 1611م.

د- ولاية حسين الشيخ باشا:

كانت ولايته سنة 1021هـ/1613م، وفي عهده كان ذلك الخلافُ المشهور بين حكومة تونس والجزائر في شأن الحدودِ، فكان هناك قتالٌ بين الطرفين انتصرَ فيه الجزائريون، ثم وقع الاتفاق من الجانبين على جعل نهر سرّات كحد فاصل للتخوم الجزائرية الشرقية.[2] وتخلّى الباشا المذكور عن منصبه فتولى مكانه الخرناجي حسين سنة 1024هـ/1616م. ويذكر بعض المؤرخين أنّ الجزائر حصلت في هذه الفترة على ما يزيد عن ثلاثةِ ملايين ليرةٍ مغنماً،[3] واتّخذ الناس، يومئذ، البناياتِ الفاخرةَ والقصورَ الضخمةَ الجميلة. ويصف الراهب كاسبار (Gaspard)؛ الذي زار مدينة الجزائر في تلك الفترة، إعجابَه بتلك المدينة بقوله: "بأنها كانت مدينة غنيّة وثريّة، وأنها كانت مكتظةً بالسكان والتجار..."[4]

هـ- ولاية سليمان قاطانيالي باشا:

أصله من مدينة قاطانيا، بصقلية وكان تعيينه لمنصبه هذا بالجزائر في يوم 2 رمضان 1026هـ/3 ستبمبر1617م،[5] ثمّ كانت وفاة الباشا يوم الأربعاء، ودفن يوم الخميس شهر جمادي الثانية 1027هـ /جوان 1618م.

وبين سنتي 1029هـ/1621م و1037هـ/1628م، تولى على الجزائر أربعُ باشوات هم: مصطفى قصور ومراد وخسروف باشا، وحسين باشا. وإن كانت المصادر تهمل ذكر

---

[1] – عزيز سامح إلتر: المرجع السابق، ص327.

[2] -A. Rousseau: Annales Tunisiennes, Bastide Libraire-éditeur, Alger, 1864, p45.

[3] – مبارك الميلي : المرجع السابق، ج3، ص151.

[4] -Guy Turbet-Delof: Bibliographie Critique du Maghreb dans la littérature française 1532-1715, S.N.E.D, Alger, 1976, p78.

[5] – عزيز سامح إلتر: المرجع السابق، ص319.

الأوليَيْن، إلا أنها تصف خسروف باشا، بأنه كان رجلاً حازماً. وأول عمل قام به هو إبعاد فرقة اليولداش عن مدينة الجزائر حتى يتجنب حدوثَ اضطرابات داخل المدينة بسبب احتجاجات سكانِها على تصرفات هذه الفرقة. كما أنه كان ينتقل بنفسه إلى مناطق الجزائر المختلفة لتعزيز الوحدة الترابية. وإجبارِ المناطق المتمردة على دفع ما عليها إلى خزينة الجزائر.[1]

أما حسين باشا فقد شهد عهده عودةَ العلاقاتِ الدبلوماسية مع فرنسا، بوصول المبعوث الجديد؛ سانسون نابلون.

وقد ذكر المؤرخون أنّ وباءَ الطاعون اجتاح مدينةَ الجزائر بين سنتي 1030-1031هـ/ 1622-1623م؛ حيث حصد حوالي60.000 شخص من أرواح الجزائريين[2] والأجانبِ، كان من بينهم القنصلُ الفرنسي شي(Chaix).[3]

2- أوضاع فرنسا خلال الربع الأول من القرن السابع عشر.

لقد تكلمنا في الفصل السابقِ عن طموحاتِ هنري الرابع، وقلنا أنه كان يبغي الوصولَ بفرنسا إلى درجة متقدمةٍ من الاستقرار السياسي داخلياً، ومنافسةِ الدول البحرية والاستعمارية خارجياً. لكن يبدو أنّ خنجرَ رفايلاك، كان أسرعَ إلى القضاء على هذه الطموحات، بل وإلى التفريطِ في تلك المكتسبات التي عمل هنري الرابع على انجازِها طيلة سنوات حكمه؛ إذ ستشهد فرنسا، خلال الفترة 1610-1659م، رِدّةً سياسية؛ بسبب استيلاء المِلكات على العرش، وإن بصفة الوِصاية، وما تلا ذلك من تنفّذٍ الأجانبِ والدخلاءِ إلى أروقة القصر. وما سينتج عنه من اضطرابات سياسية واجتماعية واقتصادية.

أولا: عهد لويس الثالث عشر(Louis XIII)

عند وفاة هنري الرابع، سنة 1018هـ/1610م، كان ابنه لويس الثالث عشر لم يتعد سنواتِه التسعَ، ونظراً للاضطرابات التي كانت تموج بها فرنسا، فقد فوّض البرلمانُ الفرنسي أمَّه ماري دي ميديسيس(Marie de Medicis) الوصايةَ على العرش، فبقيت تسيطر على مقاليدِ الحكم إلى غاية سنة1025هـ/1617م؛ حيث انتهجت في هذه الفترة سياسةَ التقرّب

---

[1] – مبارك الميلي: المرجع السابق، ج3، ص159.

[2] – عزيز سامح إلتر: المرجع السابق، ص333.

[3] –H.-D.De Grammont: op.cit, p159.

من اسبانيا الكاثوليكية، وقد تُوِّج هذا التقارب بزواج ابنها الملكِ لويس الثالث عشر من ابنة ملك اسبانيا آن النمساوية(Anne d'Autriche). وقد لقيت هذه السياسةُ معارضةً قويةً من النبلاء والبروتستانت؛ الذين كانوا يعتبرون اسبانيا عدوًّا.[1]

وقد تمكن الملكُ الشاب؛ لويس الثالث عشر، من استرجاع العرشِ من أمه في 14 أفريل 1617م/1025هـ، بعد مقاومةٍ كبيرة من حاشيتِها، خاصةً الوزيرِ الايطالي كونسيني (Concini)، الذي اعتقله ثمّ أعدمه.[2] ورغم ذلك فلم يصفَ له الجوُّ؛ إذ قادت الأم تمرداً ضد ابنها، سنة 1028هـ/1620م، وكادت الحرب أن تقعَ لولا قدومُ رجل الدين الكاثوليكي دي رشليو (De Richelieu)؛ الذي نجح في مساعيه لتحقيق الصلح بين الملك وأمه، والذي وُقِّع في 10أوت 1620م/1028هـ؛ حيث اشترطت الملكةُ العفوَ عن مؤيديها، مقابلَ اعترافها بسلطة ابنها.[3] ولهذه الأعمال الجليلة، التي قام بها دي رشيليو، فقد كوفئ بتعيينه كردينالاً.[4]

لكنّ الهيجونوت استغلوا الصراعَ بين الملك وأمه، فثاروا ضد المَلَكيّة، وزاد خطرهم بعد اندلاع حربِ الثلاثين سنة؛ والتي برهنت أنّ مرسومَ نانت لسنة 1006هـ/1598م، لم يخفّف من الشعور الديني لدى الفرنسيين. فطفقَ الهيجونوت يتحصَّنون في مدنهم بغيةَ الاستقلال بشؤونها، فأنشئوا حكوماتٍ محليةٍ، وهذا ما دعى الملكَ إلى حربهم من جديد، ولم تضع الحرب أوزارها إلا بعد عقد صلح مونبلييه(Montpelier) بين الملك والهيجونوت، سنة 1031هـ/1622م.[5]

وبتولّي الكاردينال دي ريشيليو الوزارةَ في القصر الملكي، سنة 1033هـ/1624م، تنتهي الفترةُ العصيبةُ التي مرّت بها فرنسا، منذ وفاة هنري الرابع، سنة 1018هـ/1610م؛

---

[1] – نور الدين حاطوم: تاريخ القرن السابع عشر في أوروبا، دار الفكر، دمشق، 1986، ص243.

[2] –Aurélien Fayet et Michelle Fayet: L'histoire de France des Origines à Nos Jours, p121.

[3] –Le Cardinal De Richelieu: Mémoires, De Firmin Didot Frères, Paris, 1837,P228.

[4] – نور الدين حاطوم: المرجع السابق، ص247.

[5] – عبد الفتاح أبو علية وإسماعيل أحمد ياغي: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ص176.

حيث لم تعرف فرنسا خلالَها الاستقرارَ، بسبب أنانيّة بعضِ النبلاء المتنفذين، وعصبةٍ من الانتهازيين المتسلقين، وثُلّةٍ من رجال الدين الطامحين.[1]

ثانيا: سياسة ريشيليو

لقد خطط رشيليو في سياسته إلى تحقيق هدفين رئيسيين هما: تقويةُ سلطة الملك على كل مناطق فرنسا، وتوسيعُ النفوذ السياسي الفرنسي في أوروبا. ولذلك فقد عمل على:

- تقليص نفوذ النبلاء بغيةَ إخضاعهم لسلطة الملك.
- القضاءُ على الانفصاليين الهيجونوت.
- إذكاءُ العداوة مع اسبانيا الكاثوليكية، بغيةَ منافستها أوروبياً.[2]

لقد جلبت هذه السياسة لرشيليو أعداءً في الداخل والخارج؛ إذ اعتبرها الهيجونوت تهديداً لامتيازاتهم التي تحصلوا عليها في عهد هنري الرابع، ولهذا فقد استمروا في تمرّدِهم، حتى أرغمتهم الهزائمُ المتتاليةُ على توقيع الصلح مع رشيليو، سنة 1037هـ/1628م.[3] ورغمَ دسائسِ النبلاءِ مع الملكة، وثورتِهم في الجنوب الفرنسي، إلا أنه وجّه إليهم ضربةً قاصمةً قضى بها على نفوذهم، وهدّم قصورَهم وفكّك إقطاعياتِهم، حين أوجد نظامَ المأمورين؛ أي نظام التفتيش المَلَكي على القضاء والمالية والأمن في الأقاليم، وبالتالي مراقبةَ المجالسِ المحلية وحكامِ الأقاليم.[4]

أما على الصعيد الخارجي، فلم تكن فرنسا تمتلك قوةً بحريةً تكفي لمجابهة خصومها، لذلك بدأ يخطط لتشكيل بحريةٍ تضاهي مثيلاتها في أوروبا والبحر المتوسط. وفي انتظارِ تحقيقِ هذا المشروع، فقد جَنَح إلى توقيعِ معاهدة سلام مع اسبانيا، سنة 1035هـ/1626م.[5]

---

[1] – عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار: التاريخ الأوروبي الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، 1995، ص138.

[2] – جفري برون: تاريخ أوروبا الحديث، ، ص211.

[3] –Aurélien Fayet et Michelle Fayet: op.cit, p121.

[4] – عبد الفتاح أبو علية وإسماعيل ياغي: المرجع السابق، ص178.

[5] –Le Cardinal De Richelieu : op.cit, p228.

ثالثا: أوضاع مرسيليا

أما بالنسبة لمدينة مرسيليا، ورغم موقعها في الجنوب الفرنسي، فيبدو أنها لم تكن متمردةً على سلطة الملك؛ ذلك أنّ حكامَها كانوا متحالفين مع البلاط الملكي في حربه ضد المتمردين. وتذكرُ المصادر أنّ الملكَ لويس الثالث عشر كان يحب مدينة مرسيليا ويتردد عليها من حين لآخر، بل أُثر عنه ثناؤه على حكام وقناصل مرسيليا بقوله:" قناصل مدينتي مرسيليا رجالٌ نبلاءُ".[1]

ويبدو أنّ حكامَ مرسيليا قد حازوا هذه الثقةَ، من خلال تعاونهم مع الملك في السيطرة على الأقاليم الطامحة إلى الاستقلال عن التاج الفرنسي. لكنّ هذه المجهودات لم تكن بدون مقابل؛ فقد كان هدفُ هؤلاء هو المحافظة على امتيازاتهم التجارية والاقتصادية خارج فرنسا. وفي هذا الإطار، فقد جدد الملك لويس الثالث عشر للدوق دوكيز امتيازَ احتكار وكالة الباستيون مقابل محاربته للهيجونوت قرب منطقة دولاروشيل(De la Rochelle)، سنة 1034هـ/1625م.[2]

3- العلاقات بين البلدين:

لقد تميزت العلاقاتُ الفرنسيةُ الجزائريةُ، خلال الفترة 1018-1037هـ/1604-1628م، بالعداءِ الشديد، وقد تمظهر ذلك من خلال العملياتِ العسكرية بين الطرفين. فلم تكن الجزائر وحدَها هي التي تقوم بالغاراتِ على السفنِ والمراكز الفرنسية، بل إنّ الفرنسيين، هم أيضاً، قاموا بأعمالٍ تضاهي تلك التي تعرضوا لها من قِبَل الجزائريين؛ فقد جاء في مراسلة الملك الفرنسي هنري الرابع إلى سفيره باسطنبول، والمؤرخة في 31أوت 1604م/1018هـ، أنه أعلن الحربَ على الجزائر، بسبب تهديم الباستيون، وإهانةِ القنصل الفرنسي. وتتحدث تلك الرسالة عن بدءِ السفن الفرنسية بمهاجمة الأهداف الجزائرية.[3]

---

[1] –M.Antoine De Ruffi: op.cit, p468.

[2] –Ibid, p472.

[3] –Féraud: op.cit, p107. وانظر الملحق رقم 7

ورغم ذلك، فإن هذه الفترة قد شهدت تحركاتٍ دبلوماسية لغرض إحلالِ السلام بين البلدين. وتميزت هذه الفترة بثلاث أحداثٍ رئيسة كان لها كبيرُ الأثر على العلاقة بين الطرفين، وهي:

أولا: مدفعا دانسا.

هما مدفعا البرونز اللَّذَيْنِ سرقهما الرايس سيمون دانسا(Simon Dansa) الهولندي من الحكومة الجزائرية، عام 1017هـ/1609م، مما أثار أزمةً بين فرنسا والجزائر.

ودانسا هو هولندي الأصل من مدينة دورديخت (Dordecht) ،كان يقيم في مرسيليا، ثم ذهب إلى الجزائر، سنة 1014هـ/1606م ، واستقر بها وتزوج وأعلن إسلامَه وأطلق على نفسه اسم دالي رايس، أو دوفيل(Devil) . واشتغل في تجارة السُّفن، ثم ترقى إلى رتبة رايس في طائفة الريّاس، وتصدى لتعليم مهنة بناء السفن والمراكب لعدد من البحارة،[1] وخرج غازيا إلى البحر عدة مرات مع الريّاس الجزائريين، وتمكن من أسر 40 سفينة لحسابه، وعَبَر مضيقَ جبل طارق إلى المحيط الأطلسي عدةَ مراتٍ مع البحارة الجزائريين.[2]

وفي عام 1017هـ/1609م، حجز سفينةً اسبانية، كان على متنها عشرةُ رهبانٍ جزويت خارجَ شواطئ فالنسيا(Valence)، لكنّه أطلق سراحَهم، وقرّر العودة إلى مرسيليا، وإلى المسيحية.[3] فأخطر الملكَ الفرنسي هنري الرابع سراً برغبته في الالتحاق بزوجته وأولاده، في مرسيليا، والتخلي عن الإسلام والعودة إلى المسيحية، فقَبِلَ عرضَه، وعفا عنه. إثر ذلك قام سيمون باستعارة مدفعين برونزيَيْن من حكومة الجزائر، والتحق بمدينة مرسيليا. وكردٍّ للجميل، قام دانسا بإهداء المدفعَيْن إلى الدوق دوكيز. فأعادَ له مجلس بلدية مرسيليا حقوقَ المواطنة الفرنسيةِ، وفي العام الموالي قدّم مشروعاً لغزو الجزائر فلم يلتفت إليه أحدٌ.[4] غيرَ أنه أثار أزمةً حادة بين الجزائر وفرنسا؛ حيث غضب ديوانُ الجزائر لذلك، ورفع قضيتَه إلى حكام فرنسا

---

(1) –Ch. De Rotalier: op.cit, T2, p512.

(2) – وليم سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تر: عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006، ص170.

(3) –H.-D.De Grammont: op.cit, p149.

(4) – وليم سبنسر: المرجع السابق، ص171.

مطالباً باسترجاع المدفعَيْن المذكورَيْن ومعاقبةِ القرصان المذكور. فأُهملت القضية، ورفض الفرنسيون الإصغاءَ إلى هذه الدعوى.[1]

وقد تسبب هذا في قطيعة بين البلدين، لم تفلح في إنهائها مجهوداتُ السلطان العثماني؛ إذ أعلنت حكومةُ الجزائر قطعَ العلاقات بينها وبين فرنسا، وألغت معاهدةَ احترام مراكبها في البحار، وشرعت حينئذ في شن غاراتها ضد السواحل الفرنسية، فظفرت منها بغنائم أربت على نحو مليون ليرة.[2] ولم تحلَّ هذه القضية حتى مجيء سانسون نابلون؛ الذي تمكن من إقناع الفرنسيين بإرجاع المدفعين مقابلَ التمتع بسلام دائم مع الجزائر.

ثانيا: اتفاقية 1619م.

رغم ما شهدته العلاقات الجزائرية الفرنسية من توتر بسبب قضية الباستيون ومدفعَيْ دانسا، إلا أنّ الفرنسيين كانوا يتطلعون دائماً إلى أفق سلام مع الجزائر، يَضْمَن امتيازاتِهم الاقتصادية، ويحصّن سفنَهم التجاريةَ من مغامرات قراصنتها. فكانت وجهتهم دائما هي الباب العالي؛ الذي تدخّل في هذه المرةِ أيضا لحسم الخلاف، فأوفد مبعوثا عنه وهو سليمان شاوش مزوَّداً بأوامرَ سلطانية تقضي بالامتثال إلى مطالب فرنسا، ومن جملتها إعادة السلام.[3]

وفضلاً عن اعتمادها على تدخل الباب العالي، فقد هدّدت فرنسا الجزائرَ بتوجيه حملة عسكرية ضدّها.[4] فهذه الأساليبُ الدبلوماسيةُ والعسكريةُ معاً جعلت الجزائرَ توافق على استئناف المحادثات، فأرسلت بعثة دبلوماسية إلى فرنسا، في مطلع سنة 1028هـ/1619م، لغرض توقيع اتفاق سلام.

ومن نافلة القولِ أنّ هذه البعثة لم تكن أولَ بعثة جزائرية إلى فرنسا؛ إذ تتحدث المصادر عن إيفاد الحاج محمود شاوش إلى مرسيليا، سنة 1025هـ/1617م.[5] وإنّ الملاحِظَ ليتساءل، هنا،

---

(1) -H.-D.De Grammont: Relations entre la France et la régence d'Alger en XVII^{e} siècle, p48.

(2) – مبارك الميلي: المرجع السابق، ج3، ص151.

(3) -H.-D.De Grammont: op.cit, p18.

(4) -H.-D.De Grammont: Histoire d'Alger sous la domination turque, p154.

(5) -H.-D.De Grammont: Relations entre la France et la régence d'Alger en XVII^{e} siècle, p14.

عن سر توجه مبعوثِي السلام الجزائريين صوبَ فرنسا، في ظَرْف كانت فيه فرنسا تعاني من اضطرابات داخلية وضَعْف في قوتها العسكرية، في مقابل دولةٍ جزائريةٍ قوية أضحت بحريتها تجوب الحوضَ الغربي للمتوسط والمحيطَ الأطلسي، مهددةً الخطوط الملاحية والتجارية لأغلب دول القارة الأوربية، وأيضاً بعد حملة البارون دالمان، والتي انقطعت بسببها المفاوضات بين الطرفين.

ويبدو أنّ الأوضاع الداخلية والخارجية التي عرفتها الجزائر، خلال الفترة موضوع البحث، هي التي جعلت الجزائريين يسعَوْن إلى عقد معاهدات سلام، ليس مع فرنسا فحسب بل مع دول أخرى؛ ففي الداخل كان الباشوات يواجهون ثورات بني عباس والقبائل، ومناطقَ أخرى مختلفة، كما أنّ التهديدَ الخارجي، المتمثلَ في الحملات التي تتعرّض لها مدنُ الشرق، خصوصاً، من طرف الدويلات الايطالية، واسبانيا، وفرنسا، وحتى دول شمال أوروبا من انجليزٍ وهولنديين وغيرِهم، قد أثّر على الجزائر. إضافةً إلى أنّ حدودَ الجزائر الشرقيّة والغربيّة، لم تعرف الاستقرارَ هي الأخرى بسببِ اعتداءاتِ التونسيين والمغاربة؛ الذين كانوا يستغلون اندلاعَ الانتفاضات هنا وهناك، لتوسيعِ ممتلكاتهم على حسابِ الإيالة.

كما أنّ الضعفَ الذي كان يعتري البحريةَ الملكيةَ الفرنسيةَ، لم يكن ينطبق على المارسيليين؛ الذين كانوا يملكون من القوة البحرية ما يَمكّنُهم من الدفاعِ عن ممتلكاتهم، وحتى تجهيزِ الحملاتِ على مدنِ الجزائر، بل كان الملك الفرنسي، كما رأينا، يستعين بهم لإخماد حركاتِ التمرّد التي كانت تظهر من حين لآخر.

وإذا أضفنا لكل ذلك، سعيَ الجزائريين للاستقلال عن سلطة الباب العالي، رأينا أنّ مباشرتَهم للمفاوضات مع فرنسا؛ حليفةِ الدولة العثمانية، لغرضِ عقد معاهدةٍ ثنائيةٍ، يدخل في هذا الإطار؛ إذ أنّ توقيعَ الملك الفرنسي على بنودها، يعدُّ اعترافاً من فرنسا باستقلال شؤون الجزائر الدبلوماسية عن اسطنبول.

لقد ترأّس هذه البعثةِ كلٌّ من كينان آغا وروزان باي، وتوجهت السفارة إلى مدينة تور(Tours) أولاً؛ حيث تمت المفاوضاتُ، وانتهى المفاوضون إلى الاتفاق حول شروطِ إعادة السلام، وتُوِّجَت بعقد معاهدةٍ ثنائية؛ جزائرية فرنسية، بتاريخ 21 مارس 1619م/1028هـ.[1]

---

[1] –Augustin Fabré: Histoire De Marseille, 2 Tomes, Arius Olive Editeur, Marseille, 1820, T2, p460.

كانت هذه أولَ معاهدةٍ سياسية في تاريخ العلاقات الجزائرية الفرنسية؛ فلم تكن العلاقاتُ قبلَ هذا التاريخ ترتكز على أيّة اتفاقياتٍ أو معاهداتٍ ثنائية، وأهمُّ البنودِ التي احتوت عليها هذه المعاهدة هي:

1- ستُحترم المعاهدات المبرمة والمتفق عليها بين المملكتين من أجل السلام والراحة المشتركة لدولتيهما بدقة، وستُراعى دون أن يصدرَ من أيِّ طرفٍ أيَّ مخالفاتٍ.

2- تتوقف مختلفُ عمليات القرصنة والتعديات، ولا يتعرض قراصنةُ الجزائر إلى سفن ومراكب فرنسا في الغرب، كما لا تتعرض إلى التجارِ الآخرين الذين يبحرون تحت الراية الفرنسية، ولا يُسمح بتفتيشهم، أو بالاستيلاء على بضائعهم حتى ولو كانت مِلْكاً لأعداءِ الدولة العثمانية .

3- لا يُسمح لقراصنة دولٍ ومملكاتٍ أخرى أن يأتوا إلى مدينة الجزائر بأيِّ فرنسي، وإذا حدث وأن جيء به، يُطلق سراحُه على الفور مع إرجاع سفينته وأمتعته.

4- لا يَسمح جلالةُ الملك إطلاقاً بتسليح أيَّةِ سفينة، بموانِي مملكته وثغورِها لمطاردةِ الجزائريين.

5- يتم إطلاق سراح جُلِّ الفرنسيين من أي منطقة كانوا، وكلِّ الذين قُبِض عليهم تحت راية فرنسا. كما يتمُّ إطلاق سراحِ جُلِّ أسرى مملكة الجزائر بفرنسا.[1]

إنّ المتتبع لبنود هذه المعاهدة يَلْحظ بأنها لا تُنصّ على الامتيازات التجارية، ولا تشير حتى إلى قضيةِ الباستيون؛ التي أضحت همَّ الفرنسيين الأولَ، بل إنها تركز على قضية القرصنة والأسرى. فلماذا لم تُشِر إلى الجانب التجاري بين البلدين، رغم أنّ أحدَ أطرافِ هذه المعاهدة هو الدوق دوكيز، المحتكرِ لشركة الباستيون؟

إنّ الوثائق[2] تحدثنا عن سعادة الدوق دوكيز بهذه المعاهدة، واستعداداته للعودة إلى الباستيون، فقام بترضية ورثةِ لينش؛ حين اتفق مع ألفونص دولينش(Alphonse de lenche)

---

[1] – جمال قنان: معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830، ص313.

وللاطلاع على البنود الكاملة لهذه المعاهدة، أنظر:

Le baron Jean Dumont: Corps universel diplomatique du droit des gens contenant un recueil des traites d'alliance de paix, Chez P. Brunel, Amsterdam, 1728, T5, p330.

[2] –Traités des Consuls de la Nation Française avec les Pays Etrangers, Pièces Originales Toucha le XVIIe Siècle, Biblioth. nat. mss. fr. 18595. f 72. وانظر الملحق رقم 8.

على دفع مبلغ سنوي مقداره 4.800 قرشاً(Piastres)، مدةَ عشرين سنة، مقابلَ التنازلِ عن حقوقِ الشركة لصالح دوكيز. كما أنّ هذا الاتفاقَ الذي وُقِّع في 06سبتمبر 1619م/1028هـ، بمدينة تور، قد نصَّ على السماح للدوق دوكيز بإرسال قواتٍ عسكرية بهدف إعادةِ تفعيل الشركة، وحمايتِها من هجماتِ القراصنة.[1] وعلى الفور، جهّز دوكيز حملةً بكلفة 300.000 قرشاً، أسند قيادتَها إلى النبيلِ دارجونكور(d'Argencourt)، المهندسِ والقائدِ الخبيرِ كما تصفه المصادر؛ حيث انطلقت من مرسيليا صوبَ الباستيون، وبدأت في أعمال الترميم.

لكن يبدو أنّ أعمالَ الترميم لم تبلغ نسبةً معتبرةً؛ إذ سرعان ما بلغت أنباءُ المصير المفجع للبعثة الجزائرية في مرسيليا إلى الديوان؛ الذي أمَرَ على الفَوْر بتجهيز حملةٍ للانقضاض على القوات الفرنسية المنشغلة بإعادة ترميم الباستيون. ورغمَ المقاومةِ الباسلة التي أبداها المهندس دارجونكور، للدفاع عن امتيازات سيده دوكيز، إلا أنه اضطُرَّ، أخيراً، للانسحاب، مخلفاً وراءَه الكثيرَ من أفراد حملته بين صريعٍ وأسيرٍ.[2]

إنّ تلك الفترةَ الوجيزةَ التي استنفذتها حملةُ دارجانكور، في سعيِها لإعادة بناء الباستيون، لا يمكننا الحكمُ من خلالها على تصرُّفِ هذه الحملة؛ إن كان عن اجتهاد شخصي من دوكيز، أو تمّ ذلك بعد ترتيب مُسبقٍ مع حكام الجزائر.

لكن، ما سبب هذا التصرّفِ المتسرّعِ من قِبَل دوكيز، ألم يكن وراءَه تحركٌ دبلوماسي بين الجزائر وفرنسا؟ إنّ المؤرخةَ عائشة غطاس قد أفادت بأنَّ دوكيز، بعد أن قام بترضية آل لينش، أذِنَ له لويس الثالث عشر بمباشرة المفاوضاتِ مع الباب العالي.[3] لكنّ الوثائقَ التي بين أيدينا لا تشير إلى هذا الموضوع، كما أنّ عائشةَ غطاس لم توضّحْ لنا طبيعةَ هذه المفاوضات، ولا نتائجَها.

ولكن، ما الذي سيجنيه دوكيز من مفوضاته مع الباب العالي حول الباستيون، بعد أن أصبحت الأبوابُ الدبلوماسيةُ بين فرنسا والجزائر مُشْرعةً؛ إِثْرَ تصديقِ الملك الفرنسي لويس الثالث عشر على المعاهدة الثنائية بين البلدين، سنة 1028هـ/1619م؟ وما الذي سيجنيه

---

(1) –Abel Boutin: Anciennes Relations Commerciales et Diplomatiques de la France avec la Barbarie 1515-1830, A. Pedone Editeur, Paris, 1902, p308.

(2) –Paul Masson: Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique barbaresque, p23.

(3) – عائشة غطاس: المرجع السابق، ص168.

الفرنسيون من تدخّلاتِ السلطان، بعد أن خَبِروا نفوذَه على حكام الجزائر؛ حين كانوا يهرعون إليه، شاكين له استهدافَ سفنِهم، أو تحطّمَ مراكزِهم التجاريةِ، أو إهانةَ قناصلهم في الجزائر؟

إنه في غياب الوثائقِ، وبقراءة متفحصة لبنود معاهدة 1028هـ/1619م، يمكننا أن نستنتج بأنّ قضيةَ الباستيون لم تكن محل اهتمام من قِبَل السلطاتِ الجزائرية؛ الشديدةِ الحرص على مصالحها، ولو أدى ذلك إلى إغضابِ السلطان العثماني. وإذا سلّمنا باستغناء الجزائريين بعوائدِ البحر عن أرباح الباستيون، فإننا لا يمكن إغفالَ المنافسةِ التجاريةِ الانجليزيةِ للفرنسيين حول امتيازاتِهم في الجزائر[1]، وربما قد تكون تلك المنافسةُ هي التي حَدَتْ بالدوق دوكيز إلى إسراعه بالعودة للباستيون، دون أن ينتظرَ إذناً مكتوباً من حكام الجزائر.

ويمكن القولُ أنّ هؤلاء القراصنة؛ حسب التسمية الأوربية، لم يكونوا يُجيدون الغزوَ في البحر فحسب، بل أَضْحَوْا يتمتعون بحِنكة دبلوماسية، جعلتهم يحسنون التفاوضَ بوضع البنودِ التي تناسبهم، ولا يعطون المفاوض كلَّ ما يريده، بدون مقابل، ويستغلّون التنافسَ الأوربي لتحقيق مصالحهم. كما أنّ الجزائريين لم يغفروا بعدُ، على ما يبدو، للدوق دوكيز توجيهَه لحملة البارون دالمان لاستعادة الباستيون، سنة 1026هـ/1618م، دون أخذِ موافقةٍ منهم. ولهذا، فإنّ غضَّهم الطَّرْفَ عن التعرض لمشكلة الباستيون، خلال المفاوضات، قد يدخل في هذا الإطار.

ثالثاً: مذبحة البعثة الجزائرية

لم تضع معاهدة 1028هـ/1619م؛ التي جاءت بعد مجهودات شاقّة، حداً للنزاعات الثنائية، ولو لبضعة أيام، ولم يتمكن الطرفان من تحقيق السلم المنشود. فبينما كانت السفارةُ الجزائريةُ تنتظر تَسلُّمَ المدفعين والأسرى لتغادرَ مرسيليا، وصل إلى مدينة مرسيليا نبأُ هجومِ الرايس رجب؛ أحدِ الريّاس الجزائريين، على سفينة مرسيليةٍ عائدةٍ من الإسكندرية كانت محملةً، كما يُذكر، ببضائعَ ثمينةٍ، في فيفري 1620م/1028هـ.[2] وعلى ما يبدو فإنّ هذا الرايس لم يكن على عِلْم بالاتفاق الجديد؛ الذي لم تُكتمل بعدُ شروطُ تنفيذه، إلا أنّ ذلك لم يكن في خَلَدِ

---

[1] – إنّ العلاقات الانجليزية الجزائرية قد بدأت سلمية وتعاونية منذ القرن السادس عشر، وكان الانجليز يشترون من الجزائريين الحبوب والزيتون والشمع، وغيرها من المواد الغذائية، ويبيعونهم البارود، وأدوات تجهيز السفن. ولما رأوا انحسار النفوذ الفرنسي عن المراكز الشرقية، بداية القرن السابع عشر، بدؤوا يخططون لتوسيع نشاطهم التجاري في هذه المناطق. أنظر: مولود قاسم نايت بلقاسم: المرجع السابق، ج1، ص181.

[2] –Abel Boutin : op.cit, p308.

سكانِ مدينة مرسيليا؛ الذين قاموا، في موجة من الغضب، بمهاجمة مقرِّ البعثة الجزائرية ليلاً، وفتكوا بأفراد البعثةِ الأربعين. فَضْلاً عن جزائريين آخرين من أسرى وغيرِهم؛[1] حيث بلغَ عددُ الجزائريين المغدورِ بهم ستين قتيلاً؛ حسب مراسلةِ ديوان الجزائر إلى حكام وقناصل مرسيليا؛ مؤرخةٍ في صفر 1038هـ/1628م.[2]

وتذكر بعضُ المراجع أنّ المرسيليين أضرموا النارَ في المبنى حتى يرغموا الجزائريين على مغادرته ويتسنى لهم بذلك القضاءُ عليهم؛ وهو ما تمكن منه المرسيليون فذبحوهم بشوارع المدينة. وقد دامت هذه الحادثة يومين، حاول أفرادُ البعثة، خلالهما، الدفاعَ عن أنفسهم، لكنّهم لم يتمكنوا من مواجهة أعدادِ المرسيليين الغفيرةِ؛ التي تنافست على التنكيل بهم.[3] حينئذ سارع لويس الثالث عشر؛ وخوفاً من عواقبِ رَدّة الفعلِ الجزائري، إلى إصدار أمرٍ يقضي بمحاكمة المجرمين، وتمّت محاكمتهم في 21 ماي 1620م/1028هـ. ويذكرُ بعضهم أنّ أربعةَ عشر مجرماً حُكِمَ عليهم بالإعدام واختلفت محاكمة بقيتهم.[4] بينما تتحدث الوثائق عن تنفيذِ حكم الإعدام في حق شخص واحد فقط من بين الأربعة عشر شخصاً المحكوم عليهم.[5] غير أنه استناداً إلى النصّ الأصلي من المحاكمة نجد أنّ الحكمَ بالإعدام صدرَ ضد شخص واحدٍ؛ وهو الذي تسبب في تلك الحادثة؛ وهو ما يتضح من ترجمة ملخص المحاكمة : "الحكم على لويس بلانسكو (Louis Blansco) لإثارته، في 14مارس 1620م/1028هـ، فتنةً شعبيةً، ذُبح فيها الأتراك، والحكمُ على شركائه بالإشغال الشاقة."[6]

لقد كان من الطبيعي أن يكونَ لهذه الحادثة أصداؤها في الجزائر، وأن تثيرَ ضجّةً كبيرةً في الأوساط الرسمية، فثار الأهالي بمدينة الجزائر ضدّ الجالية الفرنسية من جهة، وأُلْقي القبض على

---

(1) –Ibid, p308.

(2) –H.-D.De Grammont: Histoire d'Alger sous la domination turque, p76.

(3) –Ibid, p156.

(4) –Augustin Fabré: op.cit, T2, p259.

(5) –M. Octave Teissier: Inventaire des Archives Historiques de la Chambre de Commerce de Marseille, Typographie et Lithographie Barlatier-Feissat père et fils, Marseille, 1878, p200.

(6) – عائشة غطاس: المرجع السابق، ص47.

القنصل الفرنسي من جهة أخرى.[1] وسارعت الجزائر إلى مراسلة الحكومة الفرنسية للتعرّف على أسبابِ الحادثِ؛ الذي وصفته بأنه منافٍ لروح المعاهدات، ومنافٍ للروح العامة، وهو ما يُقرأ في رسائل الاحتجاج؛" لقد أخلّت فرنسا بأحد المبادئ؛ وهو احترامُ وعدمُ المساسِ بشخصية السفراء".[2]

وأوفدت بعد ذلك محمد الشريف؛ وهو صهر كينان أغا، لتقصّي الأحداث. لكنّ هذا الأخيرَ لم يتمكن من العودة إلى الجزائر فورَ الانتهاء من مهمته؛ إذ قُبِض عليه من طرف سفينة من توسكانيا، فتأخر الردّ وزادت العلاقات توتراً. ومن خلال الوثيقة[3] التي تحدثت عن هذه المذبحة، نلمس انتشاءً وافتخاراً من قِبَل الفرنسيين بهذا الفعل القبيح، بل نجدهم يبررون جريمتَهم بأنها صرخة غضبٍ ضد بربريةِ وفظاظةِ الأتراك.[4]

ومهما يكن التبرير الفرنسي لما حدث، وبغضِّ النظرِ إن كان تصرفَ الرايس رجب قد تمّ قبلَ دخول اتفاقِ 1028هـ/1619م حيّزَ التنفيذ، أم بعده، أو فعل ذلك عمداً، أو لم يكن على علم بهذا الاتفاق، فإنه لا يمكن استساغةَ الاعتداءِ على السفراء ومبعوثي السلام؛ إذ أنّ المواثيقَ والعهودَ الدوليةَ المتعارفَ عليها، قديماً أو حديثاً، تضْمَن لهم حصانةً دبلوماسيةً، طيلة فترة مهمتهم، ما داموا لا يتجاوزون حدودَها. ولم يحفظ التاريخ، حسب عِلمنا، أحداثاً مشابهة اقترفتها أمم بربرية، فما بالك بأمة دخلت عصر النهضة وأصبحت تنشد الرقيّ الحضاري.

إنه لا يمكن تفسير ذلك إلا بالحقد الأعمى الذي يكنّه الفرنسيون للجزائريين؛ فالخَلْفِيَّةُ الصليبيةُ للفرنسيين، جعلتهم يَرَوْن في الجزائر "مالطا إسلامية" تهدّد أمنَهم، وتَقُضُّ مضاجعَهم، فطفقوا يتَحَيَّنون كلَّ الفرص للانتقام من الجزائريين، حتى ولو كانوا دبلوماسيين مسالمين.

---

[1] – محمد فريد بك: المرجع السابق، ص224.

[2] –H.D.De Grammont: Relations entre la France et la régence d'Alger en XVIIe siècle, p25.

[3] – عنوان الوثيقة: " l'Histoire nouvelle du massacre des Turcs fait en la ville de Marseille . **التاريخ الجديد لمذبحة الأتراك في مدينة مرسيليا**". وقد نُشرت أول مرة في مدينة ليون سنة 1620م، ثم قام دوغرامون، بإعادة نشرها مع بعض التعليقات سنة 1879م.

[4] – Guy Turbet-Delof: op.cit, p95.

لقد كانت هذه الحادثة سبباً مباشراً في عدم استتباب الأوضاع إلى غاية 1037هـ/1628م. واستمر البَلَدان في حالة حرب تزايدت شدتها قرابة ثماني سنوات، كان البحر الأبيض المتوسط ميداناً لها. وركّز الجزائريون نشاطَهم أثناءَها على الساحل الجنوبي لفرنسا، فكبّدوا الفرنسيين خسائرَ جسيمة.

وقد سعت الدولةُ العثمانية، نظراً لما بذله سفراءُ فرنسا لدى البلاط العثماني، لإعادة العلاقات بين فرنسا والجزائر. فأوفدت، سنة 1032هـ/1623م، سليمان شاوش للنظر في النزاعات القائمة بين البلدين. وكان موقفُ حكومة الجزائر عنيفاً ضدّ المبعوث العثماني، وضدّ الوساطة العثمانية التي رأت فيها إجحافاً للطَّرَف الجزائري. وحسب مراسلة[1] سليمان شاوش إلى قناصل وحكام مرسيليا؛ فإنّ أعضاءَ الديوان رفضوا التفاوضَ معه، كما منعوا الباشا عن ذلك أيضا، ولم تمتثل حكومةُ الجزائر للأوامر السلطانية؛ محتجَّةً على المبعوث السلطاني بعدم اطّلاع الدولة العثمانية على احتجاجات الجزائر ضدّ ما ارتكبه الفرنسيون في حقهم.

وأوفدت الحكومةُ الجزائرية بعثةً إلى السلطان العثماني لتعرِّفَه، بدَوْرِها، عن مصدر الخلاف القائم بينها وبين فرنسا. ولم تُستأنف المفاوضاتُ مع المبعوث العثماني إلا بعد أن عادت البعثة الجزائرية من اسطنبول.[2]

ولم يُوفّق المبعوثُ العثماني في إعادة السلام، رغمَ طول المدة التي استغرقتها أقامته بمدينة الجزائر، والتي كانت نحو ثلاثة أشهر. وكان كلُّ ما قام به؛ هو أنه مهّد الأرضيةَ لإعادة العلاقات.

---

[1] – الرسالة مؤرخة في 10 أفريل 1623م/1032هـ. أنظر:

Eugène Plantet: Les correspondances des deys d'Alger avec la cour de France, T1, p12.

[2] – محمد فريد بك: المرجع السابق، ص336.

المبحث الثالث

انعكاسات أوضاع وكالة الباستيون على العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال الربع الأول من القرن السابع عشر

لقد رأينا خلالَ هذا الفصل أنّ شركةَ الباستيون ظلّت معطلةً بسبب قيام الجزائريين بتهديمها منذ مطلع القرن. ورغم ذلك، فقد ألقى موضوعُ إعادةِ تأهيلها بظلاله على العلاقاتِ الثنائية. فالفرنسيون كانوا يرَوْنَ في تهديمها تعدياً من حكومة الجزائر على ممتلكاتٍ وامتيازاتٍ تحصلوا عليها بموجب معاهداتٍ مع البابِ العالي، أمّا الجزائريون فكانوا يعتبرون نشاطَها قد تعدّى المبادئَ والقواعدَ التي حدَّدتها معاهدةُ الامتيازات، وبالتالي فقد أصبح وجودُها غيرَ مرغوبٍ فيه. وقد رأيت أنّ أوضاع الباستيون قد أثرت على الأحداث التي ميَّزَت العلاقات بين البلدين خلالَ هذه الفترة، منها:

1- تجديد معاهدة الامتيازات سنة 1604م.

لقد كان الباستيون يشكل مصدراً مهمّاً، ليس للتجار المرسيليين؛ الذين كانوا يجنون أرباحاً طائلةً من المواد التي يسوِّقونها نحو الإسكندرية، ومرسيليا، وليفورن، وغيرها... فحسب، بل حتى للفرنسيين البسطاءِ الذين كانوا يعتبرون هذه الشركةَ أهمَّ مُوَرّد لمادة القمحِ الضروريةِ لغذاء الأمة الفرنسية، خاصةً في سنوات الجفاف والمجاعة. ولذلك فإن الدبلوماسية الفرنسية[1]، سعَت جاهدةً لتتحصل على تجديدٍ لمعاهدةِ الامتيازات، كلّما اعتلى سلطانٌ جديدٌ عرشَ اسطنبول. وهذا ما كان بالفعل عشية تولي السلطان أحمد الأول؛ حينَ أصدر فرماناً، في 20 ماي 1604م/1012هـ[2]،يقضي بتجديد معاهدة الامتيازات؛ والتي نصّت صياغتها المعدَّلةُ بشكل صريح، ولأول مرة، على المراكز التجارية الفرنسية في شرق الجزائر.

لذلك فإنّ قيامَ الجزائريين بتهديمه في شهر جوان من سنة 1604م/1012هـ، أفرزَ ردودَ فعل غاضبةٍ على كلّ المستويات، وجعلَ الفرنسيين يحاولون إعادةَ تأهيل هذه الشركة بكلّ

---

(1) – لقد كان للسفير دوبريف فضل كبير في إدراج أسماء المراكز التجارية الفرنسية في مواد هذه النسخة. أنظر:
Paul Masson: Les compagnies du corail, p103.

(2) – للاطلاع على المواد الكاملة لهذه المعاهدة، أنظر: Le baron Jean Dumont: op.cit, p39.
وانظر الملحق رقم 6.

الطرق والوسائل الممكنة، ولا ريبَ أنّ المساعي الدبلوماسيةَ كانت مفضلةً لدى الفرنسيين؛ الذين كانوا يعوِّلون على نفوذ السلطان العثماني للضغط على حكام الجزائر.

وكما رأينا في المبحث الأول من هذا الفصل، فإنّ مساعي الباب العالي لم تؤت أُكلَها، رغم تبنيه لوجهة النظر الفرنسية، وإيفادِه لكبيرِ بوّابيه ليصحب السفيرَ الفرنسيَ؛ دوبريف، في مهمته الشاقّة في الجزائر.

ورغم القوة القانونية والدبلوماسية التي صُبغت بها هذه النسخة المعدّلَة من معاهدة الامتيازات؛ حين تنصيصها الصريح على الامتيازات "المرجانية" والتجارية للفرنسيين في المراكز الشرقيّة للجزائر، إلا أنّ ذلك لم يُثنِ الجزائريين عن قرارهم بتفكيك المراكز الفرنسية، وعدمِ السماح لها بمباشرة نشاطها إلا بعدَ إطلاق سراحِ الجزائريين المأسورين في مرسيليا وليفورون. كما أنهم لم يكونوا بحاجة للبنود الصريحة في هذه المعاهدة المتجدّدة، لأنّ رفوفَ خزائنهم الإدارية كانت تحوي فرماناتٍ مشابهةٍ صادرةٍ من السلطان نحو حكام الجزائر، منذ أواخر القرن السادس عشر.[1]

2- القرصنة البحرية:

عقب استهدافِ الجزائريين للباستيون، أصدر الملك الفرنسي هنري الرابع قراراً بإعلان الحرب على الجزائر. وتتحدث الرسالة التي بعثها إلى سفيره باسطنبول؛ السيد دوبريف، والمؤرخة في 31 أوت 1604م/1012هـ، عن بدءِ السفن الفرنسية بمهاجمة الأهداف الجزائرية.[2]

وتذكرُ المصادر أنّ فرنسا ثأرت من الجزائر بتنظيم غارةٍ شنتها على ميناء مدينة برشك، بين شرشال وتنس، فحطّمتها. ثم ذهبت، شرقاً، إلى شواطئ جيجل، وهنالك قذفتهم المدافعُ الجزائريةُ بقنابلها فانسحبت الحملة الفرنسية إلى ليفورن.[3] وقامت ستة سفنٍ بحريةٍ فرنسية بالغارة على مدينة عنابه، سنة1015هـ/1607م ؛ حيث حطّمت بعضَ السفن الراسية في

---

(1) – من ذلك الفرمان الصادر بتاريخ 2 جمادى الثانية 986هـ/1579م، والمتضمن السماح للفرنسيين باستغلال مرسى الخرز(القالة) لصيد المرجان. أنظر: مهمة دفتري رقم35، صحيفة 122، حكم رقم 314. وانظر الملحق رقم 2.

(2) –Féraud: op.cit, p107. وانظر الملحق رقم 7.

(3) – كانت الحملة على متن سفن توسكانية. أنظر: مبارك الميلي: المرجع السابق، ج3، ص151.

الميناء، وقامت بأعمال السلب والنهب، واقتادت معها، إلى ليفورن، حوالي 500 أسيرٍ جزائري.[1]

ولم تقف البحرية الجزائرية مكتوفةَ الأيدي؛ حيث هاجمت الفرنسيين في البر والبحر، وكان حصادها كبيراً، في العشرية من 1021-1031هـ/1613-1622م. كما أنّ عددَ الأسرى الفرنسيين قد فاق 235 أسيراً.[2] وفي مراسلة أحدِ قناصلِ مدينة مرسيليا إلى مستشار الملك الفرنسي، والمؤرخة في 18 أكتوبر 1623م/1032هـ، يتحدث فيها عن حصيلةٍ ثقيلةٍ تكبّدَها الأسطول الفرنسي من هجمات القراصنة الجزائريين، فاقت حصيلةَ مثيلاته الأوروبية، بما فيها الأسطول الاسباني؛ حيث بلغت، في الفترة 1021-1030هـ/1613-1621م، أكثرَ من 193 سفينة فرنسية.[3]

كما أنّ الأحداثَ المأساويةَ التي تعرّض لها أفرادُ البعثة الجزائرية في فرنسا، سنة 1028هـ/1620م، قد أفرزت وضعاً جديداً، لم يؤثّر على فرنسا لوحدها، بل ألقى بظلاله على الحوض الغربي للمتوسط؛ الذي أضحى مجالاً مستباحاً للبحارة الجزائريين، حيث وجدوا في التطوراتِ الأخيرة فرصةً سانحةً للانتقام من السفن الفرنسية، ومثيلاتها الأوروبية الحاملةِ للشارة الفرنسيةِ، والمحصّنةِ من أعمال القرصنة بموجب معاهدة الامتيازات.

لقد بلغت عائداتُ القرصنة البحرية الجزائرية، بين سنتي 1029-1039هـ/1620-1630م، مستوىً قياسياً؛ إذ فاقت ما معدّله 350.000 قرشاً سنوياً.[4] ويذكر المؤرخون، أنّ سنة 1028هـ/1620م، كانت سنةً استثنائيةً؛ إذ أنّ الجزائريين استولوا، خلالها، على125سفينة.[5] وتشير التقاريرُ الفرنسيةُ إلى أنّ قراصنةَ الجزائر استولوا، في مدة شهرين، على

---

(1) -Stanlay Lan-Poole : The Story Of The Barbary Corsairs, G. P. Putnam's Sons, New York, 1890, p255.

(2) -Daniel Panzac: Les Corsaires Barbaresques la Fin d'une Epopée, CNRS Éditions, Paris, 1999, p25.

(3) -De Grammont: op.cit, p54.

(4) -Michel Fontenay: "La place de la course dans l'économie portuaire: l'exemple de Malte et des ports barbaresques", in, A. E. S. C, N°:6, 1988, pp 1321-1347.

(5) - المنور مروش: المرجع السابق، ج2، ص316.

20سفينة؛ منها 10سفن فرنسية بلغت قيمتها 205.000 أوقية، وفي ستة أشهر احتجزت 21 سفينة فرنسية. وفي ماي 1621م/1030هـ قُدّرَ مجموعُ الغنائمِ الفرنسيةِ بـ800 ألف أوقية، و500 أسير، وأنّ المدنَ الفرنسيةَ الساحلية؛ مثل لاسيوتا(La Ciotat)، وتولون، وحتى مرسيليا، قد أضحت أهدافاً مفضّلة للبحارة الجزائريين.[1]

وهكذا نجح غزاةُ البحرِ الجزائريون في محاصرة السفن الفرنسية، التي لم يعد بإمكانها الخروجُ من الموانئ الفرنسية، وأصبح ربّانُ السفن وأصحابُ المصالحِ التجارية يحتَجُّون لدى حكومتهم لما أصاب الحركةَ التجاريةَ من تعثّر، بينما نادى بعضهم باستعمال القوة، وتسخير عددٍ كافٍ من البوارج للحدّ من نشاط البحرية الجزائرية. غيرَ أنه أمام ضَعف البحرية الفرنسية، اضطرّ لويس الثالث عشر إلى طلبِ التفاوض لأجل إعادة العلاقات، وولّتْ فرنسا وجهَها صوبَ الباب العالي حتى يتدخل لإعادة العلاقاتِ الودّيةِ بينها وبين الجزائر.

3- النشاط الدبلوماسي بين البلدين.

رغم ما ميز هذه الفترةَ من أعمالٍ عدائيةٍ بين البلدين، إلا أنها قد عرفت رغبةَ هذا الطرف أو ذلك في الجنوح إلى السلام، بعد اكتوائِه بنار الحرب من الطرف الآخر، ولعل هذا ما ساهم في ازدهار الحركة الدبلوماسية بينهما.

ومما لاشك فيه أنّ الجزائر لم تكن تمتلك موفداً يرعى مصالَحها لدى فرنسا؛ إذ كانت القنواتُ الدبلوماسية بين الطرفين، تتم عبر اسطنبول. وإن كانت فرنسا قد تمكنت من ايفاد قنصلٍ لها، يرعى مصالحَ أسراها وتجّارِها في الجزائر، منذُ النصف الثاني من القرن السادس عشر،كما رأينا في الفصل الأول، إلا أنّ الجزائرَ، الخاضعةَ اسمياً للدولة العثمانية، لم يكن بمقدورها عملَ الشيء نفسِه. أمّا عقد المعاهدات الثنائية، فكان يبدو حينها ضرباً من المُحال.

لكنّ الجزائريين، ومنذ مطلع القرن السابع عشر، لن يجدوا غضاضةً في رفض الأوامرِ الصادرة من اسطنبول، كلما كان ذلك يتعارض مع مصالحهم. وقد رأينا رفضَهم الصريحَ والمتكررَ لإعادة بناء الباستيون، رغمَ الفرماناتِ والأوامرِ الصادرةِ من اسطنبول، والتي كُلّفَ بنقلها كبارُ رجال الدولة العثمانية إلى الجزائر.

---

[1] -De Grammont: op.cit, p34.

ويبدو أنّ الفرنسيين؛ الذين يتمتعون بنفوذٍ كبيرٍ في الديوان السلطاني، قد بدأت تتجلّى أمامَهم مطامحُ الجزائرِ الاستقلالية، وقد رأَوْا أنه من الحكمة، ولتحقيق مصالحهم، أن يباشروا التفاوضَ مع هؤلاء، دون المرور باسطنبول.

وتحدثنا المصادر عن أول وفد فرنسي قدم إلى الجزائر، مباشرةً بعد اختيار بعثةِ السفير دوبريف القادمةِ من اسطنبول؛ حيث قدم النبيلُ دو مواساك، مبعوثُ السيد دولينش، سنة 1015هـ/1607م، للتفاوض حولَ وضعيةِ الباستيون، وقد استقبله أعضاء الديوان بحفاوةٍ. وكحسن نيّة منهم، فقد أبرقوا برسالة إلى حاميةِ عنابه، لحمايته وتسهيل مهمةِ بعثته التفقّدية إلى وكالة الباستيون وملحقاتِها.[1]

كما قام كلود سينيس (Claude Sénés) بزيارة مماثلةٍ إلى الجزائر، سنة 1017هـ/1609م، واتفق مع حكام الجزائر على العودة إلى الباستيون، إلا أنّ تفجرَ الأوضاع بسبب أزمة مدفعَيْ دانسا قد أعاد هذه القضية إلى المربع الأول.[2]

وفي سنة 1026هـ/1617م، قدم المرسيليان دو غلاندوفيس (J. de Glandevès) وبِرونجييه(A. Bérangier) ، لغرض عقدِ سلامٍ مع الجزائر. وكادت المحادثاتُ أن تُثمرَ عقدَ معاهدة سلامٍ بين الطرفين، لولا نزولُ حملةِ البارون دالمان على شاطئ الباستيون، سنة 1027هـ/1618م، وبدئِها في أشغال ترميمِ الشركة، دونَ سابقِ إنذارٍ. عند ذلك قام الجزائريون بتوقيف المحادثات.[3]

وفي المقابل، فإنّ المصادرَ تتحدث عن إيفاد الحاج محمود شاوش، كأول مبعوثٍ للإيالة الجزائرية إلى مرسيليا، سنة 1026هـ/1617م. وحسب دوغرامون، فإنّ هذا المبعوثَ كان مقيماً في مرسيليا منذ أكثرَ من ستة أشهر، قبلَ مقدمِ بعثةِ دو غلاندوفيس وبِرونجييه، السالفةِ الذكر، إلى الجزائر.[4]

---

(1) –Paul Masson: op.cit, p105.

(2) –Ibid, p107.

(3) –Paul Masson: Marseille et la Colonisation Française, p121.

(4) –H.-D.De Grammont: op.cit, p15.

كما أنّ سنة 1028هـ/1619م، قد شهدت قدومَ أكبرِ بعثةٍ دبلوماسية جزائرية؛ حيث ضمّت حوالي أربعين فرداً تحت رئاسة كل من كينان آغا وروزان باي، و قد كُلّلت جهود هذه البعثة بتوقيع أول معاهدة ثنائية جزائرية فرنسية بتاريخ 21 مارس 1619م/1028هـ. ثم تلتها في السنة الموالية، بعثةُ محمد الشريف للاستفسار عن مصير البعثةِ السابقةِ. لكنّ هذا الأخيرَ لم يتمكن من العودة إلى الجزائر فورَ الانتهاء من مهمته، بسبب وقوعِه في أسرِ التوسكان، كما مرّ بنا.

وقد صمتت المصادرُ عن ذكر أسماءَ مبعوثين، أو سفراءَ جزائريين نحو فرنسا، خلال الفترة من 1029-1037هـ/1620-1628م، ربما بسببِ وَقْعِ المصيرِ المفجعِ للبعثة الجزائرية في مرسيليا، وما تلا ذلك من حربٍ مفتوحةٍ بين البلدين.

كما أنّ الفرنسيين أنفسَهم لم يعيّنوا قنصلاً لهم في الجزائر عقبَ وفاة القنصل فرانسوا شي (François Chaix)، بسبب الطاعون الذي اجتاح الجزائرَ، سنة1032هـ/1623م ؛ إذ بقيت القنصليةُ شاغرةً لمدة سبعِ سنواتٍ.[1]

وقد لوحظ عودةُ التواصل الدبلوماسي بين البلدين بعد قدوم سانسون نابلون إلى الجزائر سنة 1035هـ/1626م، وما تلا ذلك من توقيعٍ لمعاهدة سلامٍ بين الطرفين، كما سنرى ذلك في الفصل اللاحق.

وهكذا نرى بأنّ قضيةَ الباستيون قد ساهمت بشكل كبير في تنشيط العمل الدبلوماسي بين البلدين. فالفرنسيون؛ الذين كان همَّهم الشاغلَ إعادةُ تأهيل وكالة الباستيون وملحقاتِها، لم يجدوا بُداً من التفاوض المباشر مع الجزائريين، بعدَ أن أعياهم طرقُهم لأبواب اسطنبول. أما الجزائريون فلم يُفوِّتوا فرصةَ تحمّس الفرنسيين لقضية الباستيون ليحصلوا على اعترافٍ فرنسيٍ باستقلال شؤونِهم الدبلوماسية عن اسطنبول، فطفقوا يوفدون مبعوثين وسفراءَ لهم إلى مرسيليا، وتمكنوا من عقد أول معاهدة ثنائية مع فرنسا سنة 1028هـ/1619م.

---

[1] -H.-D.De Grammont: Histoire d'Alger sous la domination turque, p159.

وصفوُ القول أنّ نشاط الباستيون، خلال الربع الأول من القرن السابع عشر، قد عرف انحساراً كبيراً، بسبب تعرضِه للهدم منذ مطلع القرن، وعدمِ تمكن الفرنسيين من إعادة تأهيله طيلةَ هذه الفترة.

كما أنّ العلاقاتِ الجزائريةِ الفرنسيةِ، خلال الفترةِ ذاتها، قد عرفت أقصى درجاتِ التوتر؛ بحيث أصبحت الحربُ مفتوحةً بين البلدين، في أغلبِ الأحيان.

ورغم ذلك، فقد هيمن موضوعُ الباستيون على حركيّة العلاقاتِ الدبلوماسية بين الجزائر وفرنسا؛ فقد تتأزم العلاقاتُ بين البلدين، بل وتصل إلى حدِّ الصدام، كلّما تعطل نشاط هذه الوكالة، وقد تميل إلى الانفراج والتواصل الدبلوماسي حين يكون موضوع إعادة تأهيل هذه الوكالة من أهمِّ أهدافِ هذه المفاوضات.

الفصل الثالث

نشاط وكالة الباستيون وأثره على العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر (1628-1659م)

- **المبحث الأول**: نشاط وكالة الباستيون خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر.

- **المبحث الثاني**: العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر.

- **المبحث الثالث**: تأثير نشاط الباستيون على العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر.

الفصل الثالث

نشاط وكالة الباستيون وأثره على العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر (1628–1659م)

شهدت العلاقاتُ الجزائريةُ الفرنسية، خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر، تحسناً ملحوظاً، كما اتسمت العلاقات بين البلدين بالسلم في أغلبِ فتراته. فقد رأينا أنّ العلاقاتِ بين البلدين قد وصلت، في نهاية الفترة السابقة، إلى درجةٍ كبيرةٍ من التدهور بسبب مقتلِ البعثة الجزائرية في مرسيليا، وخَلُصْنَا إلى أنّ حبلَ التواصل الدبلوماسي بين الطرفين قد انقطعَ بسبب هذا التدهور، إلاّ أنّ ظهورَ شخصيةِ سانسون نابلون سيساهم في نَزْعِ فتيلِ الأزمة بين البلدين ولو إلى حين.

كما كان لهذه الشخصيةِ الأخيرةِ دورٌ فعّالٌ في تحسين علاقات البلدين، وإعادةِ تأهيل وكالة الباستيون، والوصولِ بها إلى مستوياتٍ قياسيةٍ من النشاط، والتي فاقت ما كانت عليها قبل تعرضها للهدم، سنة 1012هـ/1604م.

كما عمل خلفاؤُه؛ الذين ترأسوا إدارةَ الباستيون، خلال الفترة موضوعِ الدرس، على ترسيخِ أجواء السلام، والمحافظةِ على الامتيازات الاقتصادية والتجارية؛ التي "انتزعها" نابلون من حكام الجزائر. كما سيتبين لنا أنهم لم يكونوا بمستويات واحدةٍ من الكفاءةِ والحنكة الدبلوماسية؛ إذ سينجحُ بعضهم، بينما لن يُوَفّق البعضُ الآخر. كما انعكس كلّ ذلك على نشاطِ وكالةِ الباستيون؛ إذ سينمو ويزدهرُ في عهد هؤلاء، بينما سيتراجع ويتدهْوَر خلال عهد أولائك.

وسنتناول في هذا الفصل، تأثيرَ نشاط الباستيون على العلاقات بين البلدين، سواءً في المجال السياسي، أو التجاري، أو حتى الاجتماعي. والتي ستشهد استقراراً وتطوراً، حين يبلغ هذا النشاط ذروتَه، بينما ستعرف اضطراباً وتدهوراً، حين تتعطل هذه الوكالة، أو يضطرب نشاطُها.

المبحث الأول

نشاط وكالة الباستيون خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر

1- نشاط الباستيون خلال عهد نابلون(1628-1633م)

بعد التدهورِ الذي آلت إليه العلاقاتُ الجزائريةُ الفرنسيةُ، وما صاحبَه من أعمالٍ عدائية بين الطرفين، كانت فرنسا الخاسرَ الأكبرَ فيها، اتضح لحكومة لويس الثالث عشر أنها عاجزةٌ عن التصدي لنشاط البحارة الجزائريين ولقوّتهم، ليس هذا فحسب، بل أدركت أنّ مصالحَها بالجزائر باتت مهددةً من طرف منافستها الخطيرة؛ انكلترا. الأمرُ الذي جعلها تلحُّ على إعادة العلاقات، فأوفدت سنة 1626م/1035هـ ممثلاً عنها للتفاوضِ بشأن إعادةِ السلام.

أولا: قدوم سانسون نابلون

لقد كَلَّف الكاردينال دي رشيليو القائدَ الكورسيكي سانسون نابلون بمباشرة المفاوضات مع الجزائر، في جوان سنة 1035هـ/1626م.[1] وتحدثنا المصادرُ عن قدومه إلى الجزائر، في 17 سبتمبر 1628م/1037هـ، مرفوقاً ببعض الأسرى الجزائريين، وبالمدفعَيْن البرونزيَيْن اللّذَيْن كانت الجزائر تشترطُ إعادتَهما قبْلَ التوقيعِ على أيّ معاهدة سلامٍ مع فرنسا. وقد ساهمت مدينةُ مرسيليا بجهد كبير في هذه المفاوضات، ووجد سانسون نابلون مساندةً كبيرةً من طرف قناصل مدينة مرسيليا وممثلي التجارة، فصادقوا على منحه ستين ألف جنيه؛ لفَدْيِ الأسرى الجزائريين المحجوزين لدى الدوق دوكيز واسترجاعِ المدفعَيْن.[2]

ويجدر التذكير، بأنّ المبعوثَ سانسون نابلون كان قد كُلِّفَ بمهمّة أولية لنفس الغرض لدى الدولة العثمانية، لكنّها لم تكلّل بالنجاح. فرغم قدومِ الباشا حسين بن الشيخ مع الوفد الذي عاد من عند السلطان العثماني، يحمل أوامرَه بضرورة عقد صلح مع فرنسا؛ إلاّ أنّ ردَّ الديوانِ كان هو اشتراطُ إطلاقِ سراح الجزائريين المأسورين في السفن المارسيلية، واستعادةِ المدفعَيْن اللذَيْن سرقهما دانسا، قبلَ الدخول في أيّ مفاوضات سلام مع فرنسا.[3]

---

(1) -Charles Féraud: La Calle, p120.

(2) -M.Antoine De Ruffi : Histoire de la ville de Marseille, p473.

(3) - عزيز سامح إلتر: الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، ص336.

وقد نجح نابلون في عقد اتفاقية سلامٍ وتجارة مع الجزائر في 19سبتمبر 1628م/1037هـ، والتي تمكن الفرنسيون بواسطتها من إعادةِ استغلالِ المراكز التجارية وإعادةِ بناء الباستيون. وتكشف لنا الوثيقةُ[1] الملحقةُ بمعاهدة السلام لسنة 1037هـ/1628م، والتي خُصِّصَت لموضوع الباستيون وملحقاتِه، كيف أنَّ الفرنسيين تمكّنوا من استعادةِ كلّ الامتيازات التي كانت ممنوحةً لهم مِن قَبلُ؛ كصيد المرجان، وتجارة الجلود والشمع والصوف، وغيرها. كما أنّ الوثيقةَ السالفةَ الذكرِ قد بينت مدى حرية الملاحة التي ستتمتع بها السفنُ التجارية الفرنسية سواءً في البحر المتوسط أو على السواحل الجزائرية.

ثانيا: إعادة بناء الباستون.

إنّ الوثيقةَ الملحقةَ بمعاهدة السلام تتضمن مضمونَ العقدِ الذي يسمح بإعادة تأهيل وكالة الباستيون وملحقاتِها، ويرى فيرو أنّ هذه الوثيقةَ لم تكن تابعةً لنصّ معاهدة السلام، و لم تُكتب إلا بعد المفاوضاتِ التي أجراها نابلون مع أعضاءِ الديوان؛ حيث ذكّرهم برغبةِ الفرنسيين في إعادةِ بناءِ هذه الوكالة بعد مرور حوالي ثلاثين سنة من تهديمها من طرف الجزائريين.[2] بينما يقول قنان بأنّ معاهدة استغلال الباستيون تعتبر امتيازاً مُنِح لسانسون نابلون بصفة شخصيةٍ، وليس كممثل ومعتمدٍ لملك فرنسا، وهذا ما يفسر عدمَ إقرارِها من قِبلِ ريشيليو.[3] وقد ردَّ ماسون هذا الادعاءَ، عندما رأى بأنّ نابلون كان يمثّل، أثناءَ مفاوضاته مع الجزائريين، الملكَ الفرنسيَّ والسيدَ دوكيز في آن واحد. كما أنّ هذا العقدَ، حسب رأيه، أضحى مرجعاً لكل المعاهداتِ الثنائية الخاصة بالمؤسسات الفرنسية، حتى القرن الثامن عشر.[4] ويبدو أنّ تفسيرَ ماسون هو الأقربُ إلى الواقعِ؛ إذ بالرجوع إلى النصّ الكامل لهذا العقد، فإننا نجد أنّ كلمة "ملك فرنسا" قد ترددت مرتين، كما أنّ جملةَ الاتفاق جاءت بصيغة الجمع؛ هكذا: "... نظراً لطلب الفرنسيين من قبلُ، للمكان المسمى الباستيون مع وكالة عنابة، فقد اتفقنا معهم على

---

(1) -E. Rouard De Card: Traités de la France avec les Pays de l'Afrique du Nord: Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc, A. Pédone Editeur, Paris, 1906, p 20.

(2) -Charles Féraud: op.cit, p125.

(3) – جمال قنان: معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830، ص76.

(4) –Paul Masson: Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique barbaresque, p30.

شرطِ ستةٍ وعشرين ألف ضبلونٍ..." ولو كان اتفاقاً مع نابلون شخصياً لجاءت صيغة الجملة بالمفرد. وسنكتشف، لاحقاً، أنّ صيغةَ معاهدة الباستيون، لسنة 1049هـ/1640م؛ لا تختلف كثيراً عن صيغة هذا العقد.

وقد أذِن له الجزائريون في مباشرة بنائِها شرطَ أن يدفع ستةً وعشرين ألف ضبلون، منها 16000 ضبلون كرواتب للجند، و10000 ضبلون للخزينة العامة للقصبة. ولم يسمحوا لنابلون ببناءِ الباستيون وملحقاتِه فحسب، بل أذِنوا له أيضاً ببناءِ التحصينات اللاّزمة والضروريةِ لحماية هذه المنشئاتِ من غارات القراصنة واللصوص، كما جاء في نصِّ الوثيقة: "... وبما أنّ ما يسمى بمكان الباستيون وملحقاتِه قد هدّمت، فإننا نسمح بإصلاحها وتشييدها كما كانت من قبلُ، لحمايتها من الأهالي، سفنِ ولصوصِ ميورقة ومينورقة؛ فالكلُّ طامعون في مخازن الجلود الموضوعة تحت تصرفِ وكالة عنابه. يستطيع الفرنسيون أن يرمِّموا الأماكنَ والمراكزَ الأخرى، والتي تُستعمل عادةً في الحماية، كما كانت من قبلُ."[1]

ويبدو أنّ سانسون نابلون قد استفاد من هذا النجاح؛ إذ عُيّن، من قِبَلِ الدوق دوكيز، مديراً للباستيون،[2] كما أنه استفاد من علاقته الجيدة مع الجزائريين؛ حيث اشترطوا؛ كما نصت عليه الوثيقة السالفة الذكر، بقاءَه قائداً للباستيون مدى الحياة، واستفادتَه أيضا من عدة تفضيلات، كالحرية الملاحية التي منحت لسفنِه على الشواطئ الجزائرية.

ثالثا: أنشطة الباستيون

إنّ هذه المعاهدةَ وتلك التفضيلات جعلت وكالةَ الباستيون تضاعفُ نشاطَها وتوسّعه؛ فبعدما كان ينحصرُ في صيد المرجان، وفي تجارة الجلود والشمع والكتان، كما هو مسموح لها من قَبْلُ، إذ بها تقتحم نشاطَ تجارةِ الحبوب بقوة؛ فتقوم بتصدير كمّياتٍ كبيرةٍ نحو فرنسا. ويبدو أنّ الجزائريين كانوا يغضّون الطَّرْفَ عن هذا النشاطِ الغيرِ مُرَخّصٍ به، إكراماً لصديقهم القائد نابلون. بل كانوا يَدعَمون هذا الأخيرَ، حتى أمام خصومِه من تجار وحكام مرسيليا.[3]

---

[1] – أنظر الملحق رقم 9.

[2] –Paul Masson: op.cit, p30.

[3] –Eugène Plantet: Les correspondances des deys d'Alger avec la cour de France, T1, p4.

كما أنّ التزكيةَ التي تحصل عليها من الملك الفرنسي، لويس الثالث عشر، قد أكسبَه ثقةً وقوةً إضافيتين.[1]

وتحدثنا الوثائقُ عن حرص موظفي الباستيون على استغلالِ هذه الظروفِ الملائمةِ لتوريد كمياتٍ كبيرةٍ من القمح نحو فرنسا؛ فهذا لازارين دي سيرفيان(Lazarin de Servian)؛ نائبُ مدير الباستيون، وفي غياب نابلون في مهمةٍ بمدينة الجزائر، سنة 1039هـ/1630م، يسعى بكل ما يستطيع لتصدير كميات كبيرة نحو فرنسا.[2] كما أنّ نابلون نفسَه لم يتوانَ في تزويد وطنِه فرنسا بكميات كبيرة من القمح، عندما اجتاحته المجاعةُ في مطلع الثلاثينات من القرن السابع عشر، فتحدثنا الوثائقُ عن قيامه بشحن آلاف الكمّياتِ على السفن المتوجهة نحو مرسيليا، سنتي 1040-1041هـ/1631-1632م. كما دخل في مفاوضاتٍ مع الأهالي، ومع السلطات المحلية لتجميعِ كمياتٍ إضافيةٍ لتحميلها على متن السفن القادمة من مرسيليا.[3]

وعلى كلٍّ حال، فإنّ وكالةَ الباستيون قد شهدت نشاطاً كبيراً خلال فترة ترأُّسِ سانسون نابلون لإدارتها، ورغم ما تخلّل هذه الفترةَ من بعض الأعمال العدائية التي خلّفت توتراً بين البلدين، والتي حتمت تدخلَ نابلون شخصياً لتطويق تبعاتها، إلاّ أنّ ذلك لم ينعكس على نشاط الباستيون؛ إذ لم نجد في المصادر ما يشير إلى تعثرِ هذه الوكالة، أو نقصٍ في نشاطها.

2- نشاط الباستيون خلال عهد خلفاء نابلون(1633-1659م)

أولا: جهود سانسون لوباج.

يبدو أنّ مرحلةَ ما بعد سانسون نابلون، ستكون مختلفةً عن سابقتها في صيرورة العلاقات بين البلدين، ذلك أنّ الضامنَ للسلم بين البلدين قد زال بوفاة نابلون، سنة 1043هـ/

---

(1) -Charles Féraud: op.cit, p147.

(2) -H.-D. De Grammont: Relations entre la France et la régence d'Alger au XVIIe siècle, p105. وانظر الملحق رقم 13.

(3) -Ibid, p132. وانظر الملحق رقم 14.

1633م؛[1] فقد استغلّ الفرنسيون الوضعَ الجديدَ ليبادروا بطرح الاقتراح؛ الذي طالما رفض الراحلُ نابلون عرضَه على الجزائريين، لتعديل بنود الاتفاقية الماضية لسنة 1037هـ/1628م. فتحدثنا الوثائق عن تعيين الملك الفرنسي لويس الثالث عشر لسانسون لوباج (Sanson Le Page) كقائدٍ للباستيون، خلفاً لنابلون، وتكليفِه بمهمة مفاوضة الجزائريين لتعديل بعض بنود معاهدة 1037هـ/1628م، لتشملَ قضيةَ الأسرى التي أضحت تؤرِّق الفرنسيين كثيراً.[2] وإن كنا لم نعثر في المصادر؛ التي تحدثت عن هذه الفترة، عمّا يشير إلى تعديلٍ في هذه المعاهدة أو التوصلِ إلى توافقٍ حول قضيةِ الأسرى، إلا أنها تشير إلى سيادة جوٍّ من عدم الثقة بسبب المواجهات البحرية المحدودةِ التي كانت تقع بين الفينةِ والأخرى.[3]

وتحدثنا المصادرُ عن أنّ وكالة الباستيون، عند قدومِ المدير الجديد، كانت لا تزال قائمةً، وأنها كانت تمارس نشاطها في صيد المرجان، وفي التجارة، إلا أنّ المصادرَ نفسَها لم تبين لنا إن كان هذا النشاط يماثل ما كان في عهد نابلون أم تناقص.[4] ويبدو أنّ التجارَ الفرنسيين كانوا يحضَوْن بمختلف المساعدات، سواءً من قِبلِ السلطاتِ المحليةِ، أو حتى من قِبلِ الأهالي.[5] إلاّ أنّ قصفَ الأميرال دي منتي(De Manti) لمدينة الجزائر، سنة 1637م/1047هـ، واستيلاءَه على سفينتين تجاريتين جزائريتَيْن، أدّى إلى توقفِ نشاط الباستيون بالكامل، بعد قيامِ الجزائريين بتهديمه.[6]

ثانيا: انجازات دي كوكيل .

بين سنتي 1048-1049هـ/1638-1639م، لم يعمد الفرنسيون إلى إصلاحِ علاقتِهم مع الجزائر؛ بسبب انهماكِهم في حروبهم ضد اسبانيا، فلم يكن في مَيْسورهم الخوضَ في

---

(1) – هناك رسالة مؤرخة في فيفري 1629م/رجب1038هـ، بعثها سيدي حمودة؛ أمين ديوان الجزائر، إلى حكام مرسيليا، يحذرهم فيها من المساس بشخص نابلون أو استبداله؛ لأنه هو الضامن الوحيد للسلام بين البلدين. أنظر: Eugène Plantet: op.cit, T1, p52. وانظر الملحق رقم 12.

(2) -H.-D. De Grammont: op.cit, p138. وانظر الملحق رقم 15.

(3) -Eugène Plantet: op.cit, T1, p52.

(4) -R.P.Pierre Dan: Histoire de Barbarie et de ses corsaires, p54.

(5) –Mouloud Gaid: Chronique des Beys de Constantine, p19.

(6) -Eugène Plantet: op.cit, T1, p53.

المفاوضات. إلا أنه في نهاية 1049هـ/1639م قدِمَ إلى الجزائر النبيلُ دي كوكيل(Jean-Baptiste de Cocquiel) مرفوقاً بالتاجرِ الليوني توماس بيكي(Thomas Piquet)، وكُلّفا بمهمةِ المفاوضات لإعادة السلام بين البلدين ولتأهيلِ الباستيون.[1] وقد نجحَ قائدُ الباستيون الجديدُ دي كوكيل في عقدِ اتفاقٍ مع الجزائر سنة 1049هـ/1640م، وجاء هذا الاتفاق في قسمين؛ خُصَّ القسمُ الثاني منه بالجانب التجاري، ونصَّ في البند الثالث على السماحِ للفرنسيين بترميم الباستيون وملحقاتِه.[2]

لقد مَنَحَت المعاهدةُ، التي تخصّ المؤسسات التجارية، للتجارِ الفرنسيين حقَّ استغلال هذه المؤسسات مقابلَ34.000 ضبلون تدفع سنوياً لخزينة الجزائر.[3] غيرَ أنّ فرنسا امتنعت عن المصادقة عليها واعتبرهما الكاردينال ريشيليو إهانةً لشرف وعظمة فرنسا، رغمَ أنّ البندَ 23 ينص على عدم التعرض لنشاط الباستيون، مهما كانت الظروفُ، وحتى في حالة الحرب مع فرنسا، شريطةَ التزامِ الوكالة بدفع المبلغِ السنوي السالفِ الذكر.[4] إنّ هذا البندَ يعتبر أهمَّ إنجاز حققه دي كوكيل، والذي بموجبه تمكنت الوكالةُ من الحفاظ على نشاطها طيلةَ الفترة الممتدة من سنة 1049هـ/1640م، إلى غاية 1068هـ/1658م، وهي السنة التي قام فيها خليفة دي كوكيل؛ السيد توماس بيكي، بافتعال أزمة مع الجزائر؛ حيث قام بنفسه بتهديم الباستيون، ثم هرب إلى ليفورن، بعد أن أخذَ معه مجموعةً من الأسرى الجزائريين.

ثالثا: خيانة توماس بيكي

هناك عِدّةُ رواياتٍ للحادثة التي وقعت سنة 1068هـ/1658م، والتي أدّت إلى تهديمِ الباستيون. فبينما يرى فيرو أنّ مديرَ الباستيون توماس بيكي؛ الذي أغرقَ وكالتَه بسيلٍ من الديون المستحقة لحكومة الجزائر، لم يجد بُدّاً من النجاةِ من تهديدات الباشا سوى الهروبَ نحو ليفورن مصطحباً معه مجموعةً من الأسرى الجزائريين، كان من ضمنهم أربعةُ شواش؛ كان

---

(1) -Charles Féraud: op.cit, p161.

(2) -R.P.Pierre Dan: op.cit, p56.

(3) -F.Elie de La Primaudaie: "Le Commerce et la Navigation de l'Algérie", p469.

(4) -H.-D. De Grammont: op.cit, p172.

الباشا قد بعث معهم رسالةَ التهديد إلى بيكي،[1] نجد مولود قايد يتحدث عن تلك الثورة التي قام بها الأهالي، سنة 1068هـ/1658م، ضدّ التجارِ الفرنسيين؛ بسبب عدمِ كفاءتِهم، وعدمِ التزامهم بالتعهدات التي قطعوها معهم، حينها شعر توماس بيكي بهذا التهديد، فقام بتهديم الحصن، وحمل معه مجموعةً من العمال الجزائريين، وأخذهم كرهائن؛ أينَ باعَهم في ليفورن، في يوم 25 أكتوبر 1658م/1068هـ.[2]

في حين يرى آخرون بأنّ أصحابَ الطرق الدينية، وسكانَ السواحل البروفانسية، ما فتئوا يكيدون للجزائر، ويعقدون حلفاً مقدساً مسيحياً لتخريب مدينة الجزائر؛ عشِّ القراصنة كما يصفونها؛ وذلك انتقاماً من قراصنتها الذين يغيرون في بعض المناسبات على السواحل البروفانسية، ويأسرون العديدَ من المسيحيين، كما كانوا يزعُمون.[3] ولّما علم الباشا إبراهيم بعزم هؤلاء، سنة 1068هـ/1658م، هدّدَ الفرنسيين بانتقامٍ شديد، وبتهديم الباستيون. وقد أخذَ مدير الباستيون، توماس بيكي، هذا التهديدَ على محمل الجَدّ، فقام بتهديم الحصنِ بنفسه، ثم عرج على القالة و قام بأسر 75 جزائرياً ثم هرب نحو ليفورن أينَ باعَ هؤلاءِ.[4]

ومهما كان سبب قيام بيكي بتهديم الباستيون، فإنّ الواقعَ أنّ هذه الوكالةَ توقفت عن نشاطها. ورغم عدمِ رضى الملكِ الفرنسي لويس الرابع عشر عن تصرفاتِ بيكي، إلا أنه لم يعاقبه، وعيّن مكانه لويس كومبون(Louis Campon).[5] ثم راسل إبراهيم باشا، طالباً من الجزائريين قَبولَ هذا المسئول الجديدِ، وتسهيل مهمته.[6] وتذكر المصادرُ أنّ الديوانَ قبل رسالةَ الملك، لكنّ إنشاءَ الباستيون ثانية تأخرَ بسبب اضطرابِ الأوضاعِ الداخلية في الجزائر.[7]

---

(1) –Charles Féraud: op.cit, p168.

(2) –Mouloud Gaid: op.cit, p21.

(3) – عزيز سامح إلتر: المرجع السابق، ص379.

(4) –H.-D. De Grammont: op.cit, p202.

(5) – يقول الفارس دارفيو بأنّ الملك الفرنسي سارع إلى افتداء الأسرى الجزائريين في ليفورن. أنظر:
Laurent d'Arvieux: Mémoires du chevalier d'Arvieux, 6Tomes, Chez Jean-Baptiste Delispine, Paris, 1735, T5, p61.

(6) – الرسالة مؤرخة في14 جوان 1659م.أنظر: Eugène Plantet: op.cit, T1, p56. وانظر الملحق رقم 17.

(7) –Abel Boutin: Anciennes Relations Commerciales et Diplomatiques de la France avec la Barbarie 1515-1830, p334.

المبحث الثاني

العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر

1- أوضاع الجزائر خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر.

استمر الباشوات في التربُّعِ على هرم السلطة في الجزائر مثلَ ما كانوا عليه خلال الفترة السابقة، لكنّ نفوذَهم بدأ ينحسر لصالح الديوانِ الذي يسيطر عليه طرفا السلطة الغريمان في الجزائر؛ طائفةُ الريّاس والانكشاريون. وقد رأى هؤلاء شجعَ الباشوات وتنفيذَهم لأوامر السلطان دون أخذ أوضاعِ الجزائر الداخلية والإقليمية بعين الاعتبار، فقرّروا القضاءَ نهائيا على هؤلاء الباشوات القادمين من اسطنبول، وينفردوا بحكم الجزائر.

وقد ازدادت عمليّات السلبِ والنهبِ التي ترتكبها عناصرُ الانكشاريةِ وازداد تسلّطُها؛ فقد ذكر داروندا(Emanuel d'Aranda) أنّ الباشا كان يخشى سطوتَهم أكثرَ من خشيته من السلطان؛ حيث كانوا لا يمهلونه أكثرَ من ثلاثِ ساعات ليسدد رواتبَهم.[1] ويمكننا أن نجمل أهمَّ ما ميز أوضاعَ الجزائر، في الفترة موضوعِ الدرس، بما يلي:

أولا: ثورة الكراغلة[2]

كان الكراغلةُ يشعرون بالحَيْف والظلم، لأنّ الأتراك؛ الذين كانوا يتَوَجَّسون من تعاونهم مع أخوالِهم الجزائريين، حرموهم من المناصب العليا في الدولة، وقد بدأت أعدادهم في التزايد؛ إذ بلغوا مع سنة 1038هـ/1629م، 5000 كرغلي، مقابلَ 10000 تركي، في مدينة الجزائر وحدها.[3] وقد كانوا يتحيّنون الفُرَصَ للثورة على النظام القائم، وأخذِ حقوقهم بالقوة، وتحقيقِ ما عجزوا عنه من قَبلُ[4]. وقد اعتبروا سنة 1042هـ/1633م، الفرصةَ المناسبةَ، بالنظر إلى أوضاع البلاد آنذاك، وما كانت تموج به من اضطرابات وثورات، فدخل 57 منهم مدينةَ الجزائر، متنكرين في زي الفلاحين، واستقروا في القصبة. ويبدوا أنهم كانوا يُعَوِّلون على

---

[1] –Emanuel d'Aranda: Relation de la Captivité , Chez Gervais Glousier, Paris, 1657, p55.

[2] – الكراغلة: هم أبناء الأتراك من أمهات جزائريات.

[3] –Boyer Pierre: "Le problème Kouloughli dans la régence d'Alger", in, R.O.M.M, N°:8, 1970, p 81.

[4] – قام الكراغلة بأول ثورة لهم سنة 1596م، لكن ثورتهم فشلت و لم تحقق شيئاً.

انتفاضة شعبية في المدينة، إلاّ أنّ ذلك لم يحدث، وانتهى الأمر إلى استعادة الأتراك زمامَ المبادرة، وتمكنوا من القضاء على المتمردين بعنفٍ شديدٍ، و لم ينج منهم إلاّ من فرَّ إلى بلاد القبائل.[1]

ورغم أنّ الديوانَ قد وقّعَ، سنة 1048هـ/1639م، اتفاقيةً مع القبائلِ الثائرةِ تتضمن بنداً خاصاً يتمثل في العفوِ عن الكراغلة اللاجئين في تلك المناطق، إلاّ أنه لم يدخل حيزَ التطبيق، وبدأت قوة الكراغلة تتضاءل أمامَ الحصار الذي ضربه عليهم آباؤهم الأتراك.[2] وإن كانت هذه الثورة لم تحقق لهم الحقوقَ التي كانوا يصبُون إليها، إلاّ أنه سُمح لهم، بعد ذلك، بالمشاركة في الغزوِ البحري، وإن بأعدادٍ ضئيلةٍ.[3]

ثانيا: ثورة ابن الصخري وعلاقتها بتهديم الباستيون سنة 1637م.

إذا كان سبب تهديم الباستيون في المرة السابقة؛ أي سنة1012هـ/1604م، هو تجاوزُ هذه الوكالة حدودَ المعاهدةِ التجارية؛ فإنّ تهديمَه في هذه المرّة قد جاءَ كردٍّ على حملة دي منتي على مدينة الجزائر في نوفمبر 1637م/1047هـ. وإن لم يكن أثرُها ظاهراً على المدينة إلا أنّ استهدافَ سفينتين تجاريتين كانتا قادمتين من تونس، قد أفرزَ ردّة فعلٍ فوريّة، إذ توجّهَ الرايس علي بتشين[4]، في ديسمبر 1637م/1047هـ، على رأس قوة بحرية نحو الباستيون وقام بتهديمه، وأسرِ مَن كان فيه مِن العمال والجنودِ.

لكن ما لم يكن في حسبان حكام الجزائر هو انفجارُ الوضع في بايلك الشرق، بعد قيام ثورةٍ عنيفة هزّت أركانَ النظام العثماني في الجزائر، وكادت تطيح به لأنها شملت المنطقةَ الواقعةَ بين الزاب وحدودِ تونس إلى دارِ السلطان؛ مدينةِ الجزائر ونواحيها، واستغرقت فترةً طويلةً،

---

(1) – عمار بن خروف: العلاقات بين الجزائر والمغرب(923-1069هـ/1517-1659م)، ص59.

(2) –Boyer Pierre: op.cit, p 83.

(3) –Ch. de Rotalier: Histoire d'Alger et de La Piraterie Turque dans la Méditerranée, T2, p324.

(4) – علي بتشين: من أقوى رياس الجزائر خلال النصف الأول من القرن السابع عشر. أصله من البندقية بايطاليا و اسمه بتشينيو(Piccinio)، يعتبر من الرياس الأثرياء، وكان يتمتع بنفوذ كبير داخل ديوان الجزائر، ويذكر بعض القناصل الفرنسيين أنه كان من الرافضين للسلام مع فرنسا، كما عُدّ من المعارضين للتعاون العسكري مع الدولة العثمانية؛ خاصةً بعد كارثة الأسطول الجزائري في فالونا سنة 1638م. بقي أميرالاً للبحرية الجزائرية إلى غاية وفاته سنة 1645م. أنظر: جميلة ثابت: دور الأعلاج في العلاقات بين الجزائر ودول جنوب غرب أوروبا خلال القرنين 10-11هـ/16-17م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، المركز الجامعي بغرداية، 2011-2012م، ص ص 149-154.

وتسببت في سقوطِ عددٍ من الباشوات، ومات فيها خلقٌ كثيرٌ، وقد دخل بايلك قسنطينة بسببها في فوضى لم يبرأ منها طويلاً.[1]

وهاجم الثوارُ مدينةَ قسنطينة، وجاءت النَجَداتُ من الجزائر إلى مراد باي. وقد امتدت الثورة إلى عنابه والزيبان والصحراء. وانتصر الثوار في معركة "قجال" يوم 30سبتمبر 1638م/1048هـ، وهرب خلالها مراد باي و لم يعرف مصيره.[2]

فهل هناك علاقة بين اندلاع ثورةِ ابنِ الصخري وتهديمِ الباستيون، سنة 1046هـ/ 1637م؟

إنّ جلَّ من تحدثوا عن ثورة ابن الصخري قد أشاروا إلى وجودِ علاقةٍ بين الحادثتين، فقد أرجعَ الأب دان؛ الذي كان معاصراً لتلك الثورة، سببَ اندلاع الثورة في الشرق إلى رفض القبائل دفعَ اللّزمةِ السنويةِ، بعد تهديم الباستيون، مما حدى بالديوان، سنةَ 1048هـ/1638م، إلى تجهيز محلّتين لاستخلاصها بالقوة، وهذا ما تسبب في اندلاع المواجهة المسلحة بين تلك القبائل وسلطاتِ الجزائر، والتي توسّعت فيما بعد لتتعدى حدودَ بايلك الشرق.[3]

وقد نشر فيرو جزءاً من مخطوط عربي يتحدث عن هذه الثورة،[4] ويرجع سببَ اندلاعها إلى قيام مراد باي قسنطينة، في صفر 1047هـ/جوان 1637م، بحبس شيخِ العرب محمد بن الصخري بن بوعكاز الهلالي؛ قائدِ الذواودة والحنانشة، حيث اتهمه بالخروج عن الطاعة، وشاور في شأنه باشا الجزائر والديوانَ، فأشاروا عليه بقتلِه. فقتله هو وابنه أحمد وستةً من أعيان العرب، وعلّق رؤوسَهم على أبواب قسنطينة.[5] لكنّ الملاحَظَ أنّ التمردَ الذي قادَه أخو المغدور به؛ أحمد بن الصخري، لم يبدأ إلا بعد سنةٍ من هذه الحادثة، حسب المخطوط دائماً.

---

[1] – أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، 10أجزاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ج1، ص216.

[2] – يذكر ابن المفتي أنه قتل، غِيلةً، من طرف أحد زعماء الثوار، في صفر1049هـ/1639م. أنظر:
حسين بن المفتي: تاريخ بشوات الجزائر وعلمائها، ص51.

[3] –R.P.Pierre Dan: op.cit, p132.

[4] –Charles Féraud: Epoque de L'établissement des Turcs à Constantine, in, R.A, V10, 1866, p179.

[5] –M. E. Vayssettes: "Histoire de Constantine sous La Domination Turque de 1517 à 1837", p333.

لكنّ ابنَ المفتي؛ الذي يُرجعُ بدايةَ هذه الثورة إلى جمادى الأولى سنة 1048هـ/ سبتمبر1638م، يحدثنا عن زعيمٍ آخر لهذه الثورة هو خالد أُومحمد بن علي، شيخُ الحنانشة والذواودة، كما يصفه.[1]

وبالجمع بين روايات هذه المصادر، نتبين أنّ الثورةَ التي اندلعت في بايلك الشرق، لم تكن موحّدةً، وإن جاءت متزامنةً. فخالد أُومحمد بن علي ثار مع قبائل الحنانشة التي كانت تستوطن السواحل الشرقية من عنابة حتى القالة، وكانت المستفيدَ الأكبرَ من المعاملات التجارية مع الباستيون وملحقاته. ويبدو أنّ هذه الثورةَ جاءت في شكل رفض لدفع الضرائب بعد تهديمِ المراكز الفرنسية التي كانت تمثل مصدراً مهماً لمداخيلها.

أما أحمد بن الصخري، فقد وجد في تمردِ خالد أُومحمد حافزاً له للثورة على مراد باي انتقاماً لمقتل أخيه ومَنْ معه. وغالبُ الظنِّ أنّ استهدافَه للمحاصيل الزراعية بالحرق والنهب، كما تتحدث المصادر،[2]كان بهدف استثارةِ بقيةِ القبائل والبطون؛ والتي لم تجد منفذاً لتصريف تلك المحاصيل بعد تهديمِ المراكز التجارية الفرنسية، للالتحاق بركب الثورة.

ويبدو أنّ السلطاتِ الجزائرية قد دخلت في مفاوضاتٍ مع المتمردين، ووصلت معهم، سنة 1048هـ/1639م، إلى اتفاقٍ يقضي بدفع اللزمةِ السنويةِ، مقابلَ إعادة بناء الباستيون وملحقاتِه.[3] إلاّ أنّ هذا الاتفاقَ؛ الذي لم يدخل حيّزَ التنفيذِ إلاّ في ولاية يوسف باشا 1049-1051هـ/ 1640-1642م، والذي قام في 7جويلية 1640م/1049هـ بعقد معاهدة السلم والتجارة مع دي كوكيل،[4] لم يشمل كلَّ بطونِ القبائلِ الثائرةِ؛ فقد استمرت القبائلُ الداخليةُ في الثورة، واضطرها الظروفُ المستجدةُ[5] وضرباتُ الانكشاريةِ إلى الانسحابِ نحو المناطق الصحراوية.

---

(1) – حسين بن المفتي: المصدر السابق، ص50.

(2) -Charles Féraud: op.cit, p181.

(3) –A. Berbrugger: "Notes Relatives à la Révolte de Ben Sakheri", in, R.A, V10, 1866, p345.

(4) –Mouloud Gaid: op.cit, p19.

(5) – المقصود بالظروف المستجدة، هي انسحابُ القبائل الساحلية من صفوف الثوار، عقب التوقيع على معاهدة 1640م، وهي التي كانت تطالب بإعادة بناء الباستيون.

لكنّ المؤكدَ أنّ الثورةَ لم تنتهِ بمعاهدةِ 1049هـ/1640م، وإعادةِ ترميم الباستيون وملحقاته، بل استمرت إلى غاية 1056هـ/1647م؛ فهذا داروندا يتحدث عن تجهيز الباشا لثلاثِ محلاّتٍ، سنةَ 1051هـ/1642م، لغرض إخماد الثورة.[1] كما أنّ الباشا يوسفَ قد تنقّل بنفسه إلى بايلك الشرق، سنةَ 1051هـ/1642م، لغرض القضاءِ على المتمردين، بل وتحجج بتأخيره إعلانَ الجهاد ضد الأسبان في وهران هو سعيُه لإخضاعِ المتمردين؛ كما صرح بذلك في الرسالة التي بعثها إلى المرابط الشيخ محمد الساسي البوني.[2] وخرج في حملة أخرى، سنة 1056هـ/1647م، في ولايته الثالثة.[3]

و يمكننا أن نستنتجَ أنّ ثورةَ ابنِ الصخري قد اندلعت عَقِبَ تهديمِ الباستيون، وإن لم يشكل هذا الحدثُ سبباً مباشراً في إشهار أحمد بن الصخري لسيف التمرد ضد حكام الجزائر، إلا أنه قد وجد في رفضِ القبائل المتعاملة مع المراكز الفرنسية لدفع اللزمة السنوية؛ احتجاجاً على تهديم وكالة الباستيون، فرصةً مناسبةً لتَجْييش مختلفِ قبائل البايلك ضمن ثورةٍ مُوَسّعة.

كما أنّ هذه الثورةَ؛ التي نعتتها بعضُ المراجع بأنها ثورةٌ كبيرةٌ، وأنها كانت تهدّد الوجودَ التركي في الجزائر، لم تكن موحدةً. كما أنها لم تتقوَّ وتتوسعْ، حسب ما نرى، إلى بعدَ ضَعف السلطة المركزية من جرّاء الصراع المحموم الذي كان بين أجنحتها؛ فقد تعرض كثير من الباشوات في هذه الفترة، إمّا إلى السجن، أو القتل، على أيدي الأوجاق المتعطشين للانقلاب على أيّ باشا يتأخر في تسديد رواتبهم. ويبدوا أنّ تناقصَ عوائدِ البحر بسبب تحديد نشاط البحرية الجزائرية بموجب اتفاقاتِ السلام التي عُقدت مع بعض الدول الأوربية، خاصة فرنسا، قد أدى إلى شحِّ موارد خزينةِ القصبة، وبالتالي زاد في تأزم الوضع.

---

(1) –Emanuel d'Aranda: op.cit, p 99.

(2) – للاطلاع على النص الكامل لهذه الرسالة، أنظر:

أبو القاسم سعد الله: "أربع رسائل بين باشاوات الجزائر وعلماء عنابه"، في الثقافة، ش.و.ن.ت، الجزائر، ع 51، جمادى الثانية- رجب 1399هـ/مايو- جوان 1979م، ص21.

(3) – حسين بن المفتي: المصدر السابق، ص52.

وقبل أن نختم الحديثَ عن هذا الموضوع ينبغي التنبيه إلى أنّ هذه الثورةَ قد أعقبتها مجاعةٌ هائلةٌ عمّت بايلك الشرق؛ حيث حدث غلاءٌ كبيرٌ في المواد الغذائية، خاصة الحبوب، كما تذكر بعض المصادر.[1]

ثالثا: أوضاع البحرية الجزائرية

لقد واصلت البحريةُ الجزائرية في بداية هذه الفترة تفوقَها على البحرية الأوربية؛ فقد ذكر الأب دان أنه بين 1037-1043هـ/ 1628-1634م، كان تعداد القواتِ البحرية الجزائرية 70 سفينة، كلٌّ منها مزودٌ بـ 25 إلى 40 مدفعاً، واستولى البحارةُ الجزائريون، في الفترة ذاتها، على 80سفينةً فرنسيةً، بلغت قيمتها 4.752.600 ليرةً، وأسروا حوالي 1331فرنسياً.[2] وفي سنة1040هـ/1631م توغلت تشكيلةٌ من البحرية الجزائرية في المياه البريطانية، واستولت على 49 سفينةً انجليزية، ثم أغارت على مدينة بالتيمور(Baltimore)، وأسرت 109شخصاً.[3] وقد أعاد غزاةُ البحر الجزائريون الكرّةَ سنة 1046هـ/1637م، حين دخلوا القنالَ الانجليزي وقاموا بمهاجمة السواحل الشمالية لفرنسا.[4] أمّا الغائمُ المحصلةُ من الأسبان والايطاليين فقد كانت أكبرَ من ذلك؛ منها ما جناه الرايس علي بتشين، سنة 1048هـ/ 1639م، من غارته على مدينة كالابريا(Calabria)؛ حيث أسر ألفَ شخصٍ واستولى على سفينتين اسبانيتين، كانت احداهما محملةً بـ 60سبيكة فضة.[5]

وقد حَضِيَ هذا التفوقُ بإعجاب السلطان العثماني، الذي كان لا يجد حرجاً في الاستنجاد بالبحرية الجزائرية في صراعه مع البنادقة، أو حتى مع الروس. وكان الريّاس الجزائريون يسارعون إلى إنجاد الدولة العثمانية، كلّما طُلب منهم ذلك، حتى حدوثِ كارثةِ فلونا (la Vélone) في أوت 1638م/1047هـ؛ وملخصها أنّ البابَ العالي استنجد بأسطول الجزائر لمساعدته في حروبه في منطقة البحر الأدرياتيكي بشرق المتوسط، وذهب

---

(1) – صالح العنتري: مجاعات قسنطينة، تح: رابح بونار، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974م، ص45.

(2) -R.P.Pierre Dan: op.cit, p322.

(3) – المنور مروش: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، ج2، ص323.

(4) – وليم سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، ص171.

(5) – المنور مروش: المرجع السابق، ج2، ص322.

الرايس علي بتشين على رأس هذا الأسطول، لكنّ العواصفَ الهوجاءَ اضطرته إلى الاحتماء ببعض موانئ الأدرياتيك، خاصة ميناء فلونا في ألبانيا؛ حيث تعرض لهجوم غادر من الأميرال البندقي مارينو كابيللو (Marino Capello) أدى إلى تحطيمِ نصفِه تقريبا ومقتلِ 1500بحارٍ، إضافةً إلى الكثيرِ من قادته.[1] ورغمَ أنّ البابَ العالي وعد بدفع 500.000أوقية كتعويضٍ لتلك الخسائر إلا أنه لم يفِ بعهده،[2] ممّا جعل الجزائرَ تعمل بجدٍّ على معارضةِ الكثيرِ من التعليمات التي تأتي منه، ما دامت لا تكترث بأوضاع الجزائر الداخلية والإقليمية.

وقد اعتبر كثيرٌ من المؤرخين، هذه الكارثةَ بمثابة نقطةِ انعطافٍ في مسيرة البحرية الجزائرية خلال التاريخ الحديث؛ حيث ستشهد هذه المؤسسةُ، في قابلِ الأيامِ، تذبذباً في قوتها، وتراجعاً في نشاطها.[3]

رابعا: ثورة الآغاوات

لقد كانت طائفةُ الريّاس تستحوذ على السلطة في الجزائر، منذ بداية العهد العثماني؛ إذ يعود لهم الفضل في ضمّ الجزائر إلى الدولة العثمانية، وفي تحرير المدنِ الساحلية. لكنّ انشغالَهم بأعمال الغزوِ البحري، وبمواجهةِ القوى الأوربية، جعلهم ينصرفون عن مهمةِ حفظِ النظام العام، وتوسيع حدود الدولة نحو المناطق الداخلية، لصالح جنودِ الانكشارية؛ الذين بدأت أعدادهم في التوافد على الجزائر منذ قَبول السلطان العثماني سليم الأول ضم الجزائر إلى السلطنة العثمانية، سنة 924هـ/1519م.

لكنّ نفوذَ هؤلاءِ الأوجاق بدأ يتزايد في نهاية القرن السادس عشر؛ مع بداية عهدِ الباشوات ذوي الثلاث سنوات، ووصل ذروتَه حين أصبحوا يتحكمون في مصير مبعوثي السلطان؛ أي الباشوات، كلّما ترددوا في دفع رواتبهم، أو سعَوْا إلى الحد من نفوذِهم.[4]

---

(1) –Moulay Belhamissi: "Course et contre-course en méditerranée ou comment les algériens tombaient en esclavage", in, Cahiers De La Méditerranée, N°:65, 2002, p6. http ://cdlm.revues.org/index36.html, 03/03/2011, 22 :35.

(2) –Stanley Lane-Poole: The Story of the Barbary Corsairs, p195.

(3) – المنور مروش: المرجع السابق، ج2، ص327.

(4) –Pierre Boyer: "La révolution dite des "Aghas" dans la régence d'Alger (1659-1671)", in, R.O.M.M, N°:13-14, 1973, p160.

وقد شهد عهد الباشا إبراهيم (1066-1069هـ/1656-1659م) حدوثَ توترٍ كبيرٍ بينه وبين جناحَيْ السلطةِ في الجزائر، ريّاسِ البحر والإنكشاريةِ، بسبب رغبتِه في اقتطاع نصيبه؛ المقدّرِ بنسبة عشرةٍ في المائة، من المبلغِ السنوي الذي كان يبعث به السلطان إلى ريّاس البحر الجزائريين، نظيرَ انشغالِهم بالخدمة في الأسطول العثماني عن الغزوِ البحري.[1] هذا التصرفُ من الباشا قوبلَ بثورة عليه، وعلى نظامِ الباشوات. وقد استغل الأوجاق هذه الظروف وقاموا بالاستيلاء على الحكم باسم نظام الآغاوات؛ كان ذلك في جوان 1659م/1069هـ، حين اعتُقِلَ إبراهيم باشا من قِبَلِ الثائرين، وأركبوه في سفينةٍ، وبعثوا به إلى أزميرَ، وأجلسوا مكانه الآغا خليل بولكباشي.[2] وهذا ما أدى إلى حدوث أزمةٍ كبيرةٍ بين الجزائرِ والسلطنةِ العثمانيةِ، حيث غضب الصدرُ الأعظمُ غضباً شديداً لهذا الوضع، وقام بقتل الباشا المطاحِ به؛ إبراهيمَ، وبعث برسالة إلى الجزائر يتوعّد فيها الثائرين الجزائريين، وأرسلَ أوامرَ السلطان إلى كلِّ الموانئ والولايات العثمانية بمقاطعة الجزائريين المتمردين.[3]

2-أوضاع فرنسا خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر.

لقد تكلمنا في الفصل السابق عن سياسة رشيليو، وقلنا أنها كانت ترتكز على هدفين رئيسيين هما بسط سلطة الملك داخلياً، وتقوية فرنسا خارجياً؛ ففرنسا لم تكن بعدُ أمةً موَحدةً، لأنّ الإقطاعَ والدينَ قطّعا أوصالَها، بل كانت مجموعةً مضطربةً من الإقطاعيين المغرورين، أشباهِ المستقلين، القادرين في أية لحظةٍ على تكدير السِّلْم وتمزيق اقتصادِ الدولةِ. وكان أكثرُ الأقاليم يحكمه الأدواق أو الكونتات؛ الذين يدعون لأنفسهم حقَّ حكمها مدى الحياة، ويوَرثونها أبناءَهم. ولاح لريشليو أن البديلَ العمليَّ الوحيدَ لهذه الفوضى المضعفة هو تركيزُ النفوذ والسلطة في يد الملك.[4]

---

[1] - جون وولف: الجزائر وأوربا 1500-1830، ص137.

[2] -Pierre Boyer: op.cit, p163.

[3] - عزيز سامح إلتر: المرجع السابق، ص387.

[4] - ول ديورانت: قصة الحضارة، تر: زكي نجيب محفوظ، 11 جزءاً، مطابع الدجوي، القاهرة، 1971، ج7، ص956.

وبعد انتهائه من ضرب الهيجونوت، أصدر ريشليو "مرسوم العفو" في 28 يونيو 1629م/1038م؛ والذي فُتحت، بموجبه، وظائفُ الجيش والبحريةِ والحكومة أمامَ الجميع دون نظرٍ للعقيدة، ومن ثَمّ فقد أقلع هؤلاء عن الثورة، وانصرفوا في هدوءٍ إلى التجارة والصناعة، وأصابوا من التوفيق والفلاح ما لم يصيبوه في أي وقت مضى.[1]

أولا: ريشيليو يبني قوة فرنسا العسكرية

لقد تطورت القوةُ العسكريةُ الفرنسية خلال عهد رشيليو؛ فبعد أن كانت القوّات البرية لا تتجاوز أعدادُها عشرة آلاف جندي، سنة 1018هـ/1610م، إذ بها تقفز، سنة 1038هـ/1629م، إلى ستين ألفًا، لتتجاوز، سنة 1049هـ/1640م، مائةً وأربعةً وستين ألف جندي.[2] وكانت هذه القوّات قد شاركت في الحروب الإيطالية، والحروبِ الدينية، وفي إخضاعِ الهيجونوت. إلاّ أنّ ريشيليو كان يتطلع إلى البحارِ والاستعمارِ الخارجي؛ فأخذ يفكر في إنشاء الأسطولِ البحري؛ خاصةً وأنه في هجومه على حصن دي لاروشيل البحري اضطرَّ للاستعانة بالسفن الهولندية. كما أنّ ضَعفَ الخبرة البحرية ألحقت أضراراً كبيرةً بالتجارة الفرنسية؛[3] ولهذا عمل ريشيليو على بناءِ الأسطولِ لأغراض التجارةِ والدفاعِ والاستعمارِ الخارجي مثل هولندا وأسبانيا والبرتغال. وتذكر الوثائقُ أنه عُيِّن قائداً عاماً للبحرية التجارية الفرنسية، منذ أكتوبر 1626م/1035هـ.[4]

واستخدم ريشليو الضرائبَ لبناء الجيوش والأسطول؛ فجنّد مائة فوج من المشاة، وثلاثمائة جندي من الخيّالة؛ وردّ النظامَ إلى الجيش. كما أصلحَ الموانئَ وحصّنَها، وأنشأَ الترساناتِ ومخازنَ الذخيرة في الثغور، وبنى خمساً وثمانين سفينة، وأسس مدارسَ لمرشدي السفن، ودرّب أفواجَ الجنود البحريين.[5] وحسبَ دي سوردي(H. de Sourdis)، فقد قام ريشيليو بمعاينةِ

---

[1] – ميلاد أ. المقرحي: تاريخ أوربا الحديث، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، 1996م، ص188.

[2] – جفري برون: تاريخ أوروبا الحديث، ص281.

[3] – عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين: التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، مدينة نصر، 1999م، ص166.

[4] –Ph. Prévost de Beaulieu-Persac: Mémoires de Philippe Prévost de Beaulieu-Persac, Pub: Gh. de la Roncière, Librairie Renouard, Paris, 1913, p190.

[5] – نور الدين حاطوم: تاريخ القرن السابع عشر في أوروبا، ص256.

سفنِ البحرية الانجليزية والمغاربية، ومعرفةِ عواملِ القوة في بحرية هذه الدول، بهدف الاستفادة منها في النهوض بالبحرية الفرنسية.[1]

وهكذا تمكن ريشيليو من رفع فرنسا إلى مصافِّ الدول العظمى، ورغمَ ذلك لم يَسْلَم من المؤامرات في القصر، وتعرّض ريشيليو للكثير من المشاكل. كما أنّ الكثيرَ من إصلاحاته كانت على حساب الشعب الفرنسي؛ الذي أُثقل بالضرائب. وتوفي قبل لويس الثالث عشر، في ديسمبر 1642م/1052هـ.[2]

ثانيا: الوزير الأعظم مازران (1643-1661م)

لم يَنْشَب لويس الثالث عشر، أن التحق بوزيره ريشيليو؛ بعد حوالي سبعةِ أشهر. وكان وريثَه على العرش ابنُه لويس الرابع عشر(Louis XIV). لكنّه كان صبياً، فأصبحت أمه آن النمساوية وصيةً عليه.[3] وبسبب عدم درايتها بشؤونِ الحكم، فقد استعانت بالوزير مازران (Mazarin)، الذي كان من أصلٍ إيطاليٍ. وبما أنّ الشعبَ الفرنسيَ بطبعه لا يحب أن يُحكمَ من أجانبٍ، فقد كره الملكةَ وزيرَها، وقام ضدَّهما بالثورة التي كادت أن تعصفَ بالمَلَكيّة الفرنسية؛ وهي ثورة الفروند(les Frondes) .[4]

وقد اشتعلت هذه الثورة عندما رفض برلمانُ باريس الموافقةَ على الضريبة؛ التي فرضها مازران في أوت 1648م/1057هـ،[5] وكان جزءاً من دعاة الثورة نبلاءُ، وبعضهم الآخر

---

[1] –Henri de Sourdi: Correspondance de Henri d'Escoubleau de Sourdis, 2 Tomes, L'imprimerie de Chapelet, Paris, 1839, T1, Introd, p ij.

[2] –Aurélien Fayet et Michelle Fayet: L'histoire de France des Origines à Nos Jours, p127.

[3] –Charles Louandre: Siècle de Louis XIV, 2 Tomes, Charpentier et C^{ie} Libraire-éditeur, Paris, 1874,T1, p22 .

[4] – معناها لغةً المقلاع، أما اصطلاحاً فهي تعني الاضطرابات التي جرت في فرنسا بين 1648-1653م. أما سبب التسمية فهي أنّ بعض الشبان المشاركين في الثورة كانوا يرمون خصومهم بالمقاليع. وللتعرف على مراحل هذه الثورة أنظر:

Pitre Chevalier: Chroniques de la Fronde (1648-1652), Victor Lecou Libraire-éditeur, Paris, 1852.

[5] – عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين: المرجع السابق، ص169.

أعضاءُ برلمانِ باريس، فتوَحّدَ هؤلاء بغرض توسيع صلاحياتِ النبلاء، أما البرلمانيون فأرادوا التأكيدَ على الحرية المدنية والضماناتِ الدستوريةِ، وإدخالَ نظامِ الرقابة على الأموالِ العامة.[1]

لكنّ الأحداثَ الخارجيةَ لم تخدمْهم؛ لأنّ انتصاراتِ فرنسا في حروب الثلاثين عاماً كانت قد تحققت، فأضعفت الثوارَ، واضطروا للتصالح مع مازران سنة 1058هـ/1649م؛[2] حيث وافقت الحكومةُ على الاقتراحات المالية، لكنّها سرعانَ ما استردتها وسحبتها.[3]

أما فيما يخصُّ الحربَ مع اسبانيا، فقد نجح مازاران في عقد صلح معها، في 7 نوفمبر 1659م/1070هـ، عُرف بصلح البرانس(Traité des Pyrénées)، والذي أسفر عن الزواج الملكي بين عرشَيْ المملكتين؛ حيث تزوج لويس الرابع عشر الأميرةَ الأسبانيةَ ماريا تريزا(Maria Theresa) ، وذلك من أجل تحسين العلاقات بين الطرفين؛ حيث وضع هذا الزواج حداً للحرب بين البلدين دام أكثرَ من ثلاثٍ وعشرين سنة.[4]

وقد توفي مازاران سنة 1071هـ/1661م، وحينَها وجد لويس الرابع عشر الفرصةَ مناسبةً لأن يَحكمَ فرنسا وحدَه، وبهذا تدخل فرنسا عصرَ الرخاءِ وأوجِ العظمة.[5]

3- العلاقات بين البلدين

إذا كانت العلاقات الجزائرية الفرنسية، خلال الفترة السابقة، قد تميزت بالعداء الشديدِ، والقطيعةِ الشبهِ تامّة. فإنّ الفترةَ موضوعَ الدرس قد غلبت عليها أجواءُ الهدوء والسلام، بسبب عودة الحراكِ الدبلوماسي بين البلدين بقوة؛ إذ شهدت عقدَ معاهدتين للسلام سنتي 1037هـ/1628م، و1049هـ/1640م. كما أن النشاطَ التجاريَ قد بلغ ذروتَه في بفضل هاتين والمعاهدين؛ حيث عَرَفَت وكالةُ الباستيون استقراراً وازدهاراً، في أغلب الأحيان.

أولا: معاهدة 1628م.

---

[1] – جول مازاران: دليل السياسي الناجح، ص48.

[2] – عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين: المرجع السابق، ص170.

[3] – نور الدين حاطوم: المرجع السابق، ص262.

[4] –Charles Louandre: op.cit, T1, p63.

[5] – عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين: المرجع السابق، ص172.

لقد تكلمنا في المبحث الأول عن قدومِ سانسون نابلون، إلى الجزائر سنة 1035هـ/ 1626م، لغرض إنهاءِ سنواتِ القطيعة والحربِ بين البلدين، وقد أبدَت فرنسا في هذه المرة رغبتَها واستعدادَها لإعادة العلاقات فبذلت ما في وسعها لتهيئة الأرضية. وكحسن نيةٍ منها؛ فقد أطلقت سراحَ الأسرى الجزائريين، وأفرجت عن المدفعيْن البرونزييْن، كما مر بنا.

ويبدو أنّ تزايدَ نفوذ انكلترا في الجزائر، كان عاملاً مُؤثِّراً في انتهاج فرنسا لسياسة التقارب مع الجزائر. فلم تكن فرنسا تهدف إلى إعادة السلام فحسب، بل كانت تسعى إلى الفوز بالمكانة الأولى لدى حكومة الجزائر، غيرَ أنّ حكومةَ الجزائر أكدت للمبعوث الفرنسي أنّ شروطَ الصلح ستكون مثلَ التي تمت مع انكلترا.[1]

كما أنّ ركودَ الاقتصاد الفرنسي، بعد مذبحة البعثة الجزائرية سنة 1028هـ/1620م، بسبب أعمالِ القراصنةِ الجزائريين، قد أرغم الفرنسيين على المسارعة لإحلال السلام مع الجزائر.[2] وفي المقابلِ، لم يكن الجزائريون في عجلةٍ من أمرِهم، بل كان هناك تيار قوي يعارض إحلال السلام مع فرنسا[3]؛ إذ سيحرمه الوضعُ الجديدُ من عوائدِ القرصنة على السفن والأهداف الفرنسية، ومع ذلك فقد توصل نابلون؛ الدبلوماسي المحنّكُ، بأساليبَ شتى إلى إقناع الجبهة المعارضة. ويذكر بعضهم، في هذا الصدد، أنّ قيمةَ الهدايا التي وزعها على أصحابِ الديوان وأهلِ الحل والعقد، كانت خمسين ألف فرنك، وهو مبلغٌ معتبرٌ في تلك الأثناء، فضلاً عن المساعي التي بذلها من أجل إعادة المدفعَيْن والإفراجِ عن الأسرى، فبلغت تكاليفُ المفاوضات مثلما تورده بعض الوثائق 82190 جنيهاً.[4]

---

(1) – استمرت انكلترا في محاولاتها لعرقلة المفاوضات فاتهمت المبعوث الفرنسي بحمله لفرمانات مزورة. وحتى بعد نجاح سانسون نابلون في مفاوضته لم تنفك عن ذلك. ولم تكن انكلترا المنافس الوحيد لفرنسا بل نافستها كل من اسبانيا وجنوة. إذ جاء في رسالة من سانسون نابولون إلى الدوق دوكيز: " إن الأسبانيين والطبرقيين؛ أي الجنويين، يحرضون حكومة الجزائر على قطع علاقاتها مع فرنسا فمنحوا أموالا باهظة ...". أنظر :
عائشة غطاس: العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر، ص13.

(2) –Paul Masson: Histoire de Commerce Français dans le Levant au XVIIe Siècle, p 118.

(3) – حسب مراسلات القناصل الفرنسيين فقد كان يتزعم تيار المعارضين للسلام مع فرنسا الرايس علي بتشين. أنظر:
Henri de Sourdi: op.cit, T2, p400.

(4) –H.-D. De Grammont: op.cit, p69.

وقد تُوِّجت مفاوضاتُ المبعوثِ الفرنسيِّ؛ التي استغرقت حولين كاملين، بإبرامِ معاهدةٍ سياسيةٍ وتجاريةٍ بتاريخ 19 سبتمبر 1628م/1037هـ،[1] وجاءت في ستةَ عشر بنداً، وكانت أكثرَ وضوحاً وشموليةً من معاهدة 1028هـ/1619م.[2] كما تمكن نابلون من إبرام اتفاقيةٍ بشأن وكالة الباستيون، كما مرّ بنا.

ورغم ما تضمنته المعاهدةُ من امتيازاتٍ، فيبدو أنها لم تكن في مستوى طموحِ فرنسا؛ إذ حرمتها من مكسبٍ طالما تمتعت به، وهو حريّةُ نقلِ مختلفِ البضائعِ، على متن سفنها، حتى ولو كانت مِلكاً لأعداءِ الدولة العثمانية. كما فرضت على السفن الفرنسية التفتيشَ، وهو شرط كان يأنَف منه الفرنسيون كثيراً. أما الاتفاقيةُ بخصوص إعادة نشاط الباستيون، فقد ثار ريشيليو ضدها، خاصة فيما يتعلق بالبند الذي جعل تعيينَ المسئول على المؤسساتِ التجارية الفرنسية في الجزائر من صلاحياتِ الباشا وحدَه.[3]

وما يمكن استنتاجه من إبرام هذه المعاهدة، أنها أضحت مُنقذةً لاقتصادِ الفرنسيين من الانهيارِ، بعد تحصينِ سفنهم من القرصنة الجزائرية، وتأهيلِ مراكزِهم التجارية في شرق الجزائر. إلا أنها تُعتبر في الوقت ذاته نجاحاً للدبلوماسية الجزائرية، ودليلاً على الثِّقَلِ الذي أصبحت تتمتع به الدولةُ الجزائريةُ في الحوض الغربي للمتوسط؛ فالسفنُ الفرنسية التي كانت تُعدُّ، قبلَ التوقيع على هذه المعاهدة، أهدافاً سهلةً للريّاس الجزائريين، أصبحَ محتماً عليها، الآن، أن تُذعنَ صاغرةً لأوامر هؤلاء، بتفتيشها في أي بقعة بحرية يصادفونها، كما أنّ عليها تقديمَ المساعدة الضرورية لسفن الجزائر إذا طُلب منها ذلك. أما فيما يخص وكالةَ الباستيون وملحقاتِها، فرغم إذْنِ الجزائريين لنظرائهم الفرنسيين بالعودة إليها، إلاّ أنهم حَدُّوا من استقلاليتها، بعد أن اشترطوا

---

[1] – لقد أشار جمال قنان بأنها قد وقعت في 19 مارس، وقد يكون هناك خطأ مطبعي؛ لأننا وجدنا في النسخ التي نشرها دوفو أو البارون دومون، أو حتى دوكارد، بأنها كانت بتاريخ 19 سبتمبر. أنظر: جمال قنان: المرجع السابق، ص314. وللاطلاع على البنود الكاملة لهذه المعاهدة، أنظر:

Le baron Jean Dumont: Corps universel diplomatique du droit des gens contenant un recueil des traites d'alliance de paix, T5, p559. /A. Devoulx: Les Archives de Consulat Général de France à Alger, p5. /E. Rouard de Card: op.cit, p15.

[2] – جمال قنان: المرجع السابق، ص75.

[3] –Paul Masson: Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique barbaresque, p40.

أحقِّيَّتَهم بتعيين مسئوليها، أو إقالتِهم. وقد أبدى الفرنسيون امتعاضَهم من هذه البنود الغيرِ عادلة، كما يصفونها، إلا أنهم لم يجدوا بُداً من قَبولها.

والحقيقة أنّ الرضى بهذه المعاهدة لم يكن محلّ توافقٍ من قِبلِ كلِّ الفرنسيين، ففي حال رضي بها التجارُ، خاصة المارسيليون منهم، فقد كانت محلَّ سَخَط من قبل السياسيين ورجال الدين[1]. فالصراع الخفيُّ الذي كان بين هاذين المعسكرين، أي التجارِ ورجالِ الدين، هو الغالبُ على السياسة الخارجية الفرنسية، في تلك الفترة.

لقد كانت تجاذباتُ المصالح بين التجار ورجالِ الدين، في تلك الفترة، هي التي أسهمت في إرباكِ سياسة فرنسا مع الجزائر. فمن جهة كانت فرنسا تريد السلامَ، لأنّ تجارَها كانوا يرَوْنَ في هذه الوضعية أفضلَ ظَرْفٍ لإنعاش تجارتهم، والنهوضِ باقتصاد بلادهم، كان رجالُ الدين، من جهة أخرى، يرَوْنَ في الحرب أفضلَ وسيلةٍ لإجبار القراصنةِ الجزائريين على عدم القيام بأعمال عدوانية على السفن والمراكزِ الفرنسية، وبالتالي مزيداً من الأسرى، إنهم كانوا يرون في مواجهة الجزائر حرباً صليبيةً مقدسةً.[2]

ويبدو أنّ الغلبةَ، في هذه المرة، كانت لهؤلاء؛ إذ رغم أنّ هذه الاتفاقيةَ قد أصبحت ساريةَ المفعولِ، منذ توقيعها، وأنّ الجزائريين قد احترموا بنودَها، إلا أنّ الفرنسيين، ورغم استفادتهم مما تمخضت عنه من فوائدَ تجاريةٍ، كانوا هم السباقين للإخلال بأجواء السلام التي سادت بين الطرفين مدةً من الزمن.[3]

ففي ربيع سنة1039هـ/1629م، بدأ القراصنةُ الفرنسيون يتعرضون للسفن الجزائرية، التي كانت تظن أنّ السفنَ الفرنسيةَ هي سفنٌ صديقةٌ؛ فقاموا بأسر زورقٍ قُبالةَ سواحلِ سردينيا، كانت العواصفُ قد أجبرته على الانفصال عن بقيةِ قطعِ الأسطول الجزائري. وبعد عدة أيام طلب الجزائريون النجدةَ من سفينة فرنسية بالقرب من السواحل الاسبانية، فقام

---

[1] – ينبغي الإشارة هنا إلى أنّ رجال الدين كانوا هم المسيطرون، في تلك الفترة، على الطبقة السياسية الفرنسية، خاصة في محيط البلاط الفرنسي؛ فالوزير الأول رشيليو، مثلاً، كان كاردينالاً. أما التجار فقد أسندت لهم في أغلب الأحيان وظائفُ قنصلية.

[2] –Capot-Rey: "La politique française et le Maghreb méditerranéen (1643-1685)", in, R.A, V75, 1934, p53.

[3] – وليم سبنسر: المرجع السابق، ص205.

الفرنسيون بالاستيلاء على السفينةِ الجزائرية، وباعوا طاقمَها للسفن الاسبانية، فنتجَ عن ذلك هيجان شديدٌ في الجزائر، وكادت الحربُ أن تَنْشَبَ، لولا تدخّلِ القنصلِ الجديد، السيد ريكو (Ricou)، ومديرِ الباستيون، السيد نابلون، واللّذَيْن تعهّدا بمعاقبة المجرمين الذين ارتكبوا ذلك.[1] لكن في نهاية أكتوبر1629م/1039هـ ، قامت سفينةُ المبعوثِ الفرنسي إلى المغرب، الفارس كارنييه (le chevalier Garnier) ، بأسرِ سفينةٍ جزائريةٍ صادفتها في مياه سلا، وكانت هذه السفينة يقودها الرايس محمد خوجة؛ وهو من كبار الشخصيات في الجزائر.[2] وعلى الفور قام الريّاس الجزائريون بالردّ على الفرنسيين بالمثل، فاستولوا على كثير من السفن الفرنسية.[3] ولما قام القنصلُ الفرنسيُّ بالاحتجاج، أُلقي به في السجن، وقُيِّد بالحديد. فأسرع القائد نابلون، ودفع مبلغ 10000قرشاً لقاءَ إنقاذِه.[4] ويبدو أنه نجح في نزع فتيل هذه الأزمة التي ألّمت بالعلاقة بين البلدين؛ إذ لم يُقْدِم الجزائريون على مهاجمة المراكز التجارية، كما كانوا يفعلون من قبل. كما أنّ المصادرَ لم تحدثنا عن توتر كبير عرفته العلاقاتُ بين البلدين خلال الفترة التي تلت تدخلَ سانسون نابلون. لكن بعد وفاته سيجد خلفاؤه صعوبةً في المحافظة على السلام، وفي حمايةِ الوكالات التجارية.

ثانيا: معاهدة 1640م.

أ– العلاقات بعد وفاة نابلون

بعد وفاة نابلون سنة 1042هـ/1633م، عُيّن في منصبه سانسون لوباج، وكانت أهمَّ قضية كُلِّفَ بها هي تعديلُ بنود معاهدة 1037هـ/1628م، والتي كان الراحلُ نابلون يرفض طرحَها على حكام الجزائر. وكانت أولى التعليمات التي وُجّهت لسانسون لوباج، هي منعُ الجزائريين من تفتيشِ السفن الفرنسية، والدخولِ للمياه الإقليمية الفرنسية. فضلاً عن ذلك، فقد

---

(1) – عزيز سامح إلتر: المرجع السابق ، ص.339

(2) – Moulay Belhamissi: op.cit, p3.

(3) – جمال قنان: المرجع السابق، ص79.

(4) – H.-D. De Grammont: op.cit, p97..13 وانظر الملحق رقم

كُلِّفَ بافتداء وتبادلِ أسرى الحرب منذ 1038هـ/1629م، وباسترجاع وكالة الباستيون، إذ عيّنَه لويس الثالث عشر والياً عليها خلفاً لنابلون.[1]

كان وصوله، مرفوقاً بالأب دان، إلى مدينة الجزائر يوم السبت 15جويلية 1634م /1044هـ. وقد استطاع البدءَ في المفاوضات فورَ وصوله؛ خاصّةً بعد الاستقبال الجيد الذي لقِيَه من قِبل أعضاء الديوان.[2] لكنّ غيابَ الباشا، جعل المفاوضاتِ تتعثرُ بسبب انتظار الحكومة للباشا الجديد المعيَّن من طرَفِ الباب العالي. وبعد وصولِ الباشا يوسف؛ الذي جعل تسويةَ الخلافِ من صلاحياتِه وحدَه، عارضَ بشدّةٍ مطالبَ فرنسا، ورفضَ إطلاقَ جميع الأسرى الفرنسيين، كما رفض إرجاعَ البضائعِ والسفنِ المستولى عليها.[3]

عندما تبين للوباج أنه لا يمكن تحقيق هذه المطالب دفعةً واحدةً، وبعد مشورة الأب دان؛ الذي قَدِم أساساً لغرض افتداء الأسرى، رأى أنه من الحكمة التركيزُ على قضية الأسرى، فاقترح الإفراج على ثلاثمائة واثنتين وأربعين أسيراً فرنسياً مقابلَ ثمان وستين أسيراً جزائرياً. لكنّ الحكومةَ الجزائريةَ رفضت هذا التبادلَ الغيرَ متكافئ.[4]وفسر الأب دان فشل هذه المفاوضات بلجوء الباشا إلى حيلة استعمال بعض النساء على أنهن أزواجُ أسرى جزائريين؛ حيث جئن يصرخن أمامَ بابِ القصبة "شرع الله، شرع الله". وهذا ما جعل الباشا يرفض إطلاقَ سراحِ الأسرى الفرنسيين قبلَ عودة كلِّ الأسرى الجزائريين.[5] بينما فسَّرَ آخرون ذلك بأنه يعود إلى شجع وطمع الباشا. وبهذا فشلت مهمة لوباج، وعاد إلى فرنسا دون أن يحقق شيئا.[6]

---

(1) -Ibid, p138. وانظر الملحق رقم 15.

(2) -R.P.Pierre Dan: op.cit, p42.

(3) - عائشة غطاس: المرجع السابق، ص56.

(4) -H.-D. De Grammont: op.cit, p157.

(5) -R.P.Pierre Dan: op.cit, p45.

(6) -H.-D. De Grammont: op.cit, p158.

لقد ازدادَ موقفُ فرنسا تشدداً، وعَمَدت إلى تأجيج الحربِ مع الجزائر؛ حيث أوصى نائب أميرال البحرية الفرنسية، دي سوردي، في إحدى مراسلاته،[1] بإرسالِ أسطولٍ يجوب مياهَ البحر الأبيض المتوسط لمطاردة البحارةِ الجزائريين.

وتذكر المصادرُ أنّ القائدَ دي مانتي كان على رأس حملةٍ تتشكل من ثلاثِ عشرةَ سفينةِ حربٍ، توجه بها نحو الجزائر في نوفمبر1637م/1047هـ، بغرضِ إجبار الجزائريين على إطلاق سراح كلِّ الأسرى الفرنسيين، وتعديلِ معاهدة 1037هـ/1628م. لكنّ أغلبَ سفنِه تحطمت بسبب عاصفة بحرية، و لم تصل إلى ميناء الجزائر سوى قطعتين. وبعد دخوله إلى ميناء الجزائر بالعلمِ الأبيضِ، وتزوّده بما يحتاجه من مؤنٍ وأدواتٍ، كما جاء في مراسلة يوسف باشا إلى الملك الفرنسي،[2] وفيما كان سانسون لوباج يشرحُ للحكام الجزائريين مهمةَ هذه الحملة الذي كان أحدَ أفرادها، إذ به يرفع العلمَ الأحمرَ ويسارع إلى الخروج من الميناء، ثم يقوم بقصف المدينة بالمدفعية، ويستولي على سفينتين تجاريتين قادمتين من تونس قبلَ أن يلوذَ بالفرار.[3] إنّ هذه الحادثة قد زادت في توتر الأوضاع، وتعطّلت على أثرها العلاقات التجارية بعدما صدرت الأوامر للرايس علي بتشين باستئصال التواجد الفرنسي في شرق الجزائر، فتوجه بسفنه إلى الباستيون في نهاية شهر ديسمبر 1637م/1047هـ، وقام بتهديم الحصن وأسر 317 فرنسياً اقتيدوا إلى مدينة الجزائر.[4]

---

[1] –Henri de Sourdi : op.cit, T1, p441.

[2] – الرسالة مؤرخة في سنة 1648م، وقد قام الباشا يوسف في هذه الرسالة بسرد الأحداث التي وقعت بين البلدين، طيلة العشرين سنة الماضية، ولهذا فهي تعتبر وثيقة هامة. أنظر: Eugène Plantet: op.cit, T1, p52. وانظر الملحق رقم 16.

[3] –P.Dan: op.cit., p55.

[4] -H.-D. De Grammont: op.cit, p158.

إنّ أغلب المصادر والمراجع، التي اطلعت عليها، تتحدث عن أنّ الرايس علي بتشين هو من قام بتهديم الباستيون في هذه المرة، إلا أنّ جمال قنان أتانا برواية أخرى، مفادها أنّ السكان هم الذين قاموا بهذا العمل انتقاما لفعلة دي مانتي، وأنّ السلطات المركزية لم تكن راضية عن ما فعله هؤلاء، لأنها كانت تريد المضيَ قُدُماً في طريق السلام مع فرنسا. أنظر: جمال قنان: المرجع السابق، ص79.

ب- دي كوكيل ومعاهدة 1640م.

إنّ الأحداثَ، التي سبقت الإشارةُ إليها، قد عادت بوضع العلاقات بين البلدين إلى المربع الأول في مطلع هذا القرن، وهذا ما جعل الفرنسيين يكتشفون جسامة ما فعله دي مانتي. ويبدو أنّ سنتي 1047-1048هـ/1638-1639م لم تشهدا تحركاً دبلوماسياً بين البلدين، ذلك أنّ الجزائرَ، كما يرى يحي بوعزيز، كانت تحت وقع نكبةِ الأسطول الجزائري في فالونا.[1] كما أنّ فرنسا كانت مشغولةً بحروبها في أوربا.

لكن مع نهاية 1049هـ/1639م، كَلَّف البلاطُ الفرنسي القائدَ دي كوكيل بترؤس وفدٍ لمفاوضة الجزائريين حول اتفاق سلامٍ جديدٍ.[2] وقد نجح بالفعل في التوصّلِ إلى معاهدة سلم وتجارة، تكاد تكون طبقَ الأصل لتلك التي تفاوض سانسون نابلون بشأنها منذ إحدى عشرةَ سنة.[3]

لقد جاءت هذه المعاهدةُ في شقّها السياسي[4] في ستة عشر بنداً، وقد ركزت على قضايا الأسرى وتنظيمِ الملاحة البحرية واحترامِ القنصلِ الفرنسي، وغيرِها. لكن ما يلفت النظرَ في هذه البنودِ، هو تحدثها عن مسلمي الأندلس الفارين من اسبانيا نحو فرنسا، فنصّت المعاهدة على ضرورةِ رعاية فرنسا لهؤلاء، وتسهيلِ السُّبُل لترحيلهم نحو الجزائر. وفي هذا دلالة على أنّ مأساةَ الأندلسيين لازالت مستمرة، وأنّ الجزائر؛ بصفتها أكبرَ قوةٍ إسلاميةٍ في الحوض الغربي للمتوسط، قد أخذت على عاتقها رعايةَ هؤلاء، والتكفلَ بمحنتهم، بل وتذَكُّرَهم حتى في معاهدتها الدولية.

أما الشيءُ الآخرُ، فهو أنّ البند 14 من هذه المعاهدة ينصُّ على ضرورة وجودِ ممثلٍ أو قنصلٍ جزائري لدى البلاط الفرنسي ليسهر على تطبيق بنود هذه المعاهدة. ونستنتج من هذا أنّ

---

(1) – يحي بوعزيز: علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا، ص73.

(2) -Henri Garrot: Histoire Générale de l'Algérie, p483.

(3) – ج.وولف: المرجع السابق، ص294.

(4) – لقد حوت هذه المعاهدة على شقين سياسي وتجاري، وبما أننا قد تكلمنا عن بنود الشق التجاري في المبحث الأول من هذا الفصل، فسنركز هنا على الشق السياسي. وللاطلاع على البنود الكاملة للمعاهدة بشقيها أنظر:
جمال قنان: المرجع السابق، ص317.

الدبلوماسيةَ الجزائريةَ قد بلغت درجةً متقدمةً من التطور والاستقلالية عن الدبلوماسية العثمانية. وأصبحت الجزائر، بحكم الواقع، دولةً مستقلةً، تعقد المعاهدات مع دول العالم، وتبعث قناصلها وتستقبل قناصل الدول الأخرى.

وقد اختلف المؤرخون في تفسير مسارعةِ الجزائريين إلى التوقيع على معاهدة 7جويلية 1640م/1049هـ، والسماحِ للفرنسيين بإعادة بناء الباستيون من جديد؛ فمن قائل أنّ ذلك يرجع إلى حاجةِ خزينة مدينةِ الجزائر للعوائدِ التي كانت تضخّها وكالةُ الباستيون وملحقاتُها،[1] ومنهم من يرجع ذلك إلى الضغط الداخلي الذي أحدثته ثورةُ ابنِ الصخري، ومطالبةِ أهالي الشرق الجزائري؛ المنضمين إلى الثوار، بإعادة بناء الباستيون الذي كان يوفر لهم مورداً اقتصادياً هاماً.[2] لكنّ الوثائقَ التي بين أيدينا تحدثنا عن سبب آخر أدّى بالجزائريين إلى توقيع سلام جديد مع الملك الفرنسي، وهو تلك المعلوماتُ التي وصلتهم عن طريق أسرى الباستيون، والتي فهموا من خلالها أنّ اعتداءَ دي منتي لم يكن مُبَيَّتاً، وأنّ الملكَ الفرنسي لم يرض عمّا أحدثه هذا الأميرال مع الجزائر.[3]

وقد أشرنا في المبحث الأول إلى أنّ رشيليو رفضَ التوقيعَ على المعاهدة التجارية، واعتبرها إهانةً لفرنسا، وقد عمدَ إلى استعمال القوة بغيةَ تعديل نصوص المعاهدة، فأوكل إلى نائب أميرال الجيش البحري، السيد دي سوردي، قيادةَ الأسطول والتوجهَ إلى الجزائر. وبعد إرسائِه بالميناء بعثَ برسالة إلى الباشا، مؤرخة في 13 أكتوبر 1640م/1049هـ، يوضّحُ فيها مطالبَه؛ ومن أهمّ ما جاء فيها: "... أنه ونظراً لاستحالة إقامةِ سلام طويل المدى مع السادة رؤساءِ الانكشارية فإنّ جلالةَ الملك قد أمرني بأن أتوجّه على رأس أسطوله البحري وأن أرسُوَ بالميناء، وأن لا أُقلع إلا بعد الاتفاق حول فحوى المعاهدة..."[4]

كما أنّ الأميرال دي سوردي قد بعث، في نفس التاريخ، رسالةً إلى مدير الباستيون، السيد دي كوكيل، يحثُّه فيها على " فعل كل ما في وسعه لإرغام هؤلاء على تعديل بنودِ هذه

---

(1) –F.Elie de Laprimaudaie: op.cit, p466.

(2) –A. Berbrugger: op.cit, p22.

(3) –Eugène Plantet: op.cit, T1, p52. وانظر الملحق رقم 16.

(4) –Ibid, T1, p47.

الاتفاقية الغيرِ عادلة، وإلا فإنّ جلالةَ الملك يمتلك من الوسائل التي ترغم هؤلاء على العودة إلى جادة الصواب.."[1] غيرَ أنّ حكومةَ الجزائر رفضت إدخالَ أيّ تعديلٍ على معاهدة 1049هـ/ 1640م، وانتهي الأسطول إلى الإقلاع دونَ أن يحققَ أدنى شيءٍ.

لم تيأس فرنسا من هذا الإخفاق، فأرسلت عمارةً حربيةً أخرى في صائفة 1050هـ/ 1641م، وكان مآلُها مآلَ حملتها السابقة، ورجع الأسطولُ الفرنسي في محاولاته العديدة مهزوماً. ويبدو أنّ وفاةَ ريشيليو، في ديسمبر 1642م/1051هـ، قد وضعت حداً لهذه الحملاتِ، كما رجّحت كفّة المرحبين بمعاهدة السلام مع الجزائر في البلاط الفرنسي، على فريقِ الرافضين لها.[2]

ويمكن القولُ أنّ معاهدةَ 1049هـ/1640م، بشقّيْها، قد نظّمت العلاقاتِ السياسيةَ والتجاريةَ بين البلدين، مدة عشرين سنةً، تقريباً. وقد حرص كلٌّ طرَفٍ على احترامها والتقيّدِ بنصوصها؛ إذ رغمَ بعضِ المواجهات البحرية التي كانت تحدث عَرَضاً بين الطرفين، إلا أنّ ذلك لم يتطور إلى صراع مفتوحٍ بينهما.[3]

---

[1] –Henri de Sourdi: op.cit, T2, p398.

[2] –H.-D. De Grammont: op.cit, p177.

[3] – جمال قنان: المرجع السابق، ص85.

المبحث الثالث

تأثير نشاط الباستيون على العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر

لقد تعاقب على إدارةِ الباستيون، خلال الفترة موضوعِ الدرس، أربعُ شخصياتٍ هم: سانسون نابلون، سانسون لوباج، ديكوكيل، وتوماس بيكي. وبحكم أنهم بالدرجة الأولى تجارٌ، فالمفترض فيهم أنهم سيحرصون كلَّ الحرصِ على توطيدِ أجواءِ السلام بين البلدين، إلاّ أنهم لم يكونوا بدرجة متساوية من الحنكة السياسية، كما أنهم لم يكونوا يتمتعون بنفوذٍ قويٍ داخلَ البلاط الفرنسي، يستطيعون بواسطته مواجهةَ التيارِ الديني المتشدّد، والذي كان يعمل على إذكاءِ نارِ الحرب مع الجزائر.

وقد أثّرت وكالةُ الباستيون بموظّفيها وأنشطتِها، خلالَ هذه الفترة، في العلاقاتِ السياسية والتجارية، وحتى الاجتماعيةِ بين البلدين.

1- في العلاقات السياسية:

رغم الصبغةِ التجارية لوكلاء الباستيون، إلا أنهم كثيراً ما كانوا يُقحَمون، سواءً راغبين أو مُرغَمين، في العلاقات السياسية بين البلدين؛ حيث لعبوا، في كثير من الأحيان، دورَ الوسطاء في المفاوضات لعقد اتفاقياتٍ ثنائيةٍ، أو لتطويقِ الأزماتِ التي كانت تعصف بالعلاقاتِ بين الطرفين، من حين لآخر.

وفي هذا الصدد نذكر الدورَ البارز لسانسون نابلون في عقد اتفاقية 1037هـ/ 1628م، كما أشرنا لذلك من قبلُ؛ حيث سهرَ شخصيا على احترام بنودها، بعد الثّقةِ الكبيرةِ التي أولاها له حكامُ الجزائر، كما أنه تدخل شخصياً في تطويق حادثةِ السفينة الجزائرية التي أسرها الفرنسيون قُبالةَ السواحل الاسبانية سنة1038هـ/1629م، كما ساهم في إنقاذِ هذه الاتفاقية من شبح الانهيار بعد حادثة أسرِ الفرنسيين لسفينة الرايس محمد خوجة قُبالة سواحل سلا، وما تلاها من مناوشاتٍ حربيةٍ بين الطرفين؛ حيث قام بدفع مبلغٍ مقداره 10000قرشاً من خزينة الباستيون.[1]

---

[1] –H.-D. De Grammont: op.cit, p97. وانظر الملحق رقم 13.

كما أنّ خليفة نابلون؛ أي سانسون لوباج، قد كُلّف بمهمةٍ أولية بعد تعيينه مديراً للباستيون؛ وهي التفاوضُ مع الجزائريين لتعديل بنود اتفاقية 1037هـ/1628م، والتي كان نابلون يرفض الخوض في هذا المطلب، بغيةَ الحفاظ على السلام مع الجزائريين.[1]

وتحدثنا الوثائقُ[2] عن طلبِ الفرنسيين من ديكوكيل؛ الذي نجح في عقد معاهدة 1049هـ/1640م، الضغطَ على الجزائريين بغيةَ تعديل بنودها، الغيرِ عادلة كما وصفوها.

إضافةً لكل ذلك فقد كان لوكلاءِ الباستيون أسهامٌ في قضية الأسرى؛ التي كانت تؤرق كِلا الطرفين؛ الجزائري والفرنسي. فنجد أنّ سانسون نابلون نجحَ في إقناع الفرنسيين بتحرير الجزائريين المأسورين في مرسيليا، قبل عقد معاهدة 1037هـ/1628م.[3] كما أنه وُفِّقَ في تحرير القنصل الفرنسي في الجزائر من السجن، بعد اعتداءِ الفرنسيين على سفينة الرايس محمد خوجة، سنة 1038هـ/1629م.[4]

أما سانسون لوباج فقد قدِمَ إلى الجزائر مرفوقاً بالأب دان؛ المكلّفِ بمعالجة ملفِّ الأسرى مع السلطات الجزائرية. ورأينا أنه، وبعد أن تيقن بأن مهمته آيلةٌ إلى الفشل، اضطُرَّ إلى التركيز على قضية الأسرى، فاقترح الإفراج على 342 أسيراً فرنسيا مقابل 68 أسيراً جزائرياً. لكنّ الحكومةَ الجزائرية رفضت هذا التبادلَ الغيرَ متكافئ.[5]

كما أنّ أهمَّ موضوعٍ ركز عليه دي كوكيل، في مفاوضاته لعقد معاهدة 1049هـ/ 1640م مع يوسف باشا، هو قضية الأسرى،[6] بل إنه وعد بتحرير 36 جزائريٍ مأسورين في مدينة تولون (Toulon)، و20 آخرين من مُجَدّفي السفنِ الفرنسية، قبلَ التوقيعِ على معاهدة

---

(1) –Ibid, p138.

(2) –Henri de Sourdi: op.cit, T2, p398.

(3) –Eugène Plantet: op.cit, T1, p25.

(4) – جمال قنان: المرجع السابق، ص79.

(5) –H.-D. De Grammont: op.cit, p157.

(6) –R.P.Pierre Dan: op.cit, p56.

1049هـ/1640م.[1] إلا أنّ توماس بيكي شذَّ عن قاعدة أسلافه، من مديري الباستيون؛ حين قام بأسر حوالي 70جزائرياً، وهرب بهم إلى ليفورن؛ أين باعهم.[2]

وهكذا نتبيّن أنّ قضية الأسرى كانت ضمنَ اهتمامات مديري الباستيون، رغم دورهم في التجارة. ويبدو أنّ تصدي هؤلاء لموضوع الأسرى كان، حسب ما نرى، بسبب ضغط التيار الديني المتعصب المسيطرِ على البلاطِ الفرنسي، والذي كان يرفض أيَّ تقارب مع الجزائر مادام هناك أسرى مسيحيون يقعون في أيدي قراصنتها. أمّا استئثارُهم بالمفاوضات مع الجزائر حول معاهداتِ السلام، وحرصُهم على تثبيتها، ودَيْمومتها، فهو ينبعُ من رغبتهم، ورغبةِ مَن وراءَهم من فريق التجارِ الطامحين لعوائد المؤسسات التجارية في الجزائر، وما تُدِرُّه عليهم ثروات الجزائر من أرباحٍ. كما أنّ القناصلَ الفرنسيين؛ والمفترضُ إدارتهم لهكذا قضايا، كانوا لا يحضَوْن، في غالب الأحيان، بثقة حكامِ الجزائر، خلافاً لمديري الباستيون.

2- في العلاقات التجارية:

لقد شهدت الأوضاعُ الاقتصادية لبايلك الشرق تحسناً كبيراً، خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر،[3] وقد انعكس ذلك على حياة السكان؛ إذ تذكر المصادر[4] أنّ تعدادَ السكان قد عرف تزايداً ملحوظاً مقارنةً بالقرن السادس عشر؛ فقد قارب تعدادُ سكانِ عنابه مثلاً 8000نسمة، بينما كان لا يتجاوز 3000 خلال القرن السادس عشر،[5] كما أنّ مدينةَ قسنطينة كانت آهلةً جداً بالسكان، وكانت أكبرَ وأجملَ من مدينة الجزائر، كما يصفها بعض الرحّالين الأوربيين.[6] ويبدو أنّ ذلك يعود إلى الاستقرار النسبي الذي عرفته المنطقةُ بسبب اشتغال الأهالي ببعض الأنشطة التي كانت لها علاقة بالباستيون؛ فقد نشطت الزراعة وتعدّدت

---

(1) –Paul Masson: op.cit, p108.

(2) –Ibid, p113.

(3) – ناصر الدين سعيدوني: "الحياة الاقتصادية بعنابه خلال العهد العثماني"، في الأصالة، ع35/34، 1396هـ/ 1976م، ص79.

(4) –Dr. Shaw: Voyage dans la Régence d'Alger, Trad: J. Mac Carthy, chez Marlin Editeur, Paris, 1830, p344.

(5) – حسن الوزان: وصف إفريقيا، ج2، ص62.

(6) – أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج1، ص174.

مجالاتها من زراعة الحبوب والبقول والخضروات، إلى تربيةِ المواشي لإنتاج الجلود والأصواف، كما أنَّ الأهالي اهتموا بتربية النحل للحصول على العسل والشمع، وقد كانت كلُّ هذه المواد تباع إلى تجار الباستيون، وقد أدى انتشارُ الأسواق الأسبوعية والموسمية إلى امتهانِ سكّانِ البايلك، لبعض الأنشطة التجارية، وإن كان ليست بمثل أهمية الأنشطة الزراعية، بسبب منافسة التجار الأجانب، خاصة الفرنسيين؛[1] والذين كانوا يستَحْوِذون على أغلب الصفقات التجارية، بموجب علاقتهم الوثيقة بسلطات البايلك.

كما أدى الحَراكُ الاقتصاديُّ؛ الذي أوجدته احتكاراتُ وكالة الباستيون، إلى انتشارِ الصناعاتِ اليدويةِ المختلفة التي اتخذت في تنظيمها شكلَ مجموعاتٍ حِرَفيةٍ ذاتَ طابعٍ نقابي، يتمركز كل فرع منها في شارع خاص به؛ مثل الأسواق الخاصة بالخزّازين والنجّارين، والخزّافين، وبائعي البرانس والحدادين.[2] وبذلك أصبحت المدن الكبرى للبايلك تضم أكبرَ الأسواقِ الرئيسية في شمال إفريقيا،[3] وبسبب هذا النشاط التجاري الذي أفرزته وكالة الباستيون، وما كانت تدرّه مراكزُها من عوائدَ جبائيةٍ، فقد تضخّمت مداخيل السلطة المحلية؛ لدرجة أنّ دُنوشَ بايلك الشرق كان يعتبر من أغنى دُنوش بيالك الجزائرِ، في تلك الفترة، حتى أنّ أهلَ مدينة الجزائر كانوا ينتظرونَه بشَوْق؛ لأنه كان مناسبةً اجتماعيةً واقتصاديةً كبيرة.[4]

ويبدو أنّ العلاقاتِ التجاريةَ بين الجزائر وفرنسا قد بلغت أوجَها؛ خاصة بعد تحسن العلاقات السياسية. وقد نجح نابلون في تأهيل وكالة الباستيون وملحقاتِها، وعمل على توريد كمياتٍ كبيرةٍ من القمح الجزائري، كانت فرنسا في حاجة ماسّة إليها في سنوات الجوع والمسغبة.

---

(1) –Peyssonnel et Desfontaines: Voyage dans les Régence de Tunis et d'Alger, T2, p221.

(2) – ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص79.

(3) –Peyssonnel et Desfontaines: op.cit, T2, p221.

(4) – أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج1، ص176.

وقد كان بايلك الشرق يعتبر مخزناً هاماً لجنوب أوروبا، وكانت السلطات الفرنسية تعتبر، منذ حصولها على امتياز صيد المرجان، موانئَ شرقِ الإيالة من ممتلكاتها الخاصة[1]، وقد قاومت النفوذَ الانجليزي والجنوي بقوة، كما مر بنا. وقد أثّرت المؤسساتُ الفرنسيةُ على الأوضاع الاقتصادية للأهالي؛ إذ جعلت القبائلَ تهتم بزراعةِ الحبوب، وتربيةِ المواشي، لتتمكن من القيام بالتصدير الذي يدر عليها أرباحاً تسمحُ لها بسدِّ حاجاتها اليومية، وتسديدِ ما يترتب علي من الضرائبِ. وكان لتواجد الفرنسيين أثرٌ على الزراعة؛ فقد أتاحت المبادلاتُ الفرصةَ للمزارعين في تنويع محاصيلهم، وشجعتهم على تربية المواشي.[2]

ومن أبرز القبائل التي تعامل معها الفرنسيون في الشرق الجزائري، قبيلةُ مرداس في عنابه ذاتُ الأصول العربية، والتي كانت تمتهن زراعةَ الأرض، وتمتلك عدداً كبيراً من رؤوس الأبقار والثيران، والأغنام.[3]كما تعامل الفرنسيون مع قبيلتَيْ الحنانشة ونهد المتوطنتين في مضارب القالة وضواحيها. وتشير الوثائق أنّ الفرنسيين تعاملوا بشكل كبير مع هاتين القبيلتين ومع أولاد ذياب في القل.[4]

ونظراً لاستفادة هذه القبائل من المتاجرة مع الفرنسيين فإنها كانت سبباً في إعادة بناء الباستيون عام 1049هـ/1640م، كما سبقت الإشارة إليه.

وكان التبادلُ التجاريُّ يقوم على مبادلةِ الإنتاجِ الفلاحي، واقتناءِ الحاجياتِ الضرورية. وكان هذا التبادل يتم بطريقة المقايضةِ أحياناً، وعن طريق البيعِ أحياناً أخرى؛ فكان التجارُ الفرنسيون يلجئون إلى الطريقة الأولى حينما لا تتوفر لهم النقودُ الذهبيةُ، فبمقابل الأسلحة

---

[1] – كانت السلطات الفرنسية ترتكز في هذه الفرضية على معاهدة الامتيازات التي ناقشنا حقيقة ما تضمنته في الفصل الأول.

[2] – العربي الزبيري: التجارة الخارجية للشرق الجزائري، المؤسسة الوطنية الكتاب، الجزائر، 1984، ص130.

[3] – حسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص62.

[4] – علوش سهيلة: العلاقات بين وكلاء حصن الباستيون الفرنسي والسلطات المحلية في الجزائر خلال العهد العثماني 1640-1798، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2005-2006م، ص81.

والشاي والقهوة، وغيرها من المواد، يحصل التجار الفرنسيون على الحبوب والصوف والجلود والشمع وغيرها.[1]

أمّا ما يستورده بايلك الشرق من فرنسا فقد كان زهيداً، وهو مصنف إلى ثلاثة مواد، وهي:

- المواد الأولية؛ مثلَ الحديد والرصاص المستعملان في الصناعات المحلية.
- المواد المصنعة؛ كالألبسة والأقمشة، الكتان والحُلي والخردوات، والكاغط.
- المواد الغذائية؛ وهي تشمل السكر القهوة والتوابل، وغيرها.[2]

إنّ المبادلاتِ التجاريةَ مع فرنسا كانت تتمُّ بواسطة التجارِ الأجانبِ الذين يستثمرون الأرباحَ الطائلةَ في بلدانهم. أمّا تلك المبالغُ الزهيدةُ التي تعود إلى الإيالة والأهالي فإنها لا تستعمل في تطوير اقتصاد الإيالة، ومعيشةِ الأهالي، وإنما كانت تستغلُّ في التَّرَف، وفي شراءِ المناصب بالنسبة للمسئولين، وفي سدِّ رمق العيش واكتسابِ القُوتِ بالنسبة للسكان.

وقد عمل التجارُ الفرنسيون، كغيرهم من نظرائِهم الأوربيين، على إبقاءِ التجارِ الجزائريين في عزلةٍ؛ للانفراد بهذا النشاط التجاري. فكانوا لا يَعدمون حيلةً لوضعِ العوائق التي تَحُول دون بروز طبقةٍ من التجار الجزائريين الذين ينافسونهم تجارياً واقتصادياً؛ ومن أبرزِ الأمثلة على العراقيلِ التي كان الفرنسيون يضعونها في وجه أيّ نشاطٍ تجاري جزائريٍ على الأراضي الفرنسية؛ أنهم كانوا يُلقُون القبضَ على ربابنةِ السفن التجاريةِ الجزائرية بمجرد وصولِهم للميناء، ثم يحرقونهم أحياءً، أو يسترقّونهم؛ بحجّةِ أنهم كانوا يعتقدون أنّ جميعَ بحارةِ الإيالة من المرتدين المسيحيين.[3]كما أنهم كانوا لا يسمحون للسفن الجزائريةِ بالرسوِّ المريح في الموانئ الفرنسية، متحجِّجين، في كثير من الأحيان، بالخَشْية من حملِ هذه السفن للأمراض المعدية.[4]

---

[1] – عائشة غطاس: المرجع السابق، ص164.

[2] – العربي الزبيري: المرجع السابق، ص101.

[3] – نفسه، ص108.

[4] – جون وولف: المرجع السابق، ص247.

وهكذا نرى بأنّ احتكاراتِ وكالةِ الباستيون قد ساهمت في ازدهار اقتصادِ البايلك، وفي تطور العلاقات التجارية بين البلدين، وإن لم تكن تلك العلاقاتُ عادلةً أو متوازنةً؛ بسبب التضييقِ الذي فرضه الفرنسيون على النشاط التجاري الجزائري على الأراضي الفرنسية.

3- في العلاقات الاجتماعية:

لقد كانت السلطاتُ الرسمية؛ المتمثلةُ في الباشا والباي؛ هي المسئولَ الأولَ عن العلاقاتِ مع الفرنسيين الذين سكنوا شرق الإيالة؛ فقد حدّدت المعاهداتُ المبرمةُ بين الطرفين طبيعةَ هذه العلاقاتِ، وتبدو لأولِ وهلةٍ أنها تجاريةٌ واقتصاديةٌ محضةٌ، لكن بعد قراءةٍ متفحصةٍ لنصوص المعاهداتِ، والرسائلِ المتبادلةِ بين الطرفين يظهر أنّ تلك العلاقاتِ كانت أكثرَ تشابكاً من العلاقات الاقتصادية والتجارية؛ إذ أننا نكتشف، من خلالها، ملامحَ علاقاتٍ اجتماعيةٍ بدأت تتشكل، سواءً مع السلطات الحاكمة أو مع الأهالي؛ تمثلت خصوصاً في الرسائل الودية، وفي تقديم الهدايا، وفي تبادل المنافع.[1]

وإذا أخذنا علاقةَ فرنسيِّي الباستيون مع السلطات الحاكمة في الجزائر، فنجد أبرزَ مثال على ذلك، هو تلك العلاقةُ الودّية، الملفتةُ للنظر، التي كانت بين سانسون نابلون وقادةِ الجزائر؛ فنجدهم يصفونه، في مراسلاتهم، بأوصاف تَنِمُّ عن تعظيمٍ وتفخيمٍ يتجاوزان حدودَ اللَّباقةِ الدبلوماسيةِ؛ مثل قول الرايس إبراهيم العرابدجي: "...صديقنا العزيزُ، القائدُ سانسون، الرجلُ النبيلُ..."،[2] أو في مراسلة الرايس مصطفى:" عزيزي وأخي العزيز، صاحبُ الفخامة؛ السيدُ سانسون، متَّعَهُ الله من نعيمه إلى يوم الدين."[3] ولم يقف الإطراء والتعظيم عند حدودِ الكلماتِ فحسب، بل كان في كثير من الأحيان يكرَّمُ، وتخلعُ عليه سُترات الشرف والنصر التي لا يحظى بها، عادةً، إلا كبارُ رجالِ الدولةِ الجزائرية.[4] ولا ريبَ أنّ التكريمَ الأكبرَ كان بتخصيص جزءٍ كبيرٍ من الامتيازات الممنوحة للفرنسيين، في عقد استغلال الباستيون لسنة 1037هـ/1628م،

---

(1) – علوش سهيلة: المرجع السابق، ص30.

(2) – الرسالة مؤرخة في 1صفر1038هـ/1628م. أنظر: H.-D. De Grammont: op.cit, p76. وانظر الملحق رقم 10.

(3) – الرسالة مؤرخة في 29ماي 1628م/1037هـ. أنظر: Eugène Plantet: op.cit, T1, p30.

(4) –H.-D. De Grammont: op.cit, p77. وانظر الملحق رقم 10.

له شخصياً؛ مثلَ اشتراطِ الجزائريين على الفرنسيين بقاءَه مديراً للباستيون مادام حياً، ومنحِه تفضيلاتٍ خاصةٍ لسفنه التجارية على السواحل الجزائرية.[1]

إنّ الجزائريين كثيراً ما كانوا يفسّرون تصرفاتِهم اتجاهَ هذا الرجل، بأنّها تعود إلى إدارته الموفَّقَةِ للمفاوضات مع الجزائريين، و لم يكونوا ليَمْدَحوه بهذه الصفةِ، إلا بعد أن لمسوا احترامَه لهم أثناءَ المفاوضات بل كان يستجيب لأغلبِ مطالبهم، في حين كان سابقوه لا يتمتعون بتلك المرونة.

وقد جلبت مودّةُ حكامِ الجزائر لنابلون الكثيرَ من المشاكل مع حكام مرسيليا، وكانت تلك الامتيازاتُ الممنوحةُ له في الجزائر مثارَ حسدِ أقرانه؛ من تجارِها. فقد أصبحوا يكيلون له الاتهاماتِ العديدةِ؛ منها اتهامُه بسرقة أموالِ سكانِ مرسيليا المُوَجَّهةِ لافتداء الأسرى الفرنسيين في الجزائر، وقد أشاعوا هذه التهمةَ لدى الأهالي؛ الذين توجّهوا نحو مترله في مرسيليا، سنة 1038هـ/1629م ، وعزموا على حرقِه، إن لم يَقُم بإرجاعِ أموالهم.[2]

كما أنّ قنصلَيْ فرنسا في الجزائر؛ ريكو وبلانشار (Blanchard)، كانا يتّهمانه، دوماً، بالتقصير في الإفراج عن الأسرى الفرنسيين، إرضاءً لحكام الجزائر.[3] ولم يجد أقرانُه تفسيراً لنجاحاته، وللثّقة التي أضحى يتمتع بها لدى حكام الجزائر، سوى اتهامَه بالارتداد عن دينه.[4]

ولمّا بلغت أصداءُ هذه الأنباءِ مسامعَ الجزائريين انتصروا له، بل وهدّدوا بنسف السلام مع فرنسا كلياً، إن لم يكفَّ حسادُه عن إيذائه. فنقرأ في مراسلة سيدي حمودة؛ أمينِ ديوانِ الجزائر، ما يلي:"...القنصلُ الذي هنا قال لنا بأنّ شعبَ مرسيليا لا يريدونكم لأنكم ترعَوْنَ شؤونَ الحصن، وبأنه غير راض عنكم. قَسَماً بالله العظيم، وبنبيه الكريم، أننا إذا سمعنا أنهم يريدون أحداً غيرَكم، سنقوم، دون تردد، بنقض المعاهدة كلّياً... لا تحزنوا على شيء، كونوا

---

[1] – أنظر الملحق رقم 9.

[2] –H.-D. De Grammont: op.cit, p90.

[3] –M. Octave Teissier: Inventaire des Archives Historiques de la Chambre de Commerce de Marseille, p201.

[4] – عزيز سامح إلتر: المرجع السابق، ص335.

مسرورين، وإذا تعرضتم لأيِّ مضايقة من هؤلاء الذين في بلدِكم، فأعلمونا وسننقض السلام..."[1]

وقد فسر بعضُ الفرنسيين تمكُّنَ هذه الشخصية في كسب ودِّ الجزائريين إلى إغداقه للأموال والهدايا على حكام الجزائر المتعطشين دائما للأموال.[2] وإذا أقررنا بجَشَعِ بعضِ قادةِ الجزائر، آنذاك، للمال، إلا أنّ هذا لا ينفي تميّزَ القائدِ نابلون بصفاتِ الدبلوماسي الناجحِ والمفاوضِ البارع؛ الذي نجح، في الوقت الذي فشل فيه من سبقَه من الدبلوماسيين والمبعوثين الفرنسيين، في كسب ثقةِ ورضا حكامِ الجزائر؛ فقد رأى نابلون أنّ الحلَّ لا يكمُن إلاّ في الاستجابة لشروط الجزائريين؛ فقام بشراء المدفعَيْن البرونزيَيْن، وحملَ معه مجموعةً من الأسرى الجزائريين، وانطلق نحو الجزائر محمَّلاً ببعض الأموالِ والهدايا، متودِّداً للجزائريين بأن يوقفوا الحربَ. أمام هذا الموقفِ المغاير لما اعتاد عليه الجزائريون من المفاوضين الفرنسيين، لم يجدوا بُداً من الاستجابةِ لتطلعات هذا المفاوض الجديد، فقاموا بتوقيعِ معاهدةِ السلمِ والتجارةِ مع الفرنسيين، وكمكافأةٍ على احترامِه للجزائريين، واستجابتِه لشروطهم، فقد قاموا بمنحه تلك التفضيلاتِ.

أما عن موضوع إسلام نابلون فهذا مستبعدٌ جداً؛ إذ لو كان الأمرُ كذلك، لعُدَّ نابلون ضمنَ قادةِ الجزائرِ الكبارِ؛ حينَ كان أغلبُهم من المرتدين المسيحيين.

لقد كان التجارُ الفرنسيون يتعاملون، في أغلب الأحيان، بصفة مباشرةٍ مع الأهالي. ولّما يحدث بينهم خلافٌ، يتدخل الباي؛ إذ كان هو المعنيُّ بحل الخلافاتِ الحاصلةِ بين الأهالي والفرنسيين؛ التي كثيراً ما كانت تحدث بينهم، وتُقَدّمُ ضدَّهم شكاوي. وقد خُصَّ أهلُ القل بالنصيب الأكبر من تلك الشكاوي، منها ما أُرسل إلى باي قسنطينة، ومنها ما تعداه إلى الباشا في دارِ السلطان. وقد جاء وصفُ أهالي عنابه والقل بالعُصاة، في معاهدة الباستيون لسنة 1049هـ/1640م؛ لأنهم كانوا يغُشّون في الشمع الذي كانوا يبيعونَه إلى تجارِ الباستيون، حين

---

[1] – الرسالة مؤرخة في4 فيفري 1629م/رجب1038هـ. أنظر:

Ambassades à Constantinople de François de Noailles, Savary de Lancosmc,Savary de Brèves, Harlay de Césy et M. de Marcheville. (1572-1632).. XVIIe siècle. Biblioth. nat. mss. fr. 7161. f187. .12 وانظر الملحق رقم

[2] –F.Elie de La Primaudaie: op.cit, p452.

يخلطونه بالزيت أو الشحم. وقد نص البند 14 من هذه المعاهدة على العمل على وضع حدٍّ لهذه التجاوزات.[1] وفي المقابل فإنّ التجارَ الفرنسيين كثيراً ما كانوا يتراجعون عن التزاماتهم ولا يوفون بتعهداتهم اتجاهَ الأهالي، وهذا ما يؤدي في بعض الأحيان إلى الصّدام معهم، وتحدثنا بعض المراجع عن تلك الثورةِ التي قام بها الأهالي ضدّهم، سنة 1068هـ/1658م، والتي أجبرت مديرَ الباستيون توماس بيكي على الهرب بعد أن قام بتهديم الباستيون.[2]

وقد أثبتت بعض الدراسات أنّ تبادلَ موظفي الباستيون المنافعَ مع الأهالي لم يكن مقتصراً على الأعمال التجارية فحسب، بل تعداه إلى التطبيب، وقضاءِ بعض المصالح المختلفة. وقد أدى اختلاطهم بالأهالي، في بعض الأحيان، إلى حدوث جُنَحٍ اجتماعية بينهم وبين النساء الجزائريات.[3]

وخلاصةُ القول، أنّ وكالةَ الباستيون قد شهدت، خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر، نمواً وازدهاراً، وأنّ نشاطَها قد بلغ مستوياتٍ قياسيةٍ، فاقت ما كانت عليه إبَّانَ القرن السادس عشر.

كما أنّ هذا النشاطَ قد أثر في العلاقات بين البلدين، إذ جَنَحَت العلاقات السياسية، في أغلبِ مراحلِ الفترة المدروسة، إلى الهدوء والسلام. وتطوّرت العلاقات التجارية والاقتصادية، بفضل احتكاراتِ وكالةِ الباستيون، وإن كانت في اتجاه واحدٍ، بسبب عرقلةِ الفرنسيين لأيِّ نشاط تجاري جزائريٍ على الأراضي الفرنسية. كما أنّ الفترةَ موضوعَ الدرس، قد عرفت بوادرَ ظهورِ علاقاتٍ اجتماعيةٍ بين الجزائريين وفرنسيّي الباستيون، تمثّلت أساساً في الرسائلِ الودية، وفي تقديمِ الهدايا، و تبادلِ المنافع.

---

[1] – جمال قنان: المرجع السابق، ص323.

[2] –Mouloud Gaid: op.cit, p21.

[3] – علوش سهيلة: المرجع السابق، ص79.

خـــاتمة

وفي ختام هذه الدراسة يمكننا أن نخلص إلى الاستنتاجات التالية:

- تعتبر وكالة الباستيون؛ التي أسّست سنة968هـ/1561م، أولى الشركات التجارية الفرنسية التي احتكرت صيد المرجان والتجارة مع الجزائر، طيلة النصف الأول من القرن السابع عشر.

- عرف نشاط هذه الوكالة تراجعا كبيراً، خلال الربع الأول من القرن السابع عشر للميلاد، بعد قيام الجزائريين بتهديمها، سنة 1012هـ/1604م، وذلك بسبب تجاوزها في تصدير كميات من القمح الجزائري، رغم المجاعة التي عرفتها المناطق الشرقية للجزائر، في تلك الفترة.

- تدهورت العلاقات الجزائرية الفرنسية، خلال الربع الأول من القرن السابع عشر، بسبب وضع الباستيون، وأصبحت الحرب مفتوحةً بين البلدين. ولم ينجح السفراء الفرنسيون في اسطنبول، ولا مبعوثو السلطان في توقيف الحرب؛ التي كانت فيها فرنسا المتضررَ الأكبرَ.

- لقد حرصت فرنسا على إعادة تأهيل وكالة الباستيون، سالكةً في سبيل ذلك التدخلَ العثماني حيناً، والتهديدَ العسكري حيناً آخر، إلا أنها لم تنجح في كلتا الحالتين، خلال الربع الأول من القرن السابع عشر.

- استغلت الجزائر تحمُّسَ فرنسا لإعادة تشغيل وكالة الباستيون، لتؤكد استقلال شؤونها الدبلوماسية عن اسطنبول، بعد اضطرار فرنسا للتفاوض المباشر مع الجزائر. وقد أثمر ذلك عقدَ أولِ معاهدة سلام بين البلدين، سنة 1619م/ 1027هـ.

- اضطُرّ الفرنسيون للاذعان لكل شروط الجزائريين، خاصة بعد الضرر الكبير الذي لحق الاقتصاد الفرنسي، جراءَ أعمال القرصنة البحرية الجزائرية، وتعطّلِ وكالة الباستيون، وقد سمح الجزائريون بإعادة بناء الباستيون، بعد عقد معاهدة سلام وتجارة سنة 1628م/ 1037هـ.

- شهد نشاط وكالة الباستيون، خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر، نمواً وازدهاراً، بعد عقد معاهدة 1037هـ/1628م. وقد انعكس ذلك على الحياة الاقتصادية والاجتماعية لبايلك الشرق.

- عملت وكالة الباستيون، خلال عهد نابلون، على توريد كميات كبيرة من القمح الجزائري نحو فرنسا؛ رغم أنه من المواد الغير مسموح بتصديرها، وقد كان حكام الجزائر يغضّون الطّرْفَ عن ذلك، بسبب صداقتهم لنابلون.

- لقد نَحَت العلاقات السياسية بين البلدين، خلال أغلبِ فترات الربع الثاني من القرن السابع عشر، نحو الهدوء والسلام. وكان لوكلاء الباستيون الدورُ الرئيسي في تثبيت هذا الوضع؛ من خلال نجاحهم في عقد معاهدات السلام مع الجزائر، والسهرِ على احترام بنودها، والعملِ على استمراريتها.

- شهد الربع الثاني من القرن السابع عشر عقد معاهدتَيْ سلام وتجارة بين الجزائر وفرنسا، سنتي 1037هـ/1628م و1049هـ/1640م. وكانت شؤون وكالة الباستيون تستحوذ على بنود الشق التجاري من كلا المعاهدتين. وقد أضحت هاتان المعاهدتان مرجعاً لكل المعاهداتِ الثنائية الخاصة بالمؤسسات الفرنسية، حتى القرن الثامن عشر.

- لم يشكل حادث تهديم الباستيون، سنة 1046هـ/1637م، سبباً مباشراً في اندلاع ثورة ابن الصخري، إلا أنه عجّل بانطلاقها، وساهم في توسّعها لتشمل مختلف قبائل بايلك الشرق، وذلك بعد رفضِ القبائل المتعاملة مع المراكز الفرنسية دفعَ اللزمة السنوية؛ احتجاجاً على تهديم وكالة الباستيون.

- لقد كان لاحتكارات الباستيون، خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر، أثرٌ على العلاقات التجارية بين الجزائر وفرنسا؛ إذ نشطت المبادلات التجارية بين البلدين، وإن كان أغلبُها يتم في اتجاه واحد، بسبب العراقيل والعقبات التي كان الفرنسيون يضعونها في وجه التجّار الجزائريين، في مقابل التسهيلات الكبيرة التي كان يحضى بها التجار الفرنسيون في الجزائر.

- كان لنشاط وكالة الباستيون دورٌ كبيرٌ في ظهور ملامح علاقات اجتماعية بين الجزائريين وموظفي الباستيون، تمظهرت أساسا في الرسائل الودية، و تقديم الهدايا، وفي تبادل المنافع.

- ويمكن القول أنّ وضْعَ وكالة الباستيون كان مؤثراً على سياسة فرنسا تجاه الجزائر، خلال النصف الأول من القرن السابع عشر؛ فحين يعمد الجزائريون إلى تعطيل هذه الوكالة، أو الحدِّ من نشاطها، يظهر الوجه الصليبي لفرنسا، ببروز التيار الديني المتشدد والمسيطرِ على دواليب البلاط الفرنسي والمعارضِ، في الوقت ذاته، لأي تقارب مع الجزائر. وحين تنشط هذه الوكالة ويزداد إنتاجها، يطفو إلى السطح تيار الداعين إلى السلام من التجار الذين كانوا يرَوْنَ فيه أفضلَ ظَرْفٍ لإنعاش تجارتهم، والنهوضِ باقتصاد بلادهم.

الملاحق

الملحق رقم 1

خريطة توضح أماكن تواجد وكالة الباستيون وملحقاتها خلال النصف الأول من القرن السابع عشر[1]

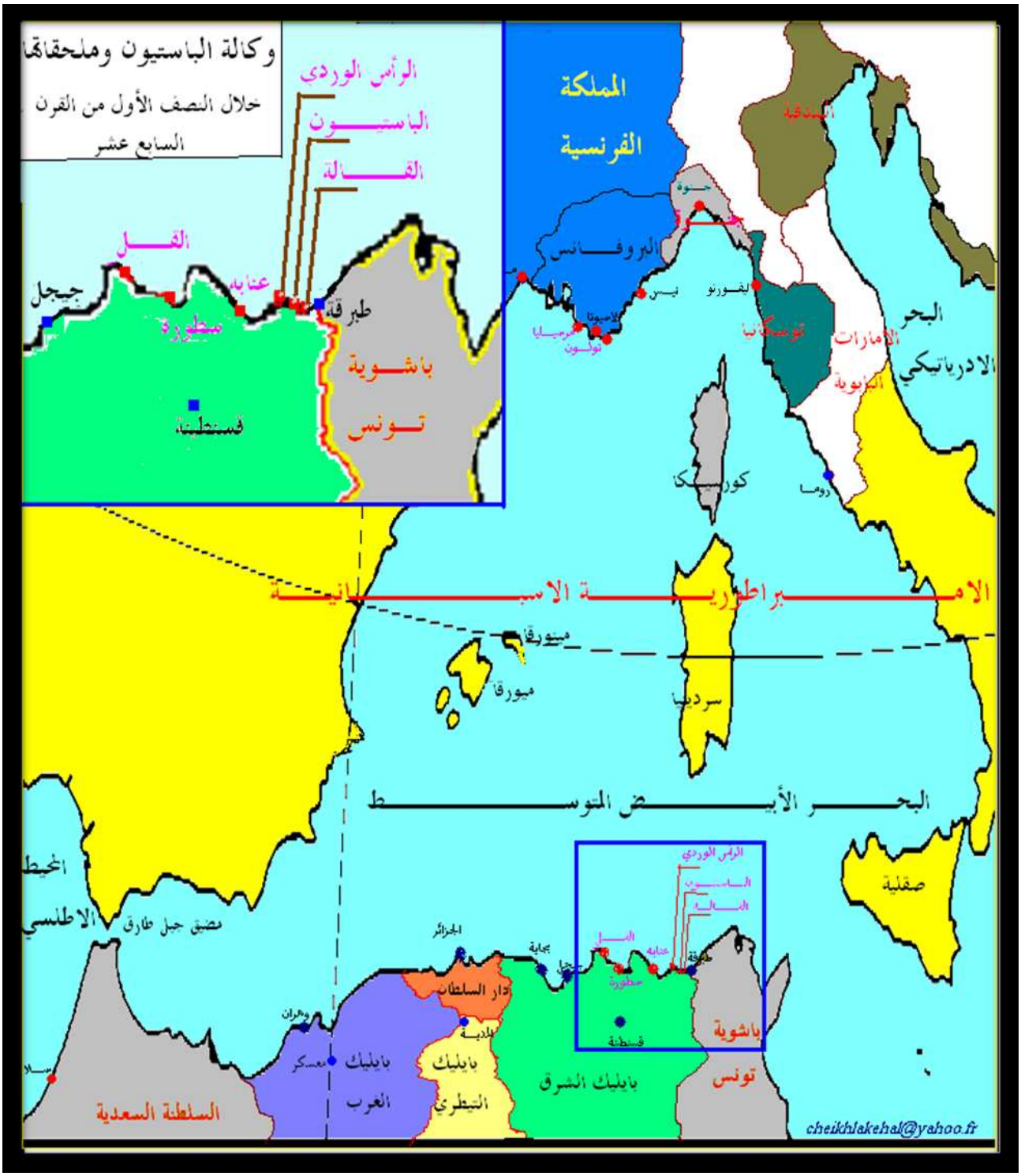

[1] – هذه الخريطة من تصميم الباحث.

الملحق رقم 2

مهمة دفتري رقم 35 صحيفة122 حكم رقم 314[1]

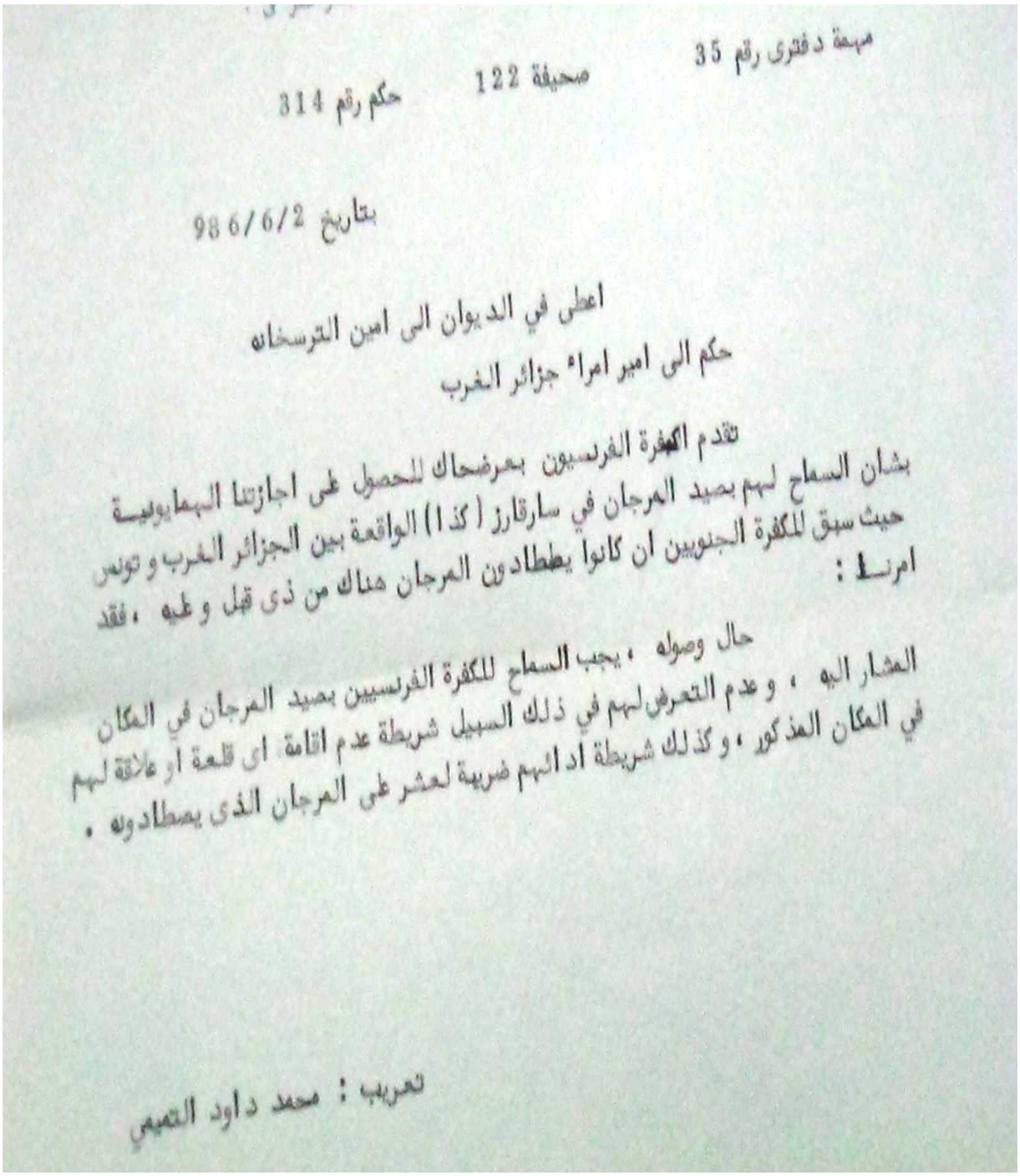

مهمة دفتري رقم 35 صحيفة 122 حكم رقم 314

بتاريخ 986/6/2

اعطى في الديوان الى امين الترسخانه

حكم الى امير امراء جزائر الغرب

تقدم الكفرة الفرنسيون بعرضحاك للحصول على اجازتنا الهمايونية بشان السماح لهم بصيد المرجان في سارقارز (كذا) الواقعة بين الجزائر الغرب و تونس حيث سبق للكفرة الجنويين ان كانوا يصطادون المرجان هناك من ذى قبل و عليه ، فقد امرنا :

حال وصوله ، يجب السماح للكفرة الفرنسيين بصيد المرجان في المكان المشار اليه ، و عدم التعرض لهم في ذلك السبيل شريطة عدم اقامة اى قلعة او علاقة لهم في المكان المذكور ، و كذلك شريطة ادائهم ضريبة لعشر على المرجان الذى يصطادونه .

تعريب : محمد داود التميمي

---

[1] — الأرشيف الوطني الجزائري: الرصيد العثماني.

الملحق رقم 3

رسم تخطيطي للباستيون[1]

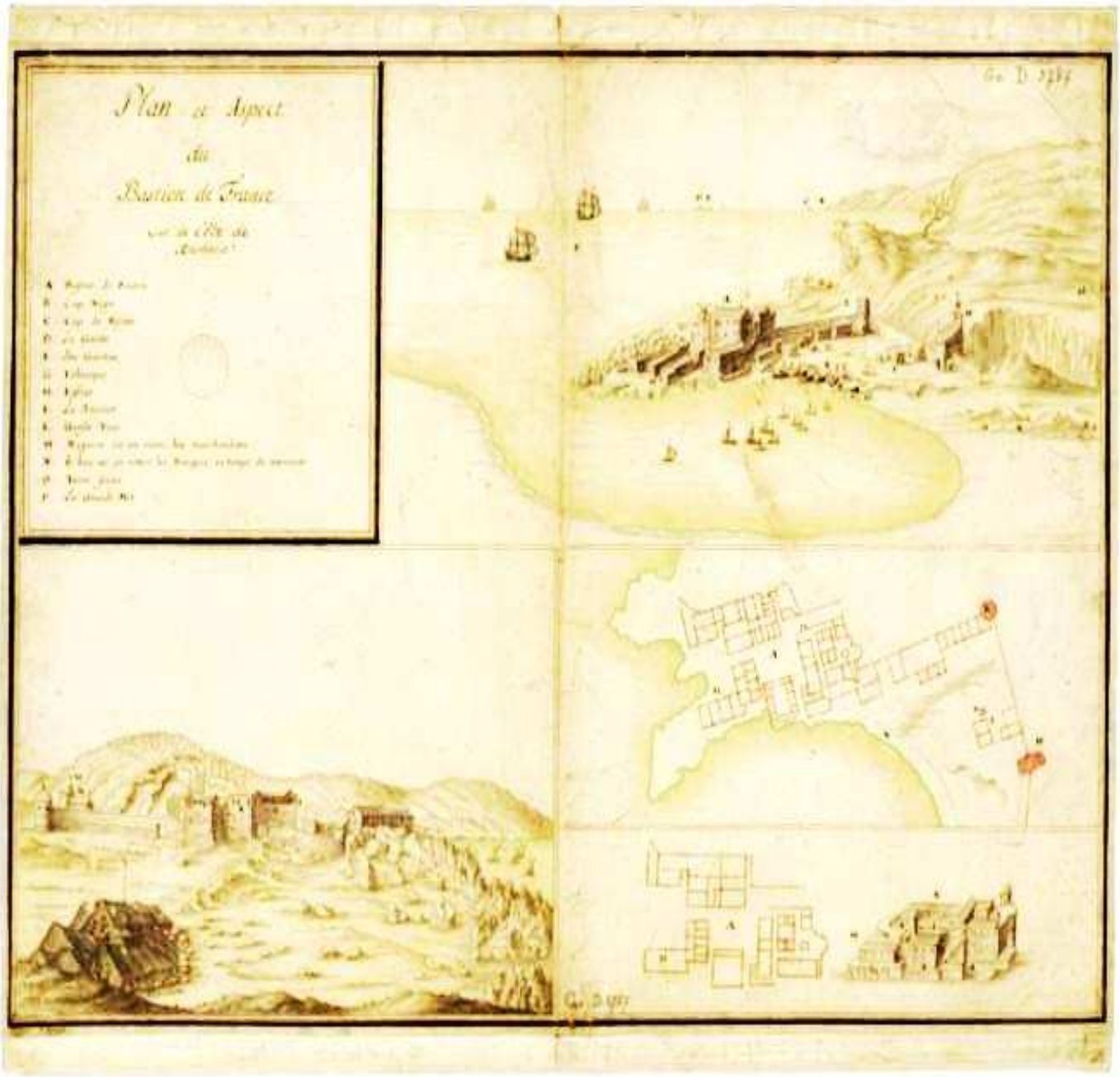

Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France

[1] – موقع المكتبة الوطنية الفرنسية (Gallica): www.gallica.bnf.fr

الملحق رقم 4

رسم تخطيطي لمركز القالة[1]

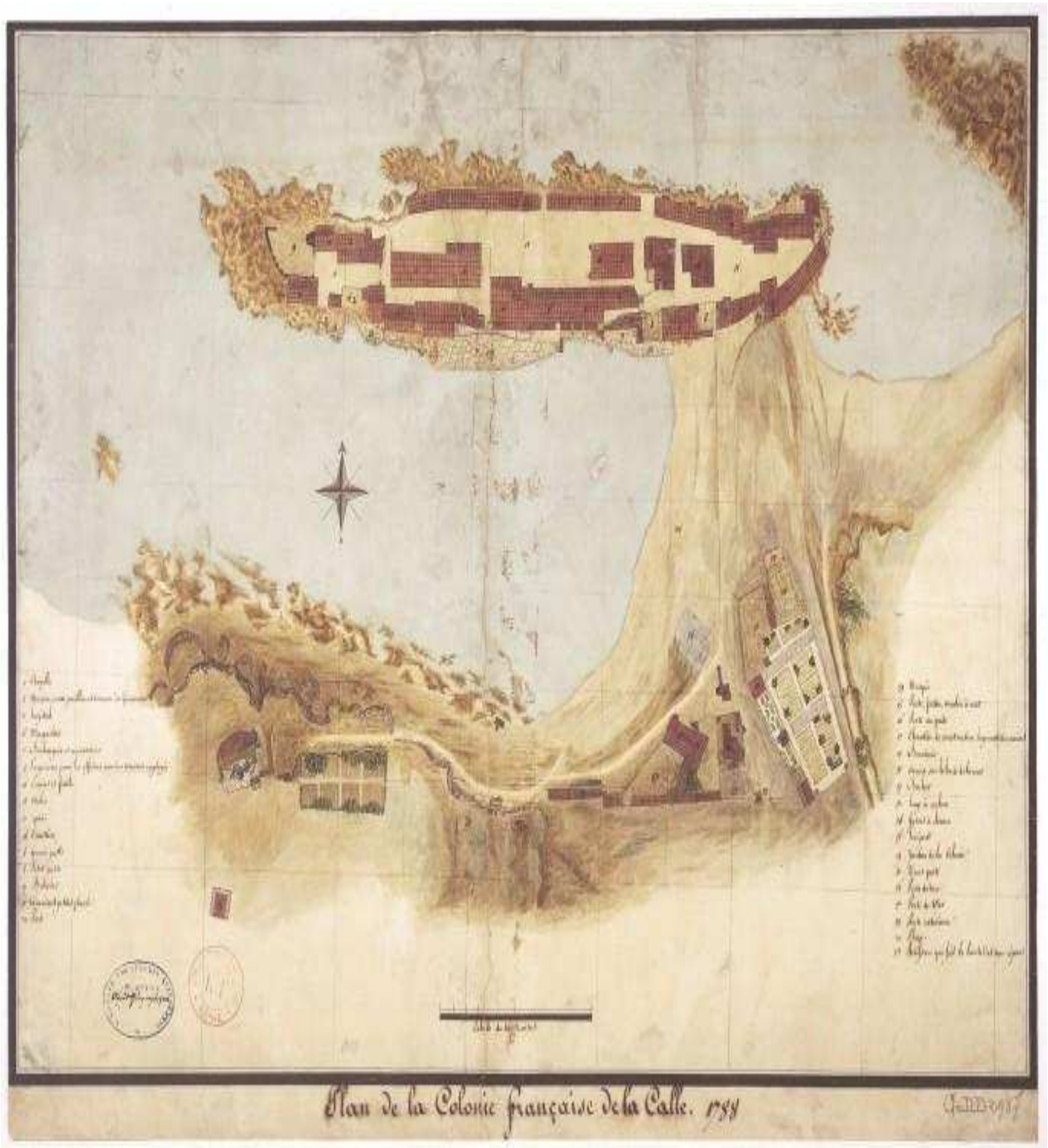

Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France

[1] – موقع المكتبة الوطنية الفرنسية (Gallica): www.gallica.bnf.fr

الملحق رقم 5

الوثيقة التي تنص على إحداث لواء جديد تركب من بلد العناب والباستيون وطبرقة[1]

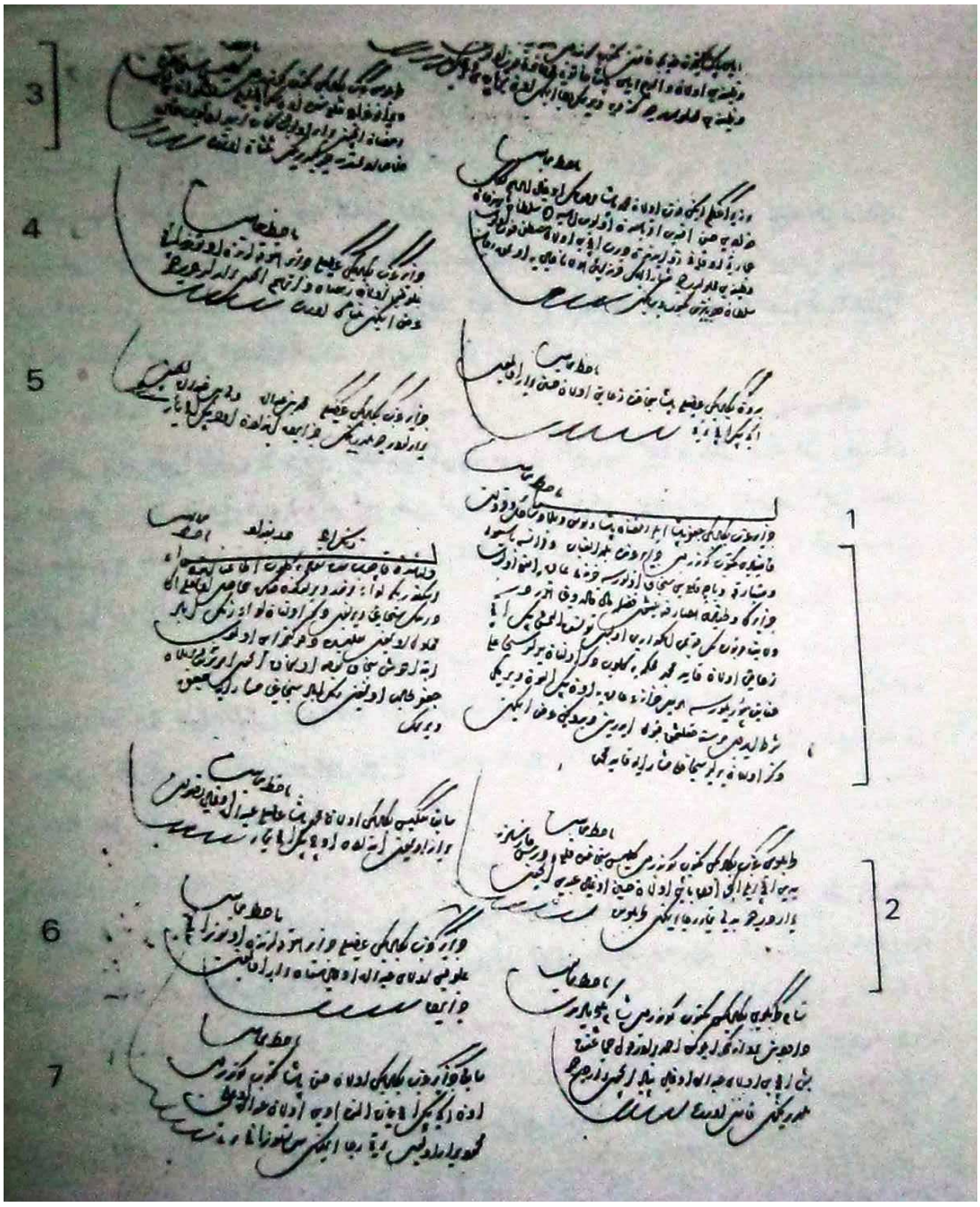

[1] – خليل ساحل أوغلي: "إحداث لواء جديد في الجزائر في أواخر القرن السادس عشر يتركب من بلد العناب وباستيون ومتبارقة وقلعة باجة"، ص163.

ترجمة الفقرة رقم2 من الوثيق السابقة[1]

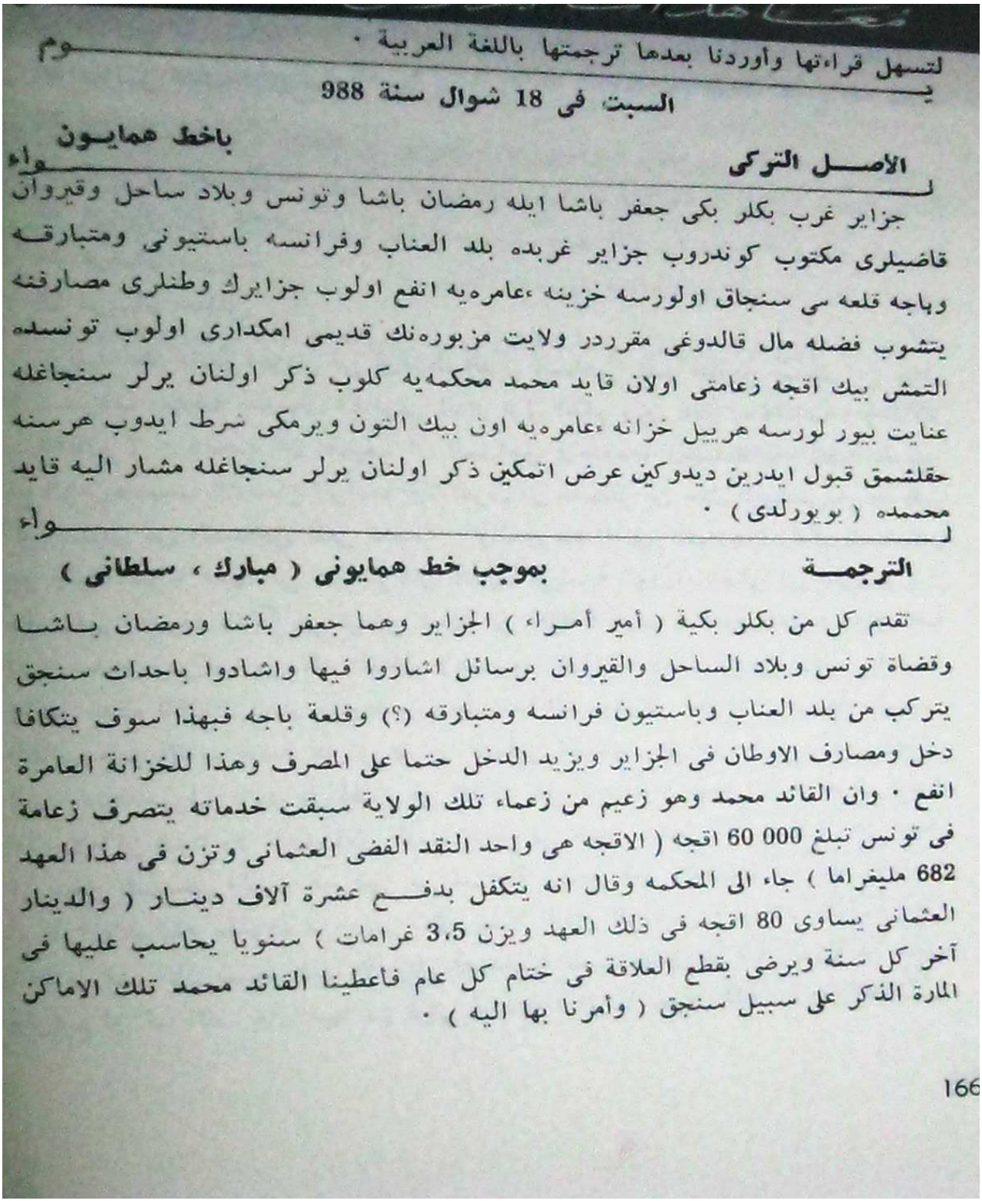

لتسهل قراءتها وأوردنا بعدها ترجمتها باللغة العربية ·

يوم السبت فى 18 شوال سنة 988

باخط همايون

الاصل التركى

جزاير غرب بكلر بكى جعفر باشا ايله رمضان باشا وتونس وبلاد ساحل وقيروان قاضيلرى مكتوب كوندروب جزاير غربده بلد العناب وفرانسه باستيونى ومتبارقه وباجه قلعه سى سنجاق اولورسه خزينه ءعامره يه انفع اولوب جزايرك وطنلرى مصارفنه يتشوب فضله مال قالدوغى مقرردر ولايت مزبوره نك قديمى امكدارى اولوب تونسده التمش بيك اقجه زعامتى اولان قايد محمد محكمه يه كلوب ذكر اولنان يرلر سنجاغله عنايت بيور لورسه هر ييل خزانه ءعامره يه اون بيك التون ويرمكى شرط ايدوب هرسنه حقلشمق قبول ايدرين ديدوكين عرض اتمكين ذكر اولنان يرلر سنجاغله مشار اليه قايد محممده (بويورلدى) ·

الترجمة بموجب خط همايونى (مبارك ، سلطانى)

تقدم كل من بكلر بكية (أمير أمراء) الجزاير وهما جعفر باشا ورمضان باشا وقضاة تونس وبلاد الساحل والقيروان برسائل اشاروا فيها واشادوا باحداث سنجق يتركب من بلد العناب وباستيون فرانسه ومتبارقه (؟) وقلعة باجه فبهذا سوف يتكافا دخل ومصارف الاوطان فى الجزاير ويزيد الدخل حتما على المصرف وهذا للخزانة العامرة انفع · وان القائد محمد وهو زعيم من زعماء تلك الولاية سبقت خدماته يتصرف زعامة فى تونس تبلغ 60 000 اقجه (الاقجه هى واحد النقد الفضى العثمانى وتزن فى هذا العهد 682 مليغراما) جاء الى المحكمه وقال انه يتكفل بدفع عشرة آلاف دينار (والدينار العثمانى يساوى 80 اقجه فى ذلك العهد ويزن 3،5 غرامات) سنويا يحاسب عليها فى آخر كل سنة ويرضى بقطع العلاقة فى ختام كل عام فأعطينا القائد محمد تلك الاماكن المارة الذكر على سبيل سنجق (وأمرنا بها اليه) ·

166

---

[1] - نفسه، ص166.

الملحق رقم 6

معاهدة الامتيازات لسنة 1604م[1]

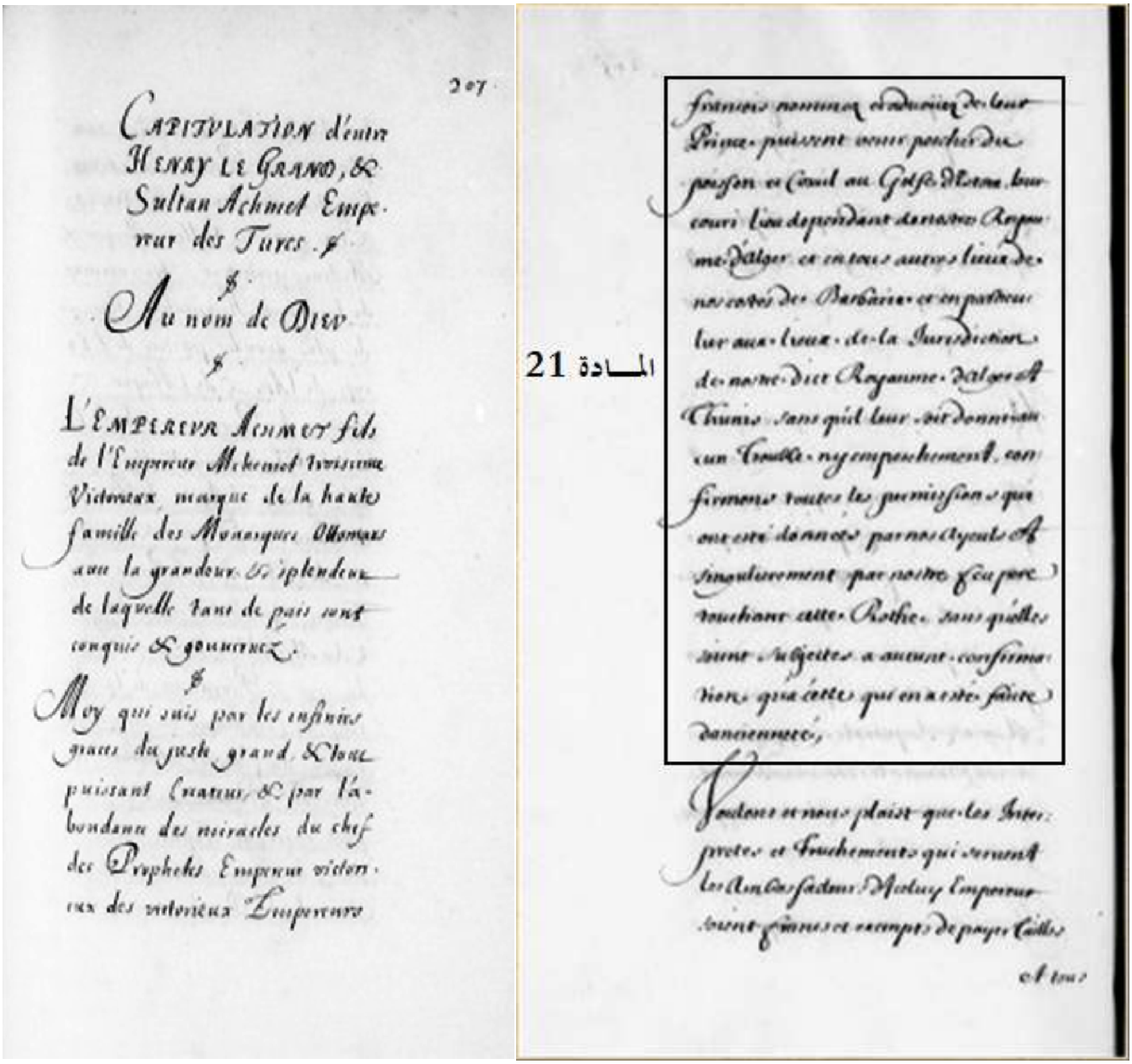

207

CAPITVLATION d'entre HENRY LE GRAND, & Sultan Achmet Empereur des Turcs.

Au nom de Dieu

L'EMPEREVR Achmet fils de l'Empereur Mehemet Troisiesme Victorieux marque de la haute famille des Monarques Ottomans aux la grandeur & splendeur de laquelle tant de pais sont conquis & gouvernez.

Moy qui suis par les infinies graces du juste grand & Tout puissant Createur, & par l'abondance des miracles du chef des Prophetes Empereur victorieux des victorieux Empereurs

المادة 21

françois nommez en addition de leur Priuz. puissent venir pescher du poisson et corail au Golfe de Bone, bourg lieu dependant de notre Royaume d'Alger et en tous autres lieux de nos costes de Barbarie, et en pareur leur aux lieux de la Jurisdiction de nosme dict Royaume d'Alger et Thunis sans qu'il leur soit donnéen aucun trouble ny empeschement, confirmons toutes les permissions qui ont esté données par nos Ayeuls & singulierement par nostre feu pere touchant cette Rothe, sans qu'elles soient subjettes a aucune confirmation, qu'a celle qui en a este faicte dauparauant,

Voulons et nous plaist que les Interpretes et truchements qui seront les Ambassadeurs Monsieur Empereur soient francs et exempts de payer taille et tous

---

(1) –Traités faits entre le Grand-Seigneur et les rois de France. Biblioth. nat. mss. fr. 16141. f207. / Charles Féraud: La Calle. p102.

وقد قمنا بتأطير المادة التي تتحدث صراحة عن امتياز صيد المرجان في خليج سطورة، ثم ترجمناها في الصفحة التالية.

ترجمة بعض بنود هذه المعاهدة[1]

معاهدة الامتيازات بين هنري الكبير

والسلطان أحمد الأول إمبراطور الأتراك

القسطنطينية: 20 ماي 20/1604 ذو الحجة 1012.

"...**المـــادة 08**: نرخص للتجار الفرنسيين، مراعاةً للصداقة المثالية التي يكنها أميرهم لبابنا، بتصدير الجلود، وجلود الأنعام (كذا)، والشمع، والكتان، ماعدا البضائع الممنوعة والمحظور تصديرها؛ نحن نقر بالامتياز الذي منحه جدنا سليم وأبونا الراحل محمد.

.....

...**المـــادة21**: نحن نرخص أيضا للفرنسيين المفوضين والمحميين من أمرائهم، أنه بإمكانهم القدوم لغرض صيد السمك والمرجان في خليج سطورة كوركوري، الموقع المستقل عن مملكتنا في الجزائر، وفي كل مواقع ساحلنا في باربارياء، وبالأخص في المواقع الخاضعة لما يسمى بممالكنا في الجزائر وفي تونس بدون أن يتعرضوا لأي مضايقة أو إزعاج.

نؤكد على كل الامتيازات الممنوحة من طرف أجدادنا، وما تفرد به أبونا الراحل فيما بتعلق بهذا الصيد، من دون أن تكون موضوعا لتأكيدات أخرى لما كان قد تم قديما..."

---

[1] – هذه الترجمة من عمل الطالب الباحث.

الملحق رقم 7

HENRY IV

A MR DE BREVES[1]

Fontainebleau, 31 août 1604.

" Monsieur de Brèves, vous verrez par l'attestation du Consul d'Alger (M. de Vias), que je vous envoie, quelle obéissance et réserve le Pacha et les Janissaires du dit lieu ont rendu au Commandement de ce Seigneur (le Sultan) portés par son Chiaoux ; et portant quels efforts je dois dorénavant attendre de l'amitié et alliance de la Maison Ottomane, méprisée et mal obéie des siens comme elle l'est. Je vous ai écrit, par ma dernière, l'insolence de ces gens au rasement et pillage du Bastion de France, qu'ils ont exécuté avec une fureur digne d'eux. Ces injures et offenses réitérées par eux, coup sur coup, au lieu d'infinies preuves de bienveillance qu'ils ont reçues de moi, sont insupportables et m'obligent à m'en revancher, comme vous leur déclarerez à la réception de la présente, que je suis tout résolu de faire..."

هنري الرابع إلى السيد دو بريف[2]

فونتان بلو، 31 أوت 1604

" السيد دي بريف، سترون من شهادة قنصل الجزائر (السيد دو فيا)؛ التي سأبعثها لكم، مدى الطاعة والالتزام التي يكنها باشا وإنكشاريو المكان المذكور [الجزائر]، لأوامر هذا السيد (السلطان) المرسلة مع شواشه، ومع ذلك كم من الجهود يمكنني أن أنتظرها الآن من الصداقة والتحالف مع البيت العثماني، المحتقرة والغير محترمة من أتباعه كما هي بالنسبة له. لقد كتبت إليكم في تقريري الأخير، وقاحة هؤلاء الأشخاص في هدم ونهب حصن فرنسا، والذي نفذوه بهمجية معروفين بها. إن هذه الإهانات والاعتداءات المتكررة من هؤلاء، واحدا تلو الآخر، مقابل البراهين الغير منتهية عن حسن المعاملة التي تلقوها مني، أضحت أمرا لا يطاق وتحتم علي الثأر، كما أنكم ستبلغونهم عند استلامكم لهذه الرسالة، أني عازم على الفعل... "

---

[1] –Charles Féraud: La Calle, p107.

[2] – هذه الترجمة من عمل الطالب الباحث.

الملحق رقم 8

الوثيقة التي تتحدث عن قيام الدوق دوكيز بترضية آل لينش عقب توقيع معاهدة 1619م[1]

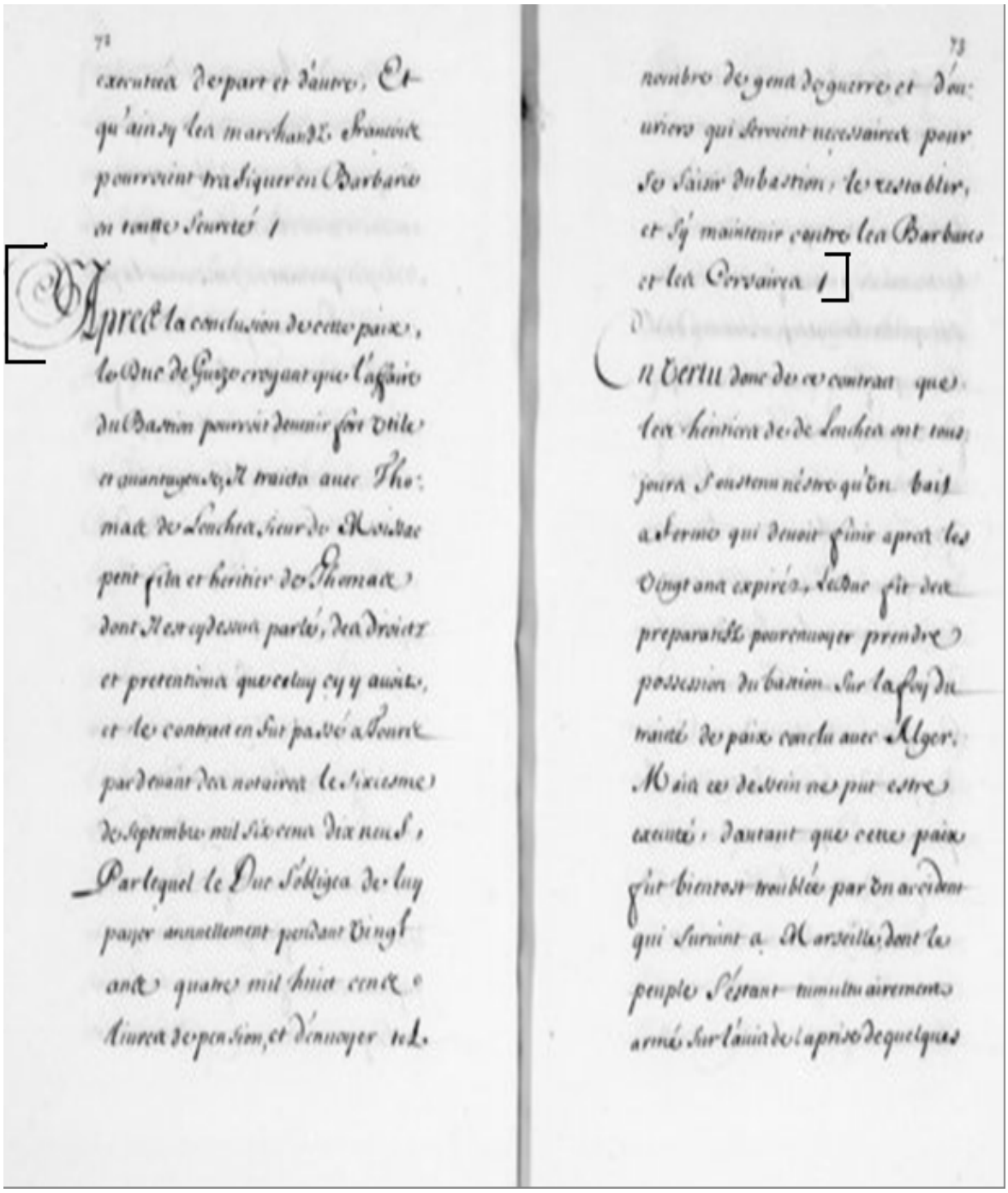

72

executez de part et d'autre. Et qu'ainsy les marchandz. françois pourroient trafiquer en Barbarie en toute Seureté /

Apres la conclusion de cette paix, le Duc de Guize croyant que l'affaire du Bastion pourroit devenir fort utile et avantageux, fit traicté avec Thomas de Leuches, Sieur de Montac petit fils et heritier de Thomas dont Il est cy dessus parlé, des droictz et pretentions que eulx cy y avoient, et le contract en fut passé et Receu par devant des notaires le Sixiesme de Septembre mil Six cens dix neuf, Par lequel le Duc s'obligea de luy payer annuellement pendant Vingt ans quatre mil huict cents Livres de pension, et d'envoyer tel

73

nombre de gens de guerre et d'ouvriers qui seroient necessaires pour se saisir du bastion, le restablir, et s'y maintenir contre les Barbares et les Cervaires /

En vertu donc de ce contract que les heritiers de de Leuches ont tous jours soustenu n'estre qu'un bail a ferme qui devoit finir apres les Vingt ans expirés, ledict fils des preparatifz pour venir prendre possession du bastion sur la foy du traicté de paix conclu avec Alger. Mais ce dessein ne put estre executé, d'autant que cette paix fut bientost troublée par un accident qui survint a Marseille dont le peuple s'estant tumultuairement armé sur l'avis de la prise de quelques

[1] –Traités des Consuls de la Nation Française avec les Pays Etrangers, Pièces Originales Toucha le XVIIe Siècle, Biblioth. nat. mss. fr. 18595. f 72.

ترجمة بعض ما ورد في الوثيقة السابقة[1]

"……

بعد التوقيع على هذا السلام[معاهدة 1619م]، أدرك الدوق دوكيز أن قضية الباستيون أضحت أكثر أهمية، فعقد اتفاقاً مع توماس[كذا][2]دولينش نبيل مواساك، يشمل أبناء وورثة توماس، وذلك ليتنازلوا له عن حقهم. وقد عقد هذا الاتفاق بمدينة تور في السادس من سبتمبر سنة ألف وستمائة وتسعة عشر.

وبموجب هذا الاتفاق يتحتم على الدوق أن يدفع لهم سنوياً، ولمدة عشرين سنة، مبلغ أربعة آلاف وثمانمائة ليفر[جنيها] كتعويض. وإرسال عدد كاف من الجنود والعمال لاستعادة الباستيون وإعادة ترميمه، وأيضاً لحمايته من اللصوص والقراصنة.

……"

---

[1] – هذه الترجمة من عمل الطالب الباحث، وقد ترجمنا النص الموجود بين المعقوفتين في الوثيقة السابقة.

[2] – يقول ماسون أن أغلب الوثائق الأرشيفية التي تحدثت عن هذا الاتفاق تذكر اسم ألفونص وليس توماس، وقد يكون هناك خطأ في النَّسْخِ في تلك الوثائق؛ مثل التي بين أيدينا، التي ذكرت توماس. لأن توماس دولينش قد لا يكون معاصراً لهذه الأحداث. أنظر:

Paul Masson: Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique barbaresque, p23, note 3.

الملحق رقم 9

Teneur du contrat passé avec le Divan et le Conseil d'Arger pour le rétablissement du Bastion et ses dépendances, du vingt-neuvième septembre 1628.[1]

Au nôm de Dieu soit-il ! L'an mil six cent Vingt-huit et le vingt-neuvième du mois de septembre, suivant le compte musulman, l'année mil trente-huit.

Le sujet de la présente est que le Roy de France, les jours duquel soient heureux ! nous a envoyé de sa part un de ses gentilhommes, nommé le capitaine Sanson Napolon, avec les commandements de notre très haut Empereur, lequel est l'ombre de Dieu sur la face de la terre, avec lettres d'amitié de la part du Roy de France, ensemble deux canons de bronze et plus deux cents bons Esclaves musulmans, avons changé l'intimité en bonne amitié. Lequel capitaine sanson Napolon étant arrivé en cette invincible ville d'Alger, les Commandements de notre Empereur ont été reçus et vus, etayant compris le contenu d'iceux et substance des dites lettres d'amitié, étant le tout reçu de bonne part, avons lié et accordé la paix et pour conserver une bonne amitié parmi nous, avons écrit la présente en témoignage de notre parole et promesse, comme suit :

Ainsi que par ci-devant les François avaient commandé le lieu appelé le Bastion avec l'Échelle de Bône, les avons accordés moyennant vingt-six milles doubles, savoir : 16.000 doubles pour la paye des soldats, et 10.000 doubles pour le glorieux trésor de la Casbah, ainsi qu'il a été promis par le capitaine Sanson Napollon. Et moyennent ces dites sommes, avons déclaré et promis donner les dits Bastion et Echelles de Bône au Roy de France, avec pêches; que pour récompenser des services rendus par le capitaine Sanson, il en sera le chef et commandera les dites places sans que l'on en puisse mettre aucun autre. Néanmoins, après son décès, le Roy y pourra pourvoir à d'autres personnes.

---

[1] –E. Rouard De Card: Traités de la France avec les Pays de l'Afrique du Nord: Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc, p 20.

وينبغي التنبيه إلى أن هذه الوثيقة، والوثائق التي تليها، قد تحوي أخطاءً كتابية، وقد أغفلنا تصحيحها، لأننا نقلناها كما هي من مصادرها، و لم نتصرف فيها.

Les vaisseaux du dit capitaine Sanson pourront, aller et venir aux dits lieux, pour y vendre, négocier et acheter, enlever cuirs et cire, laine et toutes autres choses comme était anciennement, sans qu'aucun autre vaisseau de qui que ce soit y puisse aborder, vendre, négocier ni acheter cire, laine et autre marchandises, sans qu'il eut ordre par écrit du capitaine Sanson.

Permettons et entendons que les vaisseaux du dit capitaine Sanson puissent partir de France, pour aller, venir et retourner aux dites Echelles en droiture, sans aucune permission.

Étant les dits vaisseaux rencontrés par un Corsaire, ne leur sera fait aucun déplaisir ni reproche, allant ou venant à droiture. Sera permis aux dits vaisseaux du capitaine Sanson d'aller aborder en tous lieux de notre côte, sans regrets, allant et venant. Et d'autant que la dite Place du Bastion et ses dépendances ont été démolies, permettons de les pouvoir redresser et fabriquer comme elles étaient anciennement, pour pouvoir se garantir contre les Maures, vaisseaux et brigantins de Majorque et Minorque ; ensemble jouiront des magasins de cuirs qui se voulaient servir de l'Echelle de Bône. Ils pourront redresser les autres lieux et places qui avaient accoutumé être tenus pour se défendre comme anciennement.

Étant les bateaux de pêche de corail contraints, par vents contraires, d'aborder aux lieux de la côte comme Gigelli, Collo et Bône, ne leur sera fait aucun déplaisir, ni esclaves pour vendre aux Maures. Toutes sortes de navires, galères et frégates qui passent par la dite côte, soit en négociation ou autrement, allant et venant au Royaume de Tunis, ne pourront nuire, ni faire aucun déplaisir aux bâtiments qui pêchent le corail ; en façon quelconque n'y feront aucun mal. Cette promesse, foi et parole, l'avons écrite. et remise entre les mains de Napolon.

Fait à Alger, à la fin du mois de le lune de Maharrem, l'année 1628.

Signé et scellé : OSSAN-BACHA, gouverneur d'Alger et Moussa AGA, chef et général de la Milice ; du Mufti et du Cadi de la dite ville .

ترجمة بعض ما ورد في الوثيقة السابقة[1]

مضمون العقد الممضى من طرف الديوان ومجلس الجزائر لأجل تجديد الباستيون وملحقاته للتاسع والعشرين من سبتمبر 1628.

".....

نظرا لطلب الفرنسيين من قبل، للمكان المسمى الباستيون مع وكالة عنابة، فقد اتفقنا معهم على شرط ستة وعشرين ألف ضبلوناً، منها 16000 ضبلوناً كرواتب للجند، و10000 ضبلوناً للخزينة العامة للقصبة، والتي كانت وعداً من القائد سانسون نابلون. بواسطة هذه المبالغ المسماة، فقد أعلنّا ووعدنا بإعطاء ما يسمى بالباستيون ووكالات عنابة إلى ملك فرنسا، مع مناطق الصيد، لأجل تعويض الخدمات المقدمة من طرف القائد سانسون، الذي سيكون الرئيس، وسيقود المراكز المسماة، من غير أن يوضع أحد غيره. بعد وفاته، يستطيع الملك أن يعين أشخاصاً آخرين.

مراكب المسمى القائد نابلون يمكنها أن تذهب وترجع إلى المراكز السالفة الذكر، أين تبيع، تتفاوض وتشتري، تُحمّل الجلود، الشمع، الصوف وكل الأشياء التي كانت من قبل؛ ولا يمكن لأي مركب، مهما كانت صفته أن يرسي، يبيع، يتفاوض، ولا أن يشتري الشمع، الصوف، ولا غيره من البضائع، دون أن يكون حاصلا على إذن مكتوب من القائد سانسون. ونحن نوافق على السماح لسفن المدعو القائد سانسون، التي تستطيع أن تبحر نحو فرنسا، بالذهاب والرجوع، والعودة إلى الوكالات السالفة الذكر مباشرة، دون أي رخصة. كما أنّ السفن سالفة الذكر، إذا التقت بقرصان فإنه لن يشكل لها أي إزعاج أو مضايقة، سواءً هي ذاهبة أو عائدة نحو وجهتها. وسيكون مسموحا لما يسمى بسفن القائد سانسون بالذهاب للرسوّ في كل الأماكن على سواحلنا، من غير تردد، ذهابا وإياباً.

وبما أنّ ما يسمى بمكان الباستيون وملحقاته قد هدّمت، فإننا نسمح بإصلاحها وتشييدها كما كانت من قبل، لحمايتها من الأهالي، سفن ولصوص ميورقة ومينورقة؛ فالكل طامعون في مخازن الجلود الموضوعة تحت تصرف وكالة عنابة. يستطيعون[الفرنسيون] أن يرمموا الأماكن والمراكز الأخرى، والتي تستعمل عادة في الحماية، كما كانت من قبل. وبالنسبة لسفن صيد

---

[1] – هذه الترجمة من عمل الطالب الباحث، وتبدأ الترجمة من بداية الخط الغليظ في الوثيقة السابقة.

المرجان المرغمة، بفعل الرياح العكسية، على الرسوّ في المناطق الساحلية مثل جيجل والقل وعنابة، لن تُضايق أو تُسلب لتباع إلى الأهالي. كل أنواع السفن والغاليات والفرقاطات التي تمر عبر الساحل المذكور، سواء للتفاوض أو غيره، ذهابا وجيئة نحو مملكة تونس، لن تستطيع أن تسبب أي ضرر أو إزعاج للسفن التي تصيد المرجان بأي حال من الأحوال، ولا أن تسبب لها أي أذى.

هذه معاهدة صدق ووفاء، قمنا بكتابتها، ووضعها بين يدي نابلون.

أنجزت في الجزائر، في نهاية الشهر القمري المحرم، سنة 1628.

إمضاء ومصادقة: حسين باشا، حاكم الجزائر، وموسى آغا، القائد العام للجيش، من ِقبل المفتي و من ِقبل قاضي المدينة المذكورة."

الملحق رقم10

Lettre d’Ibrahim Raïs Arabadgy à MM. Les Consuls et Gouverneurs de la ville de Marseille.[1]

« Aux Élus et choisis pour accomplir leurs promesses, administrateurs des affaires du peuple de la croyance du Messie, les Consuls de la ville de, Marseille ; que Dieu bénisse vos jours ; et vos actions soient conduites en honneur et félicité par la droite voie.

« Après vous avoir salué du salut convenable à votre dignité, saurez que, par notre bon ami le capitaine Sanson, gentilhomme, avons receu votre, lettre et compris les favorables discours d’icelle. Incontinent, je me suis employé de toute mon affection à votre service ; et, par la, grâce de Dieu, la paix a été nouée et liée ainsi que prouviez désirer ; ayant le Divan elle Bacha revêtu ledit Capitaine Sanson de deux vestes d’honneur et de gloire ; ayant si bien conduit celle négociation et receu tant de satisfaction que me serait impossible le mettre par écrit, espérant que de lui-même en serez mieux informés. Bien vous diray que la paix et amitié que à été traitée par ledit capitaine Sanson est faite de telle sorte que ne se pouvoit faire davantage. J’avois résolu d’aller à Marseille avec nos galères ; mais sa venue m’a rompu ce dessein pour m’employer ici en vos affaires, espérant avec l’aide de Dieu que ce printemps j’auray l’honneur de vous voir. Cependant en tous les affaires que aurez besoins de deca, donnez-m’en avis, je m’emploieray très volontiers et tout ce que j’ay au monde pour vous servir et le tiendray pour faveur. Je prie cependant Dieu que vous conserve. — Écrit en Alger, le premier jour de la lune de Saffer, année de 1038.

« Signé : *Le pauvre* IBRAHIM,
à présent Général des Galères d’Alger.
« Et scellée de son sceau.

---

[1] –H.-D.De Grammont: Relations entre la France et la régence d'Alger au XVIIe siècle, p76.

ترجمة الوثيقة السابقة [1]

رسالة إبراهيم رايس العرابدجي

إلى السادة قناصل وحكام مدينة مرسيليا

إلى المنتخبين والمختارين للوفاء بوعودهم، رجال أعمال شعب الديانة المسيحية، قناصل مدينة مرسيليا، بارك الله في أيامكم، وسدد خطاكم نحو الطريق المستقيم.

بعد التحية بسلام يليق بمقامكم، اعلموا، بواسطة صديقنا العزيز القائد سانسون، الرجل النبيل، أننا تلقينا رسالتكم، وفهمنا التصريحات المشجعة التي تضمنتها. وبدون مبالغة، إنني أعمل بكل ما في وسعي لخدمتكم، وبفضل الله، فإن السلام قد عقد واستمر كما رغبتم. وهذا ما حدى بالديوان والباشا إلى خلع سترتي الشرف والنصر على القائد سانسون المذكور، وذلك لأدارته الموفقة للمفاوضات ولتلقيه مزيدا من التشكرات، جعل من غير الممكن تقديمها له كتابيا، أتمنى أن يكون هو بدوره يعلم هذا جيدا. حسنا، إنكم تقولون بأن السلام والصداقة التي أبرمت من طرف المدعو القائد سانسون، قد أنجزت بحيث لا يمكن أن تفعل أكثر. لقد فكرت بالذهاب إلى مرسيليا بسفننا، لكن قدومه منعني من تنفيذ هذا العزم لاستخدامي هنا في مشاريعكم، أتمنى بعون الله أن أراكم هذا الربيع. ولكن في جميع الحالات التي تحتاجون فيها إلى مساعدتي أبلغوني، وسأعمل بكل سرور وبكل ما أملك في هذه الدنيا على خدمتكم، والوقوف إلى جانبكم. أدعو الله أن يحفظكم.

حررت في الجزائر، مطلع شهر صفر سنة 1038.

إمضاء: الفقير **ابراهيم**

حاليا قائد السفن الجزائرية

مختومة بختمه

---

[1] – هذه الترجمة من عمل الطالب الباحث.

الملحق رقم11

المصاريف السنوية لوكالة الباستيون وملحقاتها خلال عهد نابلون[1]

المركز	تعيين المصاريف	القيمة الكلية بالجنيه(Livre)
مدينة الجزائر	خزينة القصبة	5000
	جنود الانكشارية	8000
	الباشا وكبار رجال الدولة	3000
	صيانة دار الجزائر	800
	المجموع:	16800
عنابة	ضرائب على السلع الداخلة والخارجة	7000
	تكاليف الصيانة	4000
	تكاليف الحامية التركية	800
	هدايا رياس السفن الحربية	500
	رواتب الوكلاء الخمسة	1000
	المجموع:	13300
الرأس الوردي	رواتب الضباط والجنود	1440
القالة	رواتب 22 عاملاً	3120
الباستيون	رواتب فرقة الحراسة(32شخصاً)	3944
	رواتب الحرس الخاص لقائد الباستيون(15 شخصاً)	2550
	موظفو الأشغال اليومية(طباخون، فرّاشون، عمال نظافة،...): 12 شخصاً	1452
	موظفو الأشغال الخاصة(طبيب، جراح، الصيدلي،	3132

[1] – الأرقام الموجودة في هذا الجدول مأخوذة من كراسة تعود لسانسون نابلون، وحسب البارون بودي (Le baron baude) فإن هذه الكراسة موجودة في المكتبة الملكية الفرنسية. أنظر:

Le baron baude: l'Algérie, T1, pp381-390.

	المترجمون،...): 10 أشخاص	
	قائد سفن الباستيون مع 40 بحاراً	4680
	النحّاتون والنجارون والخياطون: 20شخصاً	3806
	الخبازون، الطحّانون، البنّاؤون، عمال المخازن، وغيرهم: 62 شخص	7116
	موظفو السلك الديني (الكنيسة): 17 شخصاً	1980
	رواتب صيادي الباستيون والرأس الوردي والقالة	33140
	تكاليف المواد الغذائية والتموينية لكل موظفي الباستيون	16850
	تجهيز السفن وصيانتها	16700
	علف الأحصنة والبغال	750
	الضرائب المدفوعة إلى القبائل الكبرى المتعاملة مع الباستيون، ولتلك التي تمر القوافل التجارية بأراضيها.	5000
	المجموع:	101100
	المجموع الكلّي:	135680[1]

[1] – هذا الرقم هو الموجود في كراسة نابلون، لكن هذا المجموع ليس دقيقا لأن المجموع الحقيقي هو 135760.

الملحق رقم 12

رسالة سيدي حمودة، الأمين الأول لديوان الجزائر و مفتش مالية الجيش

إلى السيد سانسون نابلون حاكم حصن فرنسا في بار باريا[1]

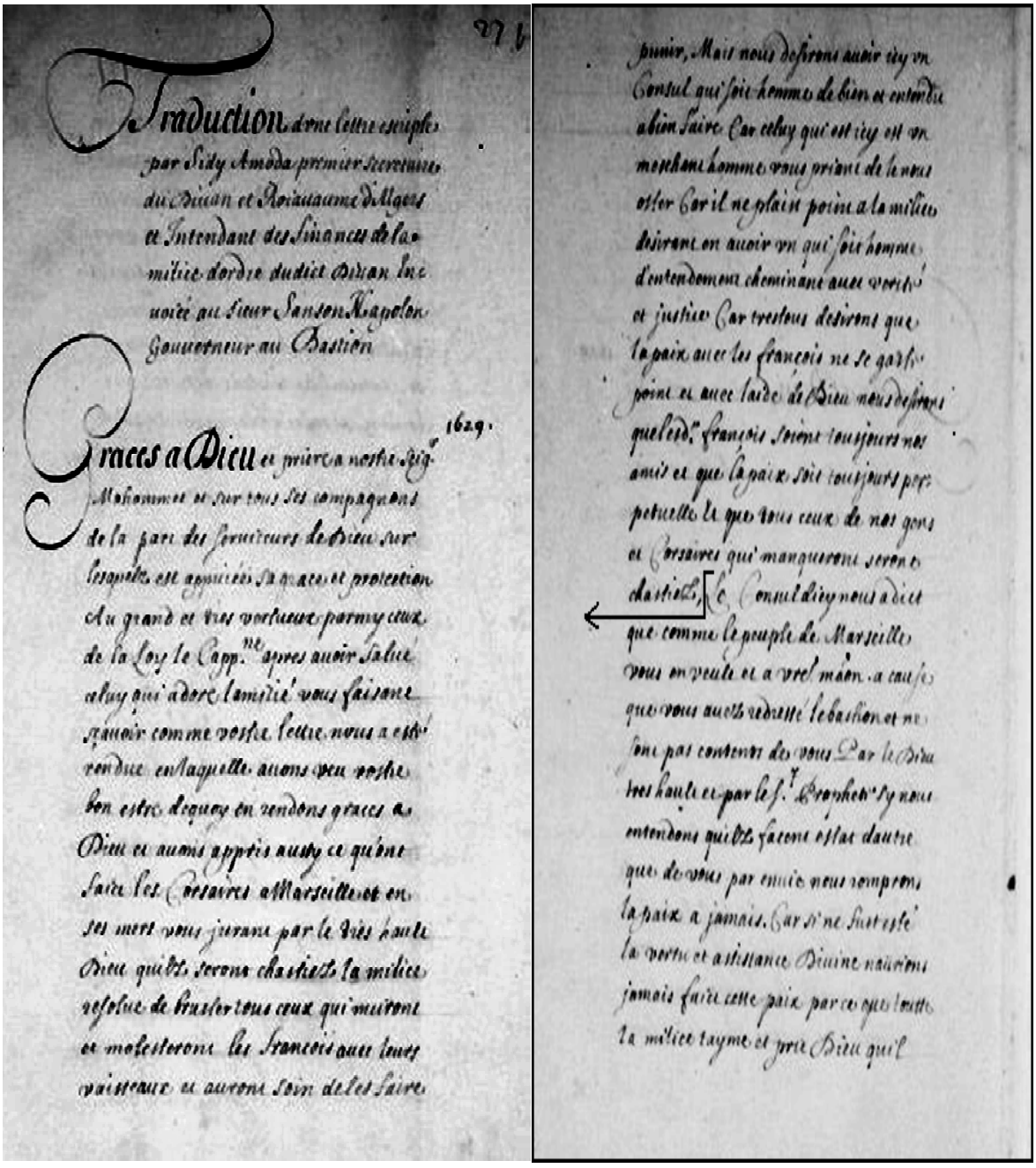

Traduction d'une lettre escripte par Sidy Amoda premier Secretaire du Divan et Royaume d'Alger et Intendant des finances de la milice dordre dudict Divan Inc uoïe au Sieur Sanson Napolon Gouuerneur au Bastion

Graces a Dieu et prière a nostre Seig.r 1629.
Mahommet et sur tous ses compagnons de la part des seruiteurs de Dieu sur lesquelle est appuiées sa grace et protection Au grand et tres vertueux parmy ceux de la Loy le Capp.ne apres auoir Salué celuy qui adore lamitié vous faisant sçauoir comme vostre lettre nous a esté rendue en laquelle auons veu vostre bon estre dequoy en rendons graces a Dieu et auons appris aussy ce quéne faict les Corsaires a Marseille et en ses mers vous jurans par le tres haut Dieu quilz seront chastiez la milice resolue de brusler tous ceux qui mettront et molesteront les François auec leurs vaisseaux et auront soin de les faire

punir, Mais nous desirons auoir icy vn Consul qui soit homme de bien et entendu a bien faire Car celuy qui est icy est vn meschant homme vous prions de le nous oster Car il ne plaist point a la milice desirant en auoir vn qui soit homme d'entendement cheminant auec verité et justice Car tresfort desirons que la paix auec les françois ne se garde point et auec laide de Dieu nous desirons que les ff.s françois soient toujours nos amis et que la paix soit toujours perpetuelle Et que tous ceux de nos gens et Corsaires qui manqueront seront chastiez, Le Consul icy nous a dict que comme le peuple de Marseille vous en veult et a vostre mâon a cause que vous auez rebastie le bastion et ne vous pas contenter des vous Par le Dieu tres haut et par le ff.t Prophete Sy nous entendons quilz facent offace dautre que de vous par enuie nous rompre la paix a jamais. Car sil ne fust este la vertu et assistance Divine naurions jamais faict cette paix par ce que toute la milice tayme et prie Dieu quil

[1] – الرسالة مؤرخة في4 فيفري 1629م/رجب1038هـ. أنظر:

Ambassades à Constantinople de François de Noailles, Savary de Lancosmc,Savary de Brèves, Harlay de Césy et M. de Marcheville. (1572-1632).. XVIIe siècle. Biblioth. nat. mss. fr. 7161. f187. / Eugène Plantet: Les correspondances des deys d'Alger avec la cours de France, T1, p41.

ترجمة بعض ما ورد في الوثيقة السابقة[1]

سيدي حمودة، الأمين الأول لديوان الجزائر ومفتش مالية الجيش

إلى السيد سانسون نابلون حاكم الباستيون

الجزائر فيفري 1629

".....

القنصل الذي هنا قال لنا بأن شعب مرسيليا لا يريدونكم لأنكم ترعون شؤون الحصن، وبأنه غير راض عنكم. قسماً بالله العظيم، وبنبيه الكريم، أننا إذا سمعنا أنهم يريدون أحدا غيركم، سنقوم، دون تردد، بنقض المعاهدة كليا. لأنه لو لم تكن الثقة والتعاون الكامل ما كنا أبدا لنعقد هذا السلام. بالنسبة لكم، فإن كل الإنكشارية يحبونكم، ويدعون الله أن يزيد محبتكم في نفوسهم.

لا تحزنوا على شيء، كونوا مسرورين، وإذا تعرضتم لأي مضايقة من هؤلاء الذين في بلدكم، فأعلمونا وسننقض السلام. كونوا مع الله، واهتموا بشؤون الحصن؛ الذي تُؤمّنونه بطريقتكم، ولا تقلقوا من شيء آخر. أخيراً إذا كان لديكم مشاغل معنا، أبلغونا بها، لكي يكون التأثير مواكبا لما يسركم ويرضيكم. سلام الله عليكم وعلى كل الموحدين.

حرر في مدينة الجزائر المحروسة، في مطلع شهر فيفري المسمى رجب، سنة ألف وثمانية وثلاثين في حسابنا، وفي حسابكم ألف وستمائة وتسعة وعشرين. "

(الختم)

حمودة

الأمين الأول لديوان ومملكة الجزائر."

---

[1] – هذه الترجمة من عمل الطالب الباحث، وتبدأ الترجمة من السهم المؤشر في الوثيقة السابقة.

الملحق رقم 13

Lettre de M. Lazarin de.Servian à MM, les Consuls et Gouverneurs de la ville de Marseille.[1]

Du Bastion de France, le 2 mars 1630.

« MESSIEURS,

« Depuis le départ que M. Sanson a fait, pour Alger, qu'a fait le vingt-cinq de janvier, j'ay fait tout ce que m'a été, possible pour satisfaire à ce que je vous ay, promis de vous envoyer tant de blé qu'il se pourra ; et, à cet effet, j'y ay contribué de tout ce que m'a été possible ; car l'affection que j'ay pour ma patrie et le service que je vous dois en votre particulier m'a fait, y contribuer de ma bourse, à l'endroit du premier cheik, de ce pays, d'un petit présent que j'ay fait d'une veste d'écarlate. Ce n'est, pas que je désire d'en être remboursé, de ma patrie ; car je désire au péril de ma vie, de la servir.

Il m'a fait venir du blé pour charger cette polacre et le Dauphin, et une barque, lesquels, partiront tous trois dans trois jours, s'il, plaît à Dieu, que je prie, les vouloir conduire à bon sauvement. J'espère que, dans peu, de jours, nous aurons ici M. Sanson, parce que j'ay eu lettres, de lui par (lesquelles) il me marque, et son arrivée audit Alger, et qu'il espère d'obtenir tout, ce qu'il désire pour le bien des affaires de la paix, et de les établir, s'il plaît à Dieu, de façon que ses envieux ne trouveront à redire.

Il n'y épargne pas sa bourse, car je vous assure qu'il a emporté avec lui dix mille piastres pour donner. Il ne manquera pas d'y faire tout ce qu'il doit. Je tacheray de me pourvoir de tant de blé que faire se pourra, par les, premiers (vaisseaux) qui viendront, je vous en enverray ; car je ne désire que de vous faire voir, en effet le désir que j'ay d'être toute, ma vie, après avoir prié Dieu qu'il vous tienne en sa sainte garde, Messieurs, Votre très-humble et très-affectionné serviteur.

« LAZARIN DE SERVIAN. »

---

[1] —H.-D.De Grammont: Relations entre la France et la régence d'Alger au XVII^{e} siècle, p105.

ترجمة الوثيقة السابقة [1]

رسالة السيد لازارين دو سيرفيان

إلى السادة قناصل وحكام مدينة مرسيليا

من حصن فرنسا، 2 مارس 1630

السادة الأفاضل

منذ الزيارة التي قام بها السيد سانسون إلى مدينة الجزائر، قام بها في الخامس والعشرين جانفي، بذلت كل ما في وسعي لتلبية ما كنت قد وعدتكم به من إرسال مزيد من القمح الذي أستطيعه، ولهذا الغرض فقد ساهمت بكل ما قدرت عليه. لأن محبتي لموطني والخدمة التي أقدمها لكم خاصة، حتمت علي المساهمة من مالي، في مكان الشيخ الأول في هذه البلاد، بهدية صغيرة متمثلة في سترة قرمزية، إنني لا أريد التعويض من وطني، لأنني أود أن أخاطر بحياتي في خدمته.

لقد قدِم إليّ من أجل تحميل القمح، "البولاكر" و"الدلفين"، وسفينة أخرى، هؤلاء الثلاثة سينطلقون خلال ثلاثة أيام، بعون الله، الذي ندعوه أن يقودهم إلى بر الأمان. أظن أنه خلال أيام قلائل، سنجد هنا السيد سانسون؛ لأنه وصلتني من عنده رسائل، من خلالها أعلمني، مع عودته إلى مدينة الجزائر، أنه يأمل في الحصول على كل ما يريده من أعمال السلام، و سيثبتها، إن شاء الله، بحيث أن حساده لن يجدوا ما يقولون.

لن يوفر ماله، لأنني أُؤكد لكم أنه قد حمل معه عشرة آلاف بياستر[قرشا] لتقديمها، لن يتردد في فعل أي شيء. سأحاول ما أستطيعه من زيادة القمح، والعمل كل ما يمكن، بواسطة السفن الأولى القادمة، لقد بعثت إليكم، لأنني أود أن أراكم، وبالتالي هذه الأمنية التي عشتها طول حياتي بعد دعاء الله بأن يمتعكم بالصحة و العافية، سادتي. خادمكم المخلص والمطيع .

لازارين دو سيرفيان

---

[1] – هذه الترجمة من عمل الطالب الباحث.

الملحق رقم 14

Lettre de M. Sanson Napollon à MM. les Consuls et Gouverneurs de la ville de Marseille.[1]

Du Bastion, le 15 février 1632.

« MESSIEURS,

« J'ai receu la lettre qu'il vous a plu m'écrire le mois de novembre dernier, par laquelle vous me dites de vous envoyer de blés, de quoy la ville de Marseille s'y trouve en nécessité. J'ay tousjours rendu tous les services que j'ay pu pour le bien de ladite ville, et de plusieurs particuliers. Je feray encore davantage à votre considération pour le sujet de vos mérites et de ce que je suis votre serviteur ; il y a trois ans que j'ay tousjours mandé tout le blé que j'ai pu pour secourir ladite ville, et continueray tousjours de très-bon coeur. Il n'a que huit jours que j'ay ouvert le chemin avec les Mores ; sont commencés d'en apporter et aussitôt j'ay chargé la barque du patron Tarsy de Toulon pour la conduire à Marseille ; et maintenant j'ay expédié le *Dragon*.

Messieurs, les Consuls de la ville d'Aix ont demandé mille charges ; je serais bien votre obligé de faire, qu'eux en en ayant du besoin, de vous vouloir contenter qu'ils eussent une portion du blé qu'il porte ledit *Dragon*, et ne tarderay pas de vous en envoyer d'autre, et vous assure que ma vie et mon bien s'employe tousjours très-volontiers pour servir la communauté de Marseille en lequel et en votre particulier me ferez faveur très-agréable de me commander, et seray tousjours tout le temps de ma vie, Messieurs, — Votre très-humble et très-obéissant serviteur.

« SANSON DE NAPOLLON. »

---

[1] –H.-D.De Grammont: Relations entre la France et la régence d'Alger au XVII^{e} siècle, p132.

ترجمة الوثيقة السابقة [1]

رسالة السيد سانسون نابلون

إلى السادة حكام وقناصل مرسيليا

من الباستيون، 15 فيفري 1632

سادتي

لقد استلمت الرسالة التي كتبتموها لي في شهر نوفمبر الأخير، والتي من خلالها طـــالبتموني بإرسال مزيد من القمح الذي تحتاجه مدينة مارسيليا. لقد كنت دائما أُقدم الخدمات التي أقدر عليها لصالح المدينة المذكورة، وللعديد من الأفراد. سأعمل أيضا المزيد من أجلكم في موضوع اهتمامكم لأني خادمكم. منذ ثلاثة أيام قمت بشراء ما استطعت من القمح لإنقـــاذ المدينـــة المذكورة، وسأستمر دائما بكل سرور. لم تمر سوى ثمانية أيام منذ اتصالي بالأهالي، وقد بدؤوا بالتزويد، وفورا قمت بشحن سفينة الرائد تارسي من تولون للذهاب بها إلى مارســـيليا، والآن بعثت "دراڤون".

سادتي، قناصل مدينة أيكس طلبوا ألف شحنة؛ سأكون تحت أمركم لتقديم ما هم في حاجة ماسة له، وذلك بأن تقتطعوا لهم جزءا من القمح المشحون على المسماة "دراڤون"، ولا تتأخروا في أن ترسلوا لهم المزيد، وتأكدوا من أن حياتي وما أملك مُسخّرة دائما وبكل سرور في خدمة مجتمع مرسيليا، الذي بفضله وبفضلكم خاصة فإنني أتشرف وأسعد بتوجيهاتكم، وتأكدوا من أني سأظل طول حياتي، سادتي، خادمكم المتواضع والمطيع.

سانسون نابلون

---

[1] – هذه الترجمة من عمل الطالب الباحث.

الملحق رقم 15

Lettre de Louis XIII à MM. les Viguiers, Consuls et Habitants de Marseille.[1]

« DE PAR LE ROY,

« Chers et bien amés, Nous envoyons présentement le capitaine Sanson Le Page en Barbarie pour commander au Bastion de France, comme faisoit le défunt capitaine Sanson Napollon. Il a ordre aussi de passer en Alger, Tunis et Tripolly de Barbarie, pour y faire entendre ma résolution sur certains articles de paix proposés, en l'année mil six cent vingt-huit, par le Divan et Milice dudit Alger, audit défunt capitaine Sanson Napollon ; sur quoy nous avons voulu vous faire savoir par la présente, que la considération du bien et utilité qui reviendra à nos sujets de la Provence, et spécialement de notre ville de Marseille, quand la paix sera établie avec ceux de Barbarie, nous a portés à donner un commandement audit Sanson Le Page, pour l'établissement de ladite paix, et surtout de prendre les suretés nécessaires pour l'observation d'icelle. Vous aurez à lui fournir un vaisseau pour son voyage, et à l'informer, au reste, de tout ce qu'il désirera savoir de vous pour l'exécution des ordres que nous lui avons donnés. A quoi vous ne ferez faute ; car tel est notre plaisir.

« Donné à St-Germain-en-Laye, le neuvième jour de décembre mil six cent trente-trois.

« *Signé* : **Louis**.

« *Contresigné* : BOUTHILLIER . »

---

[1] –H.-D.De Grammont: Relations entre la France et la régence d'Alger au XVIIe siècle, p138.

ترجمة الوثيقة السابقة [1]

رسالة لويس الثالث عشر

إلى السادة قضاة و قناصل وسكان مدينة مرسيليا

من طرف الملك

أعزائي وأحبائي، نرسل الآن القائد سانسون لوباج إلى باربارياً لأجل قيادة حصن فرنسا، كما كان الراحل القائد سانسون نابلون. لقد أُمر أيضاً بالمرور بالجزائر، تونس وطرابلس في باربارياً، لتبليغ قراراتي حول بعض بنود اتفاقيات السلام المقترحة في سنة ألف وستمائة وثماني وعشرين، من طرف ديوان وانكشارية الجزائر، إلى الراحل القائد سانسون. ما أردنا لكم أن تعرفوه من خلال هذه الرسالة مقدار الفوائد المعتبرة والمهمة التي ستدرها علينا مراكزنا التابعة للبروفانس، ولمدينتنا مرسيليا على وجه الخصوص، إذا ما تحقق السلام مع حكام بار باريا. لقد أسندنا إلى المسمى سانسون لوباج مهمة إنجاح السلام المرغوب. وبالأخص أخذ الضمانات اللازمة لملاحظاته. ستقومون بتزويده بسفينة لرحلته. وبإخباره، بالتالي، بكل ما يحتاجه من معلومات لأجل تنفيذ الأوامر التي كلفناه بها. فلا تخطئوا؛ لأن هذه هي رغبتنا.

سلمت في سان جيرمان أون لايي، اليوم التاسع من ديسمبر ألف وستمائة وثلاث وثلاثين.

الأمضاء: **لويس**

المصادقة: بوثيلييه

---

[1] – هذه الترجمة من عمل الطالب الباحث.

الملحق رقم 16

YOUSEF, PACHA D'ALGER,

A LOUIS XIV.[1]

Alger, 1648.

Au plus haut et plus illustre Prince, reconnu pour le plus grand Roi et Seigneur, premier protecteur, défenseur et Empereur des Chrétiens. — Que sa fin soit glorieuse et que Dieu l'achemine en son saint service ! —Salut et bénédiction de notre Dieu souverain, amour et affection de notre part et des présidents et défenseurs de ce Royaume et Cité d'Alger !

Soit présent à Votre Majesté notre désir d'entretenir notre ancienne paix, nonobstant que, au temps passé pendant vingt années, il est arrivé entre les nôtres et les sujets de Votre Majesté certaines rencontres qui ont causé des deux côtés quelque altération contre notre ancienne paix, de manière que, pendant le dit temps, on a conduit ici plusieurs de vos sujets esclaves, et la même chose a été faite à nos sujets par les vôtres, et, par les uns et les autres, cela est retourné au préjudice de tous ! En sorte qu'il vint ici le Capitaine Sanson Napollon, avec lettre de Votre Majesté et Commandement de notre Empereur et Seigneur, accompagné d'un Capidji de la Porte, pour rétablir notre dite paix, et ensuite le dit Capitaine retourna en France et nous conduisit ici environ 300 Turcs ou Maures, tant esclaves qu'autres réfugiés d'Espagne et autres lieux de nos ennemis, ensemble deux canons qui nous avaient été enlevés par le Capitaine Dansa, et ensuite, par délibération de notre Pacha, Grand Muphti, Cadi, Agha et tous ceux de notre Divan, nous rendîmes tous les esclaves sujets de Votre Majesté que nous retenions injustement par tout notre Royaume. Et nonobstant que les Commandements de notre Empereur nous défendent de permettre aux chrétiens, tant amis qu'ennemis, de faire aucune fabrique dans notre dit Royaume, nous avons vu la libéralité que Votre Majesté nous avait faite et la grande amitié qu'elle nous avait témoignée, nous avons demandé au Capitaine Sanson en quelle façon nous pouvions revancher les faveurs reçues ; et nous avons su de lui que

[1] –Eugène Plantet: Les correspondances des deys d'Alger avec la cours de France, T1, p52.

Votre Majesté aurait à plaisir que ses sujets pussent fabriquer au Bastion pour y négocier en cuirs, cires, laines et autres marchandises de notre dit Royaume, et y faire la pêche du corail. Et nous le lui avons accordé, défendant aux autres nations d'y négocier. De laquelle Capitulation s'en firent trois copies dont l'une est demeurée devers nous, et l'autre fut envoyée à Votre Majesté, et la troisième au Duc de Guise.

Et fîmes le susdit traité avec toutes les démonstrations de joie, ayant fait tirer toute notre artillerie en signe de réjouissance.

Et de notre côté jusques à présent il n'y a point eu sujet de rupture de paix ; et s'il est arrivé que nos vaisseaux se soient rencontrés à la mer avec les vôtres, soit qu'ils ne se soient reconnus ou qu'ils ne fussent avertis de notre traité, qu'ils se soient tiré des canonnades de part et d'autre, et que cela ait causé quelque altération de la paix, on a pu jusqu'à présent y remédier, quoique notre intention ait toujours été et est encore de donner de notre côté toute satisfaction, si nous avons manqué en quelque chose.

A présent il y a quelques années qu'il vint ici un Capitaine, commandant, une escadre de navires de Votre Majesté, qui entra avec bannière blanche dans notre port, lequel nous reçûmes avec toute courtoisie, lui ayant envoyé durant trois jours toutes sortes de rafraîchissements, comme c'est la coutume ; et incontinent il déploya bannière rouge et se mit à l'instant à la voile, ce que voyant nous lui envoyâmes quelqu'un de notre part pour lui demander pourquoi il s'en allait ainsi, et savoir ce qu'il demandait.

Auquel il répondit de mauvaises paroles, et en son chemin il rencontra deux de nos navires venant de Tunis, chargés de provisions pour cette Ville, desquelles pour lors nous avions grande nécessité et desquels il s'empara, et n'avons jamais su que cela fuit par Commandement de Votre Majesté. Et résolûmes d'en écrire à Vôtre Majesté, mais ne trouvant occasion pour envoyer nos lettres, et n'étant venu personne de France depuis lors,

il est arrivé que le peuple s'est élevé avec grande fureur, et s'est résolu à rompre le Bastion et en conduire ici les gens. Depuis nous eûmes avis, par des esclaves, comme Votre Majesté n'était contente de ce qui avait été fait par le dit Capitaine, de façon que nous avons résolu avec votre Consul et les gens du Bastion de mander à Votre Majesté Jean-Baptiste de Cocquiel, qui avait commandé au Bastion,

et le charger de lui porter nos lettres, et par conséquent lui donner avis en quel état ont été et sont à présent les affaires, et l'assurer de la bonne volonté que nous avons de garder la paix et la bonne intelligence, et de donner tous les sujets de Votre Majesté qui sont à présent détenus esclaves ici injustement, en nous envoyant nos Musulmans détenus en France. Et avec cela nous garderons la paix jusques à la fin du monde, pourvu que Votre Majesté l'agrée, et en cas que Votre dite Majesté n'incline en cela, Dieu conserve notre Empereur en paix avec Votre Majesté ! et entre vous deux ne manqueront pas les moyens de terminer nos différends. Cependant nous assurons de notre part que les sujets de Votre Majesté pourront aller et venir librement en ce pays et dans nos Échelles, de la même façon qu'ils font par toutes les Échelles du Grand Seigneur. Et Dieu conserve Votre Majesté !

D'Alger, le 22 de la lune de Redjeb, l'année 1648.

(Sceau) YOUSSEF, Pacha d'Alger.

ترجمة الوثيقة السابقة [1]

يوسف باشا الجزائر

إلى لويس الرابع عشر

الجزائر 1648

إلى صاحب المعالي والفخامة، الأمير، المعروف بالسيد الكبير والملك الأكبر، الحامي الأول والمدافع وإمبراطور المسيحيين، نتمنى له حسن الخاتمة، وهداه الله إلى الصراط المستقيم. سلام من الله وبركاته، محبة ومودة من جانبنا، ومن رؤساء وحماة مملكة ومدينة الجزائر.

نعبر الآن لجلالتكم عن رغبتنا في الحفاظ على سلامنا القديم، وأنه على الرغم من أن الفترة السابقة، التي امتدت حوالي عشرين عاما، قد شهدت بيننا وبين رعايا جلالتكم بعض المواجهات التي سببت للطرفين إضرارا بالسلام القديم، بحيث أنه في الفترة المذكورة، سيق الكثير من رعايا جلالتكم إلى هنا كأسرى، ونفس الشيء فعلتموه مع رعايانا، و ما حدث لهؤلاء وأولئك قد أضر بالكل، بحيث أنه قدم إلى هنا القائد سانسون نابلون مع رسالة من جلالتكم وبأمر من إمبراطورنا وسيدنا، مرفوقا بقابدجي الباب، لتحقيق سلامنا المذكور. ثم بعد ذلك عاد القائد المذكور إلى فرنسا لتسريح حوالي 300تركيا أو أهلياً كعبيد من لاجئين آخرين من اسبانيا وغيرها من أماكن أعدائنا، إضافة إلى المدفعين المسروقين من طرف القائد دانسا، ثم بعد ذلك، وبتحرير من الباشا، المفتي الأكبر، القاضي، الآغا، وكل أعضاء الديوان، قمنا بإطلاق سراح رعايا جلالتكم المأسورين لدينا بصفة غير شرعية في كل مملكتنا. وعلى الرغم من أن وصايا إمبراطورنا تمنعنا من السماح للمسيحيين، سواء كانوا أصدقاء أم أعداء، بالقيام بأية أشغال في المملكة المذكورة، فقد لاحظنا التسامح الذي عاملنا به جلالتكم، والصداقة الكبيرة التي برهن عليها، لهذا استفسرنا القائد سانسون عن كيفية رد الجميل؛ وقد علمنا منه أن عظمتكم يرغب في أن يقوم رعاياه العاملين في الحصن بالتفاوض حول الجلود والشمع والصوف وغيره من المواد التي تنتج في مملكتنا، وأيضا يقومون بصيد المرجان. وقد وافقناه على ذلك، في الوقت الذي رفضنا فيه التفاوض مع أمم أخرى. هذا التنازل كتب في ثلاث نسخ،

---

[1] – هذه الترجمة من عمل الطالب الباحث.

واحدة بقيت عندنا، والأخرى أرسلت إلى عظمتكم، والثالثة إلى دوق دو كيز. وقمنا بمناسبة المعاهدة المذكورة بكل مظاهر الفرح، بعد أن أطلقت المدفعية طلقات علامة على الابتهاج.

ومن جانبنا، حتى هذه اللحظة، لم يكن هناك خرق للسلام، وإذا حدث أن التقت سفننا في البحر مع سفنكم، إما أنها لم تكن معروفة، أو لا يكونوا قد أُبلغوا بمعاهدتنا، وأن بعض القصف المدفعي من هنا أو هناك قد أضرت بالسلام، فإنه حتى الآن من الممكن تصحيح ذلك، مع أن اهتمامنا كان دائما ينصب، ولازال، حول إعطاء جانبنا كل الارتياح، إذا قصرنا في شيء.

الآن، وبعد بضعة سنوات عندما قدم قائد مجموعة من السفن التابعة لجلالتكم، ودخل إلى مينائنا حاملا الراية البيضاء، حيث استقبلناه بكل حفاوة، وزودناه، طيلة ثلاثة أيام بكل ما يحتاجه من تموين، كما هي العادة؛ وبدون سابق إنذار إذ به يرفع العلم الأحمر، ويعمد إلى الإبحار، وهذا ما حتم علينا أن نبعث إليه موفدا من قبلنا ليسأله عن سبب ذهابه فجأة، ويعرف ماذا يطلب. لكنه أجابه برد قبيح، وفي طريقه اعترض سفينتين من سفننا القادمة من تونس، محملة بالمؤن لهذه المدينة، والتي نحن في أمس الحاجة إليها، فاستولى عليها، و لم نصدق أبدا أن هذا يصدر بأمر من جلالتكم. لقد قررنا أن نكتب إلى جلالتكم، لكننا لم نجد الفرصة لبعث رسائلنا، و لم يفِد إلينا أي أحد من فرنسا منذ مدة.

لقد جاء الوقت الذي يثور فيه الشعب مع غضب كبير، ويقرر أن يهدم الحصن، ويسوق الناس إلى هنا. وبعد أن لاحظنا من خلال الأسرى، أن جلالتكم غير مسرورين بما فعلة القائد المذكور، بحيث قررنا مع قنصلكم وناس الحصن الطلب من جلالتكم جون بابتيست دو كوكيل الذي كان يسير الحصن، وتكليفه بحمل رسائلنا، وبالتالي إعطائه نظرة عن الحالة التي كانت عليها والتي وصلت إليها الأحداث، والتأكيد له على نيتنا الصادقة بحفظ السلام والوئام، وتسليمه كل رعايا جلالتكم المأسورين هنا ظلما، في مقابل تسليمنا مسلمينا المأسورين في فرنسا. وبهذا سنحترم السلام إلى يوم الدين، شريطة أن يوافق عليه جلالتكم، وفي حالة ما إذا كان جلالتكم لا يميل إلى هذا، فإن الله الذي يحفظ السلام بين إمبراطورنا وجلالتكم، وبينكما أنتما الاثنان لن تُعدم الوسائل لإنهاء خلافاتنا. ومع ذلك فإننا نؤكد لكم من جانبنا أن رعايا جلالتكم يستطيعون الذهاب والعودة بكل حرية إلى هذا البلد في مراكزنا كما يفعلون الشيء نفسه في كل مراكز سلطاننا المعظم. وحفظ الله جلالتكم.

من الجزائر، 22 من شهر رجب العام 1648. (الختم) يوسف باشا الجزائر

الملحق رقم 17

LOUIS XIV

A IBRAHIM, PACHA D'ALGER.[1]

Paris, le 14 juin 1659.

Illustre et magnifique Seigneur,

Ayant pourvu de la charge de Gouverneur et Consul du Bastion de France en Barbarie le sieur Louis Campon, écuyer de notre ville de Marseille, pour rétablir cette place en son négoce, nous avons bien voulu vous écrire la présente, pour vous dire que vous nous ferez plaisir très agréable de le favoriser de votre autorité et protection, et de ne souffrir qu'il lui soit fait, mis ou donné aucun trouble ou empêchement, mais au contraire toute l'aide et l'assistance dont il aura besoin, comme nous ferions, en pareil cas, si nous en étions requis. Cependant nous prions Dieu qu'il vous ait, illustre et magnifique Seigneur, en sa sainte garde.

Écrit à Paris, le 14e jour de juin 1659.

Louis.

لويس الرابع عشر إلى إبراهيم، باشا الجزائر[2]

باريس، 14 جوان 1659.

صاحب الرفعة والفخامة.

نقدم لكم من سيشغل منصب الحاكم والقنصل لحصن فرنسا في "باربارا"، السيد: لـــويس كومبون، مبجل مدينتنا مرسيليا، لاستعادة هذا المكان في تجارته، كذلك أردنا أن نكتب لكـــم هذه الرسالة، طالبين من سلطاتكم تشجيعه وحمايته، وتسهيل ما ينبغي القيام به، من دون أي اضطراب أو عائق، ولكن إلى كل مساعدة يحتاجها، كما نفعل نحن أيضا في مثل هذه الحالـــة، إذا كان ذلك مطلوبا منا. وإننا ندعو الله أن يشملكم، صاحب الجلالة والفخامـــة، بحفظـــه.

كتب في باريس، يوم 14 من يونيو 1659.

لويس

---

[1] –Eugène Plantet: Les correspondances des deys d'Alger avec la cours de France, T1, p56.

[2] – هذه الترجمة من عمل الطالب الباحث.

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية

أ- الوثائق:

- مهمة دفتري رقم 35، صحيفة 122، حكم رقم 314.

ب- المصادر:

1- ابن المفتي حسين: تاريخ بشوات الجزائر وعلمائها، تح: فارس كعوان، بيت الحكمة، الجزائر، 2008.

2- التلمساني محمد بن عبد الرحمان: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، تح: سليم بابا عمر، في مجلة تاريخ وحضارة المغرب، الجزائر، ع3، 1967.

3- خوجة حمدان: المرآة، تح: العربي الزبيري، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1980.

4- العنتري صالح: مجاعات قسنطينة، تح: رابح بونار، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974م.

5- الفكون عبد الكريم: منشور الهداية، تح: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1408هـ/ 1987م.

6- كربخال مارمول: إفريقيا، تر: محمد حجي وآخرون، 3أجزاء، دار نشر المعرفة، الرباط، 1984.

7- المجهول: غزوات عروج وخير الدين، تح: نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1353هـ/1934م.

8- الوزان حسن: وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، جزآن، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983.

ج- المراجع:

1- أبو علية عبد الفتاح وياغي إسماعيل: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، دار المريخ، الرياض، 1993.

2- إلتر عزيز سامح: الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، تر: محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1989.

3- برون جفري: تاريخ أوروبا الحديث، تر: علي المرزوقي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 2006م.

4- البطريق عبد الحميد ونوار عبد العزيز: التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى أواخر القرن الثامن عشر، دار الفكر العربي، مدينة نصر، 1997م.

5- البطريق عبد الحميد ونوار عبد العزيز: التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فينا، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1971.

6- البطريق عبد الحميد ونوار عبد العزيز: التاريخ الأوروبي الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، 1995.

7- بن خروف عمار: العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب خلال القرن10هـ/16م، دار الأمل، الجزائر، 1427هـ/2006م.

8- بوعزيز يحيى: علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا 1500-1830، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985.

9- حاطوم نور الدين: تاريخ القرن السابع عشر في أوروبا، دار الفكر، دمشق، 1986.

10- الخطيب مصطفى عبد الكريم: معجم الألقاب والمصطلحات التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1416هـ/1996م.

11- ديورانت ول: قصة الحضارة، تر: زكي نجيب محفوظ، 11 جزءاً، مطابع الدجوي، القاهرة، 1971.

12- الزبيري العربي: التجارة الخارجية للشرق الجزائري، المؤسسة الوطنية الكتاب، الجزائر، 1984.

13- سبنسر وليم: الجزائر في عهد رياس البحر، تر: عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006.

14- سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، 10أجزاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.

15- سعيدوني ناصر الدين: ورقات جزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000م.

16- فريد بك محمد المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: إحسان عباس، دار النفائس ، بيروت، 1401هـ/1981م.

17- قنان جمال: معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830، دار هومه، الجزائر، 2010.
18- الكيلاني عبد الوهاب: موسوعة السياسة، 5 أجزاء، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1990.
19- مازاران جول: دليل السياسي الناجح، تر: خميس حسن، دار الطلائع، القاهرة، 2006.
20- المدني توفيق: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492-1792، دار البصائر، الجزائر، 2007.
21- مروش المنور: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، جزآن، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009.
22- المقرحي ميلاد أ.: تاريخ أوربا الحديث، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، 1996م.
23- الميلي مبارك: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، 3 أجزاء، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964.
24- نايت بلقاسم مولود قاسم: شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة1830، جزآن، دار الأمة، الجزائر، 2007.
25- نصّار حسين محمد وآخرون: الموسوعة العربية الميسرة، 7 أجزاء، المكتبة العصرية، بيروت، 2010.
26- نوار عبد العزيز وجمال الدين محمود: التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، مدينة نصر، 1999.
27- وولف جون: الجزائر وأوربا 1500-1830، تر: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2009.

د- المقالات والدوريات:

1- أوغلي خليل ساحل: "إحداث لواء جديد في الجزائر في أواخر القرن السادس عشر يتركب من بلد العناب وباستيون ومتبارقة وقلعة باجة"، في الأصالة، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، ع35/34، 1396هـ/1976م.
2- زكية زهرة: "لمحة عن الجغرافي الأميرال العثماني بيري رايس"، في مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، ع06، 1413هـ/1992م.

3- سعد الله أبو القاسم: "أربع رسائل بين باشاوات الجزائر وعلماء عنابه"، في الثقافة، ش.و.ن.ت، الجزائر، ع 51، جمادى الثانية- رجب 1399هـ/مايو- جوان 1979م.
4- سعيدوني ناصر الدين: "البحرية الجزائرية، ظروف نشأتها وعوامل تطورها وأسباب ضعفها"، في مجلة الدراسات التاريخية، الجزائر، ع10، 1417هـ/1997م.
5- سعيدوني ناصر الدين: "الحياة الاقتصادية بعنابه خلال العهد العثماني"، في الأصالة، ع35/34، 1396هـ/ 1976م.
6- سعيود إبراهيم: "بعض جوانب العلاقات بين الجزائر وتوسكانيا خلال العهد العثماني"، في دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر، ع12، 2009.
7- الصباغ ليلى: "عنابه بين اسمها وموقعها وعلاقاتها مع العالم المتوسطي حتى الاحتلال الفرنسي"، في الأصالة، ع35/34، 1396هـ/1976م.
8- الغاشي مصطفى: "العلاقات الفرنسية العثمانية خلال القرن السادس عشر وانعكاساتها المستقبلية"، في مجلة كلية الآداب بتطوان، المغرب، ع 8، 1997.

هـ- الرسائل الجامعية:

1- بعارسية صباح: حركة التصوف بالجزائر خلال القرن 10هـ/16م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2006/2005م.
2- بن خروف عمار: العلاقات بين الجزائر والمغرب(923-1069هـ/1517-1659م)، رسالة ماجستير في التاريخ، قسم التاريخ، جامعة دمشق، 1403هـ/1983م.
3- ثابت جميلة: دور الأعلاج في العلاقات بين الجزائر ودول جنوب غرب أوروبا خلال القرنين 10-11هـ/16-17م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، المركز الجامعي بغرداية، 2011-2012م.
4- حسنة كمال: العلاقات العثمانية الفرنسية في عهد السلطان سليم الثالث (1789-1807م)، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2005م.
5- علوش سهيلة: العلاقات بين وكلاء حصن الباستيون الفرنسي والسلطات المحلية في الجزائر خلال العهد العثماني 1640-1798، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2005-2006م.

6- غطاس عائشة: العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 1985م.

7- القاري ياسر بن عبد العزيز: دور الامتيازات الأجنبية في سقوط الدولة العثمانية، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى بمكة، المملكة العربية السعودية، 1422هـ/2001م.

ثانياً: المصادر والمراجع باللغة الأجنبية

أ- الوثائق:

1- Ambassades à Constantinople de François de Noailles, Savary de Lancosmc, Savary de Brèves, Harlay de Césy et M. de Marcheville. (1572-1632).. XVIIe siècle. Biblioth. nat. mss. fr. 7161. f187.

2- Traités des Consuls de la Nation Française avec les Pays Etrangers, Pièces Originales Toucha le XVIIe Siècle, Biblioth. nat. mss. fr. 18595. f 72.

3- Traités faits entre le Grand-Seigneur et les rois de France. Biblioth. nat. mss. fr. 16141. f207.

ب- المصادر:

1- Aranda Emanuel d': Relation de la Captivité, Chez Gervais Glousier, Paris, 1657.

2- Arvieux Laurent d': Mémoires du chevalier d'Arvieux, 6Tomes, Chez Jean-Baptiste Delispine, Paris, 1735.

3- Baudeau Nicolas: Encyclopédie Méthodique. Commerce, 3Tomes, Panckoucke Libraire, Paris, 1783.

4- Beaulieu-Persac Ph. Prévost de: Mémoires de Philippe Prévost de Beaulieu-Persac, Pub: Gh. de la Roncière, Librairie Renouard, Paris, 1913.

5- Dan R.P.Pierre: Histoire de Barbarie et de ses corsaires, Pierre Rocolet Imprimeur et Libraire ordinaire de Roi, Paris, 1646.

6- Dumont Le baron Jean: Corps universel diplomatique du droit des gens contenant un recueil des traites d'alliance de paix, Chez P. Brunel, Amsterdam, 1728.

7- Haedo F. Diego de: De la captivité à Alger, Trad: Moliner-Violle, Typographie Adolphe Jourdan Imprimeur-Libraire, Alger, 1911.

8- Haedo F. Diego de: Histoire des rois d'Alger, Trad: H.-D. De Grammont, Typographie Adolphe Jourdan Imprimeur-Libraire, Alger, 1881.
9- Nicolay Nicolas de: Les navigations, pérégrinations et voyages faits en la Turquie, Guillaume Silvius, Imprimeur de Roi, Anvers, 1576.
10- Richelieu Le Cardinal De: Mémoires, De Firmin Didot Frères, Paris, 1837.
11- Ruffi M.Antoine De : Histoire de la ville de Marseille, Henri Martel Imprimeur-Libraire, Marseille, 1696.
12- Savary Brèves F.: Relation des Voyages de Monsieur De Brèves, Chez Nicolas Gasse, Paris, 1628.
13- Savary Jacques: Le Parfait négociant, 2 Tomes, Chez les frères Estienne, Paris, 1757.
14- Shaw Dr.: Voyage dans la Régence d'Alger, Trad: J. Mac Carthy, chez Marlin Editeur, Paris, 1830.
15- Sourdi Henri de: Correspondance de Henri d'Escoubleau de Sourdis, 2 Tomes, L'imprimerie de Chapelet, Paris, 1839.

ج– المراجع:

1- Augustin Fabré: Histoire De Marseille, 2 Tomes, Arius Olive Editeur, Marseille, 1820.
2- Baude Le baron: l'Algérie, 2Tomes, Arthus Bertrand Libraire, Paris, 1841.
3- Belin M.: Des Capitulations et des Traités de la France en Orient, Challamel Libraire-éditeur, Paris, 1870.
4- Boutin Abel: Anciennes Relations Commerciales et Diplomatiques de la France avec la Barbarie 1515-1830, A. Pedone Editeur, Paris, 1902.
5- Card E. Rouard de: Traités de la France avec les Pays de l'Afrique du Nord: Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc, A. Pedone Editeur, Paris, 1906.
6- Charrière E.: Négociations de la France dans le levant, 4tomes, Imprimerie Nationale, Paris, 1848.
7- Chevalier Pitre: Chroniques de la Fronde (1648-1652), Victor Lecou Libraire-éditeur, Paris, 1852.
8- Delof Guy Turbet-: Bibliographie Critique du Maghreb dans la littérature française 1532-1715, S.N.E.D, Alger, 1976.

9- Devoulx Albert: Les Archives du consulat général de France à Alger, Bastide Libraire- Editeur, Alger, 1865.
10- Fayet Aurélien et Fayet Michelle: L'histoire de France des Origines à Nos Jours, Groupe Eyrolles, Paris, 2009.
11- Féraud Charles: Histoire des villes de la province de Constantine. La Calle, Typ. de l'Association ouvrière V. Aillaud et Cie, Alger, 1877.
12- Gaid Mouloud: Chronique des Beys de Constantine, O.P.U, Alger, 1980.
13- Galibert M. Leon: Histoire de l'Algérie Ancienne et Moderne, Furne Et Cie Libraires-Editeurs, Paris, 1843.
14- Grammont H.-D. De: Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830), Ernest Leroux Editeur, Paris, 1887.
15- Grammont H.-D. De: Relations entre la France et la régence d'Alger en XVII siècle, Adolf Jourdan librairie éditeur, Alger, 1879.
16- Hammer J.De : Histoire de l'Empire Ottoman depuis son origine jusqu'à nos jours, Trad: J.J.Hellert, 18 Tomes, Bellizard et Cie Libraires, Paris, 1836.
17- Heinrich Pierre: L'Alliance Franco-Algérienne au XVIe siècle, Imprimerie Vve Mougin-Rusand, Lyon, 1898.
18- Jal A.: Dictionnaire critique de biographie et d'histoire, Henri Plan Imprimeur Editeur, Paris, 1867.
19- Lamirault Henri et Cie: La Grande Encyclopédie inventaire raisonné des sciences des lettres et des arts, 31 Tomes, H. Lamirault et Cie. Editeurs, Paris, 1885-1902.
20- Lan-Poole Stanlay: The Story Of The Barbary Corsairs, G. P. Putnam's Sons, New York, 1890.
21- Louandre Charles: Siècle de Louis XIV, 2 Tomes, Charpentier et Cie Libraire-éditeur, Paris, 1874.
22- Mac-Mahon Le maréchal de: Documents inédits sur l'Histoire de l'occupation espagnole en Afrique 1506-1574, A. Jourdan Libraire-éditeur, Alger, 1875.
23- Mas Latrie M. L. De: Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au moyen âge, Henri Plon imprimeur-éditeur, Paris, 1866.

24- Masson Paul: Histoire de Commerce Français dans le Levant au XVIIe Siècle, Libraire Hachette et Cie, Paris, 1896.
25- Masson Paul: Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique barbaresque (1560-1793), librairie Hachette et Cie, Paris, 1903.
26- Masson Paul: Les compagnies du corail, fontemoing éditeur, Paris, 1918.
27- Masson Paul: Marseille et la Colonisation Française, Barlatier Imprimeur-Editeur, Marseille, 1906.
28- Ohsson M. D. d': Tableau Général de l'Empire Ottoman, Pub: M.C.D.Ohsson, Chez Firmin Libraire, Paris, 1824.
29- Panzac Daniel: Les Corsaires Barbaresques la Fin d'une Epopée, CNRS Éditions, Paris, 1999.
30- Peyssonnel et Desfontaines: Voyage dans les Régence de Tunis et d'Alger, 2 Tomes, Librairie de Gide, Paris, 1838.
31- Plantet Eugène: Les consuls de France à Alger avant la conquête 1579 -1830, Messagerie Hachette, Paris, 1930.
32- Plantet Eugène: Les correspondances des deys d'Alger avec la cour de France (1579-1833), 2 Tomes, Paris, 1889.
33- Rotalier Ch. De: Histoire d'Alger et de La Piraterie Turque dans la Méditerranée, 2tomes, Paulin Libraire-éditeur, Paris, 1841.
34- Rousseau A.: Annales Tunisiennes, Bastide Libraire-éditeur, Alger, 1864.
35- Saint-Priest Le Comte de: Mémoires sur l'Ambassade de France en Turquie, Ernest Leroux Editeur, Paris, 1877.
36- Teissier M. Octave: Inventaire des Archives Historiques de la Chambre de Commerce de Marseille, Typographie et Lithographie Barlatier-Feissat père et fils, Marseille, 1878.
37- Testa Le Baron I. De: Recueil des Traités de la Porte Ottomane avec les Puissances Etrangères, 4tomes, Amyot Editeur, Paris, 1867.

د- المقالات والدوريات:

1- Belhamissi Moulay: "Course et contre-course en méditerranée ou comment les algériens tombaient en esclavage", in, Cahiers de la Méditerranée, N°:65, 2002. http ://cdlm.revues.org/index36.html, 03/03/2011, 22 :35.

2- Berbrugger A. : "Les Algériens demandent un roi français en 1572", in, R.A, A. Jourdan Libraire-éditeur, Alger, V5, 1861.
3- Berbrugger A.: "Notes Relatives à la Révolte de Ben Sakheri", in,R.A, V10, 1866.
4- Boyer Pierre: "La révolution dite des "Aghas" dans la régence d'Alger (1659-1671)", in, R.O.M.M, MMSH– IREMAM, Aix-en-Provence, N°:13-14, 1973.
5- Brogini Anne: "Entre France et Espagne, Les Crises dans le Comté de Nice Au XVIe Siècle", in, Cahiers de la Méditerranée, N°74, 2007, http ://cdlm.revues.org/index2073.html,12/02/2011, 20 :15.
6- Capot-Rey: "La politique française et le Maghreb méditerranéen (1643-1685)", in, R.A, V75, 1934.
7- Fontenay Michel: "La place de la course dans l'économie portuaire : l'exemple de Malte et des ports barbaresques", in, A. E. S. C, N°:6, 1988.
8- La Primaudaie F.Elie de: "Le Commerce et la Navigation De l'Algérie", in, R. A. C, Librairie L. Hachette et C^ie, Paris, N°:2, juin 1860.
9- Mantran Robert: "La description des côtes de l'Algérie dans le Kitab-i Bahriye de Pirî Reis", in, R.O.M.M, N°: 15-16, 1973.
10- Pierre Boyer: "Le problème Kouloughli dans la régence d'Alger", in, R.O.M.M, N°:8, 1970.
11- Vayssettes M. E.: "Histoire de Constantine sous La Domination Turque de 1517 à 1837", in, R. N. M. S. A. C, L. Anolet Libraire-éditeur, Constantine, V11, 1867.
12- Veinstein Gilles: "Les Préparatifs de la Campagne Navale Franco-Turque en 1552 à Travers les Ordres du Divan Ottoman", in, R.O.M.M, N°:39, 1985.
13- Watbled E.: "Aperçu sur les premiers consulats français dans le levant", in, R.A, V16, 1872.

ثالثاً: مواقع الانترنيت

1- موقع المكتبة الوطنية الفرنسية (Gallica): www.gallica.bnf.fr

2- دورية كراسات المتوسط(Cahiers de La Méditerranée):
http ://cdlm.revues.org

3- موقع بيرسي(Persée) به العديد من المجلات والدوريات: http://www.persee.fr

الفهـــارس

فهرس الأعلام

– أ –

إبراهيم العرابدجي: 108.

إبراهيم باشا (الصدر الأعظم): 15.

إبراهيم باشا (باشا الجزائر): 81، 89.

ابن الصخري: 83،84، 85، 86، 100، 113.

أبو حسون الوطاسي: 27.

أبو يحيى زكريا: 12.

أحمد الأول: 43، 67.

الآغا خليل بولكباشي: 89.

ألفونص دولينش: 61.

آن النمساوية: 55، 91.

أندري دوريا: 35.

أوغلي(خليل ساحل): 21.

–ب–

بارثيلمي(القديس): 30.

البارون دالمان: 45 ،48، 60، 63، 71.

البارون دي تيستا: 14.

بربروس: 26.

بربريجير: 37.

بِرونجييه: 71، 72.

بلانتي : 12، 15، 16، 17، 18.

بلانشار: 109.

بيري رايس العثماني: 17.

بيونو: 37.

–ت–

توماس بيكي: 80، 81، 102، 104، 111.

–ج–

جاك سافاري: 24.

–ح–

حسن(بن خير الدين): 26، 36.

حسن آغا: 34.

حسين الشيخ: 53.

حسين باشا(بن الشيخ): 53، 54، 75.

–خ–

خالد أُومحمد بن علي: 85.

خسروف باشا: 53، 54.

خضر باشا: 21.

خيدر باشا: 43، 44.

خير الدين : 18، 26، 34، 36.

–د–

دارامون: 17، 36.

دارجونكور: 62.

داروندا: 82، 86.

داكس: 38، 39.

دالي رايس: 58.

دانسا: 45، 47، 58، 59، 71، 75.

دو بريف: 32، 33، 44، 48.

دو غلاندوفيس: 71، 72.
دو فيا: 37.
دو كاستيل: 44.
دو مواساك: 46، 71.
دوبوربون: 17.
دوغرامون: 71.
الدوق دانجو: 38.
دوق دوصافوا: 34.
ديدييه (كارلين): 11، 19، 20.
دي سنتا كروز: 53.
دي سوردي: 90، 98، 100.
دي كوكيل: 79، 80، 85، 99، 100، 103.
دي لافوري: 15، 16.
دي ليزل: 37.
دي منتي: 79، 83، 100.

–ر–

الرايس رجب: 63، 65.
الرايس مصطفى: 108.
رشيليو: 55، 56، 75، 89، 90، 100.
رضوان باشا: 15.
رفايلاك: 33، 54.
رمضان باشا:39، 51.
روبير مانسيل: 52.
روزان باي: 60، 72.
ريكو: 96، 109.

–س–

سليم الأول: 88.
سليمان باشا: 43.
سليمان القانوني: 13، 14، 15، 20.
سليمان شاوش: 59، 66.
سليمان قاطانيالي: 53.
سيدي حمودة: 109.

–ش–

شارل التاسع: 30، 36، 38، 40.
شارل الخامس، شارلكان: 13، 27، 28، 34، 35.
شاريار: 14، 39.
شي فرانسوا: 54، 72.

–ص–

صالح رايس: 34.
صورون: 37.

–ط–

طهماسب شاه: 15.

–ع–

عبد المالك السعدي: 27.
عراب أحمد: 39.
عروج: 26.
العلج علي: 26، 39.
علي بتشين: 83، 87، 88، 98.

-غ-

غطاس عائشة: 62.

-ف-

فانسون بيرطول: 36.

فرانسوا الأول: 13، 28، 29، 30، 35.

فرانسوا الثاني: 30.

فرنجباني: 14.

فريد بك: 14.

فليب الثالث: 31.

فنيزيانو حسن: 35.

فيرو: 16، 18، 48، 76، 80، 84.

فيليب الثاني: 34.

-ق-

القاري ياسر بن عبد العزيز: 14.

قاسم بن أم هانئ : 39.

قنان جمال: 76، 98.

-ك-

كارنييه: 96.

كارو: 35.

كاسبار: 56.

كالفن: 29.

كلود سينيس: 47، 71.

كليمونت الثامن: 31.

كوسا محمد: 44.

كوسة مصطفى: 50، 52.

الكونت دالكوديت: 27.

كونسيني: 55.

كيز: 30، 45، 46، 57، 58، 61، 62، 63، 75، 76، 77.

كينان آغا: 60، 72.

-ل-

لابريموداي: 17، 19، 24.

لازارين دي سيرفيان: 78.

لامبير فرهور: 52.

لوباج: 78، 79، 96، 97، 98، 102، 103.

لونكوم: 32.

لويز دي صافوا: 14.

لويس الثالث عشر: 45، 54، 55، 57، 62، 64، 70، 75، 78، 79، 91، 97.

لويس الحادي عشر: 17.

لويس الرابع عشر: 81، 91، 92.

لويس بلانسكو: 64.

لويس كومبون: 81.

لينش: 10، 43، 46، 47، 61، 62، 71.

ليو العاشر: 29.

-م-

مابِين: 30.

مارمول: 18.

ماري دي ميديسيس: 54.

ماريا تريزا: 92.

مارينو كابيللو: 88.
مازران: 91، 92.
ماسون: 16، 19، 20، 43، 76.
محمد الثالث: 22.
محمد الساسي البوني: 86.
محمد بن الأحسن: 39.
محمد بن فرحات: 51.
محمد خوجة: 32، 96، 102.
محمود شاوش: 59، 71.
مراد رايس: 42، 44.
مراد باشا: 53.
مراد باي: 84، 85.
مصطفى الآغا: 44.
مصطفى باشا: 53.
مصطفى قصور: 53.
مولود قايد: 81.
الميلي (مبارك): 39.

-ن-

نابلون(سانسون): 46، 54، 59، 72، 74، 75، 76، 77، 78، 79، 93، 94، 96، 97، 99، 102، 103، 105، 108، 109، 110، 112.
نيكولاس دي نيكولاي: 14.

-هـ-

هامر: 15.
هايدو: 34، 39.
هنري الثالث: 30، 35.
هنري الثاني: 30، 34، 36.
هنري الرابع: 30، 31، 32، 33،41، 45، 46، 54، 55، 56، 58، 68.

-و-

الوزان (حسن): 18.

-ي-

يحي بوعزيز: 99.
يوسف باشا: 85، 98، 103.

فهرس الأماكن

– أ–

الأدرياتيك (البحر): 87، 88.

أزمير: 89.

اسبانيا: 12، 28، 31، 51، 55، 56، 60، 79، 92، 99.

اسطنبول: 14، 17، 32، 36، 38، 41، 45، 48، 49، 50، 57، 60، 66، 67، 68، 70، 71، 72، 82، 112.

الإسكندرية: 63، 67.

ألبانيا: 88.

أمريكا: 33، 52.

انجلترا: 52.

إيران: 15.

ايطاليا: 12.

–ب–

باجة: 21.

باريس: 60، 33، 91، 92.

بافي: 13.

بالتيمور: 87.

بجاية: 12، 17، 25، 26، 27.

البرانس (جبال): 92.

برشك:68.

بغداد: 15.

البندقية: 28.

البوسنة والهرسك: 28.

بومالك (خليج): 11، 18.

البينون: 27.

–ت–

تلمسان: 26.

تنـــس: 25، 26، 52، 68.

تور: 60، 62.

توسكانيا: 65.

توغرت: 25.

تولون: 34، 70، 103.

تونس: 16، 17، 21، 26، 39، 47، 49، 53، 83، 98.

–ج–

جبل طارق: 58.

جيجل: 11، 25، 26، 53، 68.

–د–

الدانمارك: 52.

دلـــس: 25، 26، 52.

دورديخت: 58.

دولاروشيل: 57.

الدولة العثمانية: 12، 16، 26، 27، 32، 35، 49، 60، 61، 66، 70، 75، 87، 88، 94.

–ر–

الرأس الأحمر: 11، 18، 20.

الرأس الوردي: 24.

-ز-

الزيبان: 84.

-س-

سردينيا: 96.

سلا: 96، 102.

سيبوس وادي: 11، 18، 20.

-ش-

شرشال: 25، 27، 68.

شمال إفريقيا: 10، 11، 19، 51، 105.

-ص-

الصحراء: 84.

صقلية: 53.

-ط-

طبرقة: 12، 18، 19، 21.

طرابلس: 26، 49.

-ع-

عنابه: 11،12، 17، 18، 19، 21، 23، 24، 27، 46، 51، 69، 71، 77، 84، 85، 104، 106، 110.

-ف-

فاس: 27.

فالنسيا: 58.

فلونا: 87، 88.

-ق-

قاطانيا: 53.

القالة: 11، 19، 23، 40، 48، 61، 81، 85، 106.

قجال: 84.

القسطنطينية: 15،36، 49.

قسنطينة: 18، 28، 42، 51، 53، 84، 104، 110.

القصبة: 82، 86، 97.

القل: 24، 25، 40، 48، 106، 110.

القنال الانجليزي: 87.

-ك-

كالابريا: 87.

-ل-

لاسيوتا: 70.

ليفورن: 51، 67.

-م-

مازونة: 28.

مالطا: 65.

المتوسط (البحر الأبيض): 10، 11، 12، 41، 52، 56، 66، 76، 87، 98.

المدية: 28.

مرسى الخرز: 18.

المرسى الكبير: 25، 27.

مرسيليا: 12، 19، 20، 35، 44، 46، 47، 57، 58، 59، 62، 63، 64، 66، 67، 68، 69، 70، 71، 72، 74، 75، 77، 78، 103، 109.

مستغانم: 26، 27، 28.
مصر: 14.
معسكر: 28.
المغرب (الأقصى): 27، 47، 96.
مونبلييه: 55.
مينورقة: 77.
ميورقة: 43، 77.

–ن–

نانت: 31، 55.
نهر سرّات: 53.
نيس: 34.

–هـ–

الهند : 52.
هولندا: 16، 28، 44، 52، 90.

–و–

ورقلة: 25.
وهران: 25، 26، 27، 28، 51، 86.

فهرس القبائل والجماعات

– أ–

الأتراك: 10، 12، 26، 38، 39، 51، 64، 65، 82، 83.

الأجانب: 54، 107.

الآغاوات: 88، 89.

الانجليز: 33، 48، 51، 63.

الأندلسيون: 26، 51، 99.

الانكشاريون (الانكشارية): 49، 82، 85، 88، 100.

الأهالي: 11، 12، 18، 19، 20، 21، 22، 24، 42، 51، 64، 77، 78، 79، 81، 104، 105، 107، 108، 109، 110، 111.

الأوجاق: 43، 86، 88، 89.

أولاد ذياب: 106.

–ب–

الباشوات: 43، 49، 50، 60، 82، 83، 86، 88، 89.

البروتستانت: 29، 30، 31، 55.

البروفانسيون:12، 17.

البنادقة: 87.

بنو جلاب: 25.

بنو زيان : 26.

بنو عامر : 25.

بنو عباس: 26.

البوربون: 30.

البيلربايات: 25، 60.

–ت–

التوسكان: 51، 53.

–ج–

جزويت: 58.

الجنويون: 12، 17، 18، 20.

–ح–

الحنانشة: 84، 85، 106.

–د–

الدخلاءِ: 54.

الذواودة: 25، 84، 85.

–ر–

الروس: 87.

الريّاس: 43، 96.

–ز–

زواوة: 53.

–ش–

الشيخ امبارك (قبيلة): 24.

–س–

السويسريون: 28.

–ع–

علاّهم: 25.

–ف–

ڤالوا: 30.

–ق–

القبائل: 25، 27، 50، 51، 60، 83، 84، 85، 86، 106، 113.

القراصنة: 18، 36، 37، 43، 62، 63، 69، 77، 81، 91، 93، 95، 96.

–ك–

الكاثوليك: 30، 31، 55، 56.

الكتليون: 12.

الكراغلة: 82، 83.

كوكو: 25.

–م–

مرداس: 106.

المرسيليون: 12، 48، 64، 67.

–ن–

النبلاء: 55، 56، 92.

نهد (قبيلة): 106.

–هـ–

الهابسبورغ: 28.

الهولنديون: 52.

الهيجونوت: 29، 31، 55، 56، 90.

–ي–

اليولداش: 54.

فهرس المصطلحات التجارية والاقتصادية

– أ –

الاتفاقيات: 42، 61، 102.

احتكار (يحتكرون): 21، 105، 108، 111، 113.

أرباح: 63، 67، 104، 106، 107.

ازدهار: 20، 41، 70، 92، 108، 111، 112.

استغلال: 11، 17، 18، 20، 22، 40، 43، 76، 78، 80، 109.

الأسعار: 21.

الأسواق: 105.

أصواف (صوف): 12، 21، 40، 76، 105، 107.

اقتصاد (اقتصادي، اقتصادية): 10، 11، 21، 22، 36، 41، 43، 54، 57، 59، 74، 89، 93، 94، 95، 100، 104، 105، 106، 107، 108، 111، 112، 113.

اقتناء: 106.

أقمشة: 12، 32، 107.

آلات حديدية: 12.

التزام: 43، 80، 81، 111.

الأماكن: 24، 77.

امتياز (امتيازات): 10، 12، 14، 15، 16، 18، 21، 22، 23، 29، 32، 40، 45، 56، 57، 59، 61، 62، 67، 68، 74، 76، 94، 106، 109.

الأموال: 14، 50، 92، 109، 110.

الإنتاج: 105، 106، 113.

أوقية: 20، 21، 43، 70، 88.

–ب–

البرانس (حياكة): 105.

البقول: 105.

بنود: 16، 42، 60، 61، 63، 68، 79، 95، 96، 99، 100، 102، 103، 113.

–ت–

تأهيلِ: 67، 72، 73، 74، 76، 80، 94، 105، 112.

تبادل: 97، 103، 106، 108، 111، 113.

تجارة: 12، 19، 20، 22، 24، 31، 32، 40، 42، 46، 47، 48، 58، 75، 76، 77، 79، 85، 90، 99، 104، 110، 112، 113.

تحصيل: 50.

التحصينات: 18، 20، 77.

تربية المواشي: 106.

ترخيص: 43.

ترميم: 44، 45، 46، 62، 71، 80، 86.

تصدير: 21، 22، 24، 42، 77، 78، 106، 112.
تفضيلات: 77، 109، 110.
تكاليف: 23، 50.
التوازن الاقتصادي: 21.
توريد: 20، 78، 105، 110.

–ث–

الثروة: 32، 50.
الثمن: 24.

–ج–

جلود: 12، 21، 22، 24، 40، 76، 77، 105، 107.
جنيه: 23، 24، 75، 94.
الجودة: 24.

–ح–

الحاجيات: 106.
حجز: 48، 58.
الحدادون: 105.
الحركة التجارية: 47، 48، 70.

–خ–

الخزّازون: 105.
الخرناجي: 53.
الخزّافون: 105.
خضروات: 105.
خيول: 12، 24.

–د–

دُنوش: 105.
الديون: 80.

–ر–

الرشوة: 50.
رواتب: 77، 82، 86، 88.

–ز–

زيوت (زيت): 12، 111.

–ش–

شحم: 111.
شحن: 23، 48، 78.
شراء: 20، 21، 50، 107، 110.
الشركة: 10، 20، 21، 43، 46، 47، 61، 62، 67، 71.
الشمع: 21، 22، 24، 76، 77، 105، 107، 110.

–ص–

الصفقات: 105.

–ض–

ضبلون: 77، 80.
ضرائب (ضريبة): 22، 32، 46، 50، 85، 90، 91، 106.

–ط–

طبقة: 29، 49، 107.

–ع–

العسل: 105.

عوائد: 23، 42، 43، 63، 86، 93، 100، 104، 105.

-غ-

الغنائم: 43، 59، 70.

غنيّة: 53.

-ف-

فرنك: 93.

فوائد: 95.

-ق-

القرار: 46، 48، 68.

قرش: 62، 69، 96، 102.

القفيز: 21.

القوت: 107.

-ك-

الكتان: 22، 77، 107.

كراء: 22، 48.

كمّيات: 20، 42، 78، 105، 112.

-ل-

اللّزمة: 43، 84، 85، 86، 113.

ليرة: 35، 95، 78.

-م-

مبادلة (التبادل التجاري): 106.

متوازنة: 108.

مداخيل: 20، 21، 85، 105.

مدير الباستيون: 78، 79، 80، 81، 96، 100، 103، 104، 109، 111.

المراكز التجارية: 12،11، 15، 16، 18، 19، 20، 22، 23، 26، 35، 45، 51، 57، 67، 68، 76، 77، 85، 86، 95، 96، 113.

المرجان: 12، 16، 17، 18، 19، 20، 22، 23، 24، 40، 42، 76، 77، 79، 106، 112.

المصادقة: 80.

مصاريف: 21.

معادن: 12.

معاهدة الامتيازات: 12 ،14، 15، 19، 23، 30، 35، 45، 50، 67، 68، 69.

المقايضة: 106.

مكسب: 94.

الملاحية: 60، 77.

ملحقات: 22، 23، 48، 71، 72 ،76، 77، 80 ،85، 86، 95، 105.

ممتلكات: 17، 38، 40، 67.

المنافع: 108، 111، 113.

المنشئات: 77.

مواد (تجارية، أولية، غذائية، مصنعة،...): 22، 24، 67، 87، 105، 107، 112.

مُوَرّد: 67.

-ن-

النجّارون: 105.

النفقات: 23.

نقابي: 105.

النقود: 106.

-هـ-

الهدايا: 14، 21، 50، 93، 108 ،110، 111، 113.

-و-

وكلاء: 23، 24، 102، 103، 106، 113.

-ي-

يستورده: 107.

فهرس الموضوعات

الإهـــداء

شكر وتقدير

قائمة المختصرات

مقـــدمة 1

الفصل الأول: تأسيس وكالة الباستيون والعلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السادس عشر 10

المبحث الأول: تأسيس وكالة الباستيون 11

1- التعريف بوكالة الباستيون 11

2- الاتصالات الأولى 11

3- معاهدة الامتيازات 12

4- تأسيس الباستيون 17

5-نشاط وكالة الباستيون خلال القرن السادس عشر 20

6- ملحقات الباستيون 22

المبحث الثاني: العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السادس عشر 25

1- أوضاع الجزائر خلال القرن السادس عشر 25

أولا: الاحتلال الاسباني 25

ثانيا: بداية العهد العثماني 26

2- أوضاع فرنسا خلال القرن السادس عشر 28

أولا: عهد فرانسوا الأول(1515-1547) 28

ثانيا: عهد هنري الرابع 1589-1610م 30

ثالثا: فرنسا في عصر العظمة 31

3- العلاقات بين البلدين 33

أولا: التواجد العسكري الجزائري على السواحل الفرنسية 33

ثانيا: القنصلية الفرنسية في الجزائر 35

ثالثا: بداية الأطماع الفرنسية في الجزائر 37
الفصل الثاني: أوضاع وكالة الباستيون وانعكاساتها على العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال الربع الأول من القرن السابع عشر (1604–1628م) 41
المبحث الأول: أوضاع وكالة الباستيون خلال الربع الأول من القرن السابع عشر... 42
1–تهديم الباستيون سنة 1604م 42
2–إعادة تهديمه سنة 1618م..... 45
3–أنشطة الباستيون 46
المبحث الثاني: العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال الربع الأول من القرن السابع عشر 49
1– أوضاع الجزائر خلال الربع الأول من القرن السابع عشر 49
أولا: سياسة الباشوات..... 49
ثانيا: أهمّ الباشوات..... 50
أ–ولاية كوسة مصطفى..... 50
ب–ولاية رضوان باشا..... 51
ج–ولاية كوسة مصطفى "ثانيا"..... 52
د–ولاية حسين الشيخ باشا..... 53
هـ–ولاية سليمان قاطانيالي باشا..... 53
2– أوضاع فرنسا خلال الربع الأول من القرن السابع عشر 54
أولا: عهد لويس الثالث عشر..... 54
ثانيا: سياسة ريشيليو..... 56
ثالثا: أوضاع مرسيليا 57
3– العلاقات بين البلدين..... 57
أولا: مدفعا دانسا..... 58
ثانيا: اتفاقية 1619م 59
ثالثاً: مذبحة البعثة الجزائرية..... 63

المبحث الثالث: انعكاسات أوضاع وكالة الباستيون على العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال الربع الأول من القرن السابع عشر 67
1-تجديد معاهدة الامتيازات سنة 1604م 67
2-القرصنة البحرية 68
3-النشاط الدبلوماسي بين البلدين..... 70
الفصل الثالث: نشاط وكالة الباستيون وأثره على العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر (1628-1659م).....74
المبحث الأول: نشاط وكالة الباستيون خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر 75
1-نشاط الباستيون خلال عهد نابلون(1628-1633م)..... 75
أولا: قدوم سانسون نابلون 75
ثانيا: إعادة بناء الباستون 76
ثالثا: أنشطة الباستيون 77
2-نشاط الباستيون خلال عهد خلفاء نابلون(1633-1659م) 78
أولا: جهود سانسون لوباج 78
ثانيا: انجازات دي كوكيل..... 79
ثالثا: خيانة توماس بيكي..... 80
المبحث الثاني: العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر. 82
1-أوضاع الجزائر خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر 82
أولا: ثورة الكراغلة..... 82
ثانيا: ثورة ابن الصخري وعلاقتها بتهديم الباستيون سنة 1637م 83
ثالثا: أوضاع البحرية الجزائرية 87
رابعا: ثورة الآغاوات 88
2-أوضاع فرنسا خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر..... 89
أولا: ريشيليو يبني قوة فرنسا العسكرية 90
ثانيا: الوزير الأعظم مازران 1643-1661 91

3-العلاقات بين البلدين 92
أولا: معاهدة 1628م 93
ثانيا: معاهدة 1640م 96
أ- العلاقات بعد وفاة نابلون..... 96
ب- دي كوكيل ومعاهدة 1640م..... 99
المبحث الثالث: تأثير نشاط الباستيون على العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر 102
1- في العلاقات السياسية.....102
2- في العلاقات التجارية 104
3- في العلاقات الاجتماعية 108
خـــاتمة.....112
الملاحق.....114
المصادر والمراجع.....147
الفهـــــارس.....156
فهرس الأعلام 156
فهرس الأماكن.....160
فهرس القبائل والجماعات 163
فهرس المصطلحات التجارية والاقتصادية.....165
فهرس الموضوعات.....169

République Algérienne Démocratique et Populaire
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique
Université de Ghardaïa
Faculté des sciences sociales et humaines
Département d'histoire

Résumé du mémoire Magistère intitulé:

ACTIVITE DE L'AGENCE DU BASTION ET SON IMPACT SUR LES RELATIONS ALGERO-FRANÇAISES AU COURS DE LA PREMIERE MOITIE DU XVIIe SIECLE AD/ XIe AH

(1604-1659AD / 1013 – 1070AH)

Mémoire pour l'obtention du diplôme Magistère spécialité histoire moderne

Preparé par :
Cheikh LAKEHAL

Encadré par :
Dr. Ibrahim SAIOUD

Année Universitaire: 2012-2013AD/1433-1434AH

Résumé

Le sujet des relations algéro-françaises est parmi les sujets qui font appel à des chercheurs de l'histoire de l'Algérie moderne, d'autant plus que ces relations peuvent jeter une ombre sur l'histoire contemporaine de l'Algérie, et allait, même, dans le présent.

Et comme l'Algérie était la plus grande des régences Maghrébines, ce qui représente un conflit d'interface avec les pays chrétiens de l'Europe dans le bassin occidental de la Méditerranée, au cours du XVIe siècle. L'expansion de ce conflit s'étend de l'océan Atlantique et la mer du Nord, après le développement de la marine algérienne, pendant la première moitié du XVIIe siècle.

Quant à la France, elle s'était, au cours de la même période, reformée, et réorganisée, en se dirigeant vers l'alliance de style impraticables pacifique avec l'Empire ottoman, pour faire face à ses ennemis au sein du continent d'une part, et d'étendre leur influence diplomatique et économique dans l'Empire d'autre part.

Et parce que l'Algérie ottomane était la plus proche sur le territoire français, donc les Français travaillent à s'y installer, depuis la signature de Soliman le Magnifique le traité des privilèges de 1536; par le privilège de la pêche du corail sur la côte Est. Les marseillais s'étaient comptés de ce privilège, et fondés par les premières sociétés commerciales françaises en Algérie, à savoir l'Agence du Bastion.

Par conséquent, il semble que le facteur économique et commercial a été plus marqué dans les influentes relations algéro-françaises, et peut-être aussi le principal vecteur de ces relations qui ont fluctué entre une atmosphère de paix et dans la guerre, au cours de la première moitié du XVIIe siècle. Par conséquent, on a choisi d'étudier l'"**Activité de l'agence du Bastion et son impact sur les relations algéro-françaises au cours de la première moitié du XVIIe siècle AD/ XIe AH**."

Étude de la problématique:

On a étudié ce sujet à travers la réponse à la problématique suivante:

- Comment était l'activité et l’agence du Bastion, au cours de la première moitié du XVIIe siècle?

- Et quel sera l'impact de cette activité sur les relations algéro-françaises?

- Est-ce-que les intérêts économiques ont été la direction principale des politiques de France envers l'Algérie, au cours de la période de cette étude? Ou l'esprit des croisades sont prédominants dans leur relation avec celui-ci?

Le plan adopté dans l'étude:

Pour étudier cette question, j'ai vu de la partager à une introduction et trois chapitres et une conclusion:

J’ai défini, dans le premier chapitre, l'Agence du Bastion et ces accessoires, en discutant de la date de sa création, et son développement au cours du XVIe siècle, en examinant, également, certains aspects des relations algéro-françaises, au cours de la même période.

Dans le deuxième chapitre, j’ai étudie la situation de l'agence de Bastion au cours du premier trimestre du XVIIe siècle; du 1604 jusqu'à l'année 1628 AD, en indiquant l'influence de cette situation sur les relations entre les deux pays.

Ensuite, j’ai passé en revue dans le troisième chapitre, l’activité de cette agence au deuxième trimestre du XVIIe siècle; au cours des années de 1628 à 1659, en soulignant l'impact de cette activité sur les relations entre les deux pays.

Ensuite scellé tous à cette conclusion avec la restriction des plus importantes résultats de mon étude sur ce sujet.

Résultats de l’étude:

Et à l'issue de cette étude, j’ai conclu les résultats suivants:

1- L'Agence du Bastion; fondée en 1561AD/968AH, était la première des entreprises françaises qui ont le monopole de la pêche du corail et le commerce avec l'Algérie, au cours de la première moitié du XVIIe siècle.

2- L'activité de cette agence a connu une forte baisse au cours du premier trimestre du dix-septième siècle, après sa démolition par les Algériens, année 1604AD/1012AH, car elle dépasse les quantités

d'exportation de blé algérien, malgré la famine qui a toucher les régions de l'est de l'Algérie, durant cette période.

3- Les relations algéro-françaises était précipitées au cours du premier trimestre du XVIIe siècle, en raison du statut du Bastion, et devenir une guerre ouverte entre les deux pays, qui n'ont pas réussi à l'arrêter, ni les ambassadeurs de France à Istanbul, ni les envoyés du Sultan, dans laquelle la France a été la plus grande victime.

4- La France a tenu à remettre en état l'agence du Bastion, en utilisant l'intervention ottomane, et la menace militaire, mais elle n'a pas réussi dans les deux cas, au cours du premier trimestre du XVIIe siècle.

5- L'Algérie a profité de l'enthousiasme de la France pour la reprise de l'agence du Bastion, afin de confirmer l'indépendance de ces affaires diplomatiques d'Istanbul, après avoir forcé la France à négocier directement avec l'Algérie. Cela a conduit à la conclusion de la premier traité de paix entre les deux pays, année 1619/1027 AH.

6- Après le grand dommage à l'économie française; causé par le résultat d'actes de piraterie maritime algérienne, et la perturbation de l'agence du Bastion, les Français seront forcé à se conformer à toutes les modalités des Algériens, puis les Algériens ont reconstruit le Bastion, après un traité de paix et de commerce de l'année 1628/1037 AH.

7- L'activité de l'agence du Bastion était, au cours du deuxième trimestre du XVIIe siècle, de plus en plus prospère, après le traité de 1628/1037 AH. Cela s'est reflété sur la vie économique et sociale du Beylik de l'Est.

8- L'agence du Bastion travaillait, pendant l'ère de Napollon, à fournir de grandes quantités de blé algérien vers la France, bien que les matériaux ne sont pas autorisés à être exportés, mais les dirigeants de l'Algérie ont fermé ses yeux, à cause de leur amitié à Napollon.

9- Les relations politiques entre les deux pays, au cours de la majeure partie du deuxième trimestre du XVIIe siècle, sont orientées vers la paix et la tranquillité. Les agents du Bastion ont un rôle essentiel dans la stabilisation de la situation; grâce à leur succès en tenant des traités de paix avec l'Algérie, et à assurer le respect de ses dispositions, et de travailler sur la continuité.

10- Le deuxième trimestre du dix-septième siècle a connu la conclusion de deux traités de paix et de commerce entre l'Algérie et la

France; les années 1628AD/1037AH, 1640AD /1049AH. Les affaires du Bastion acquirent les termes de la partie commerciale de ces deux traités. Ces traités sont devenus une référence pour tous les traités bilatéraux pour les institutions françaises, jusqu'au XVIIIe siècle.

11 - La démolition de l’agence du Bastion, an 1637AD/1046 AH, ne constituait pas la cause directe du déclenchement de la révolution de Ben Sakheri, mais elle hâtait son démarrage, et contribuait à l'expansion pour inclure diverses tribus du Beylik de l'Est, après le rejet des tribus; qui collaborent avec les centres français, de payer le rapport annuel nécessaire; protestant contre la démolition de l’agence du Bastion.

12 - Les monopoles de l’agence du Bastion, au cours de la même période, eurent l'impact sur les relations commerciales entre l'Algérie et la France, comme l’activation des échanges commerciaux entre les deux pays, mais la plupart sont dans un sens, à cause des barrières et des obstacles que les Français les posent en face des commerçants algériens, envers des grandes installations qui reprenaient par les commerçants français en Algérie.

13- L’activité de l’agence du Bastion avait un rôle dans l'émergence des caractéristiques des relations sociales entre les Algériens et le personnel du Bastion, principalement dans les messages d'amitié, dans les cadeaux, et dans les avantages mutuels.

14- On pourrait faire valoir que la situation de l’agence du Bastion a exercé une influence sur la politique de la France vers l'Algérie, au cours de la première moitié du XVIIe siècle; alors lorsque les Algériens serrent à désactiver cette agence ou à réduire leur activité, la France dévisage sa façade croisée, par l'émergence de la ligne religieuse dure entourant la cour de France, et son opposition à tout rapprochement avec l'Algérie. et lorsque cet organisme est actif et augmente leur production, flotte à la surface les défenseurs de la paix auprès des commerçants qui étaient considérés comme leur meilleure circonstance pour relancer leur commerce, et promouvoir l'économie de leur pays.